

كتاب اليوم

يصدر عن مؤسسة أخبار اليوم

كسوة الكعبة المشرفة

وفنون الحجّاج



لا إله إلا الله

ابراهيم حلمي

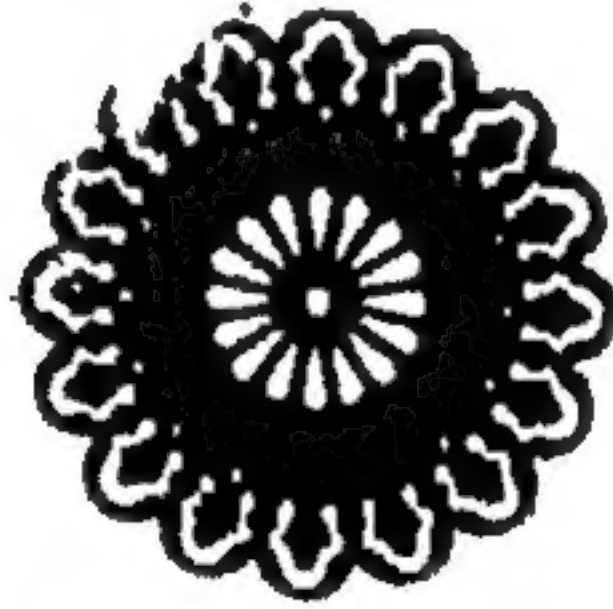
إبراهيم حلمي



كسوة الكعبة المشرفة



وفنون الحجّاج



■ المشرف على التحرير : جمال الفيضاني



● العدد ٣٢٠ ●

الاهـداء

أشرف الآن بعد أن خرجت هذه الأوراق الى
رحاب النور بأن أقول للأستاذ (صفوت كمال)
الأستاذ بالمعهد العالي للفنون الشعبية ، ومدير
تحرير مجلة الفنون الشعبية : « أستاذي
العزیز .. شكرا » - لاهتمامك بى وقت أن كنت أنا
طالب دراسات عليا بالمعهد أتلقى منك ، ومحبرا
بالمجلة من بعد أستزيد وأستنير بضياء أفكارك .

ابراهيم حلمى



مكونات كسوة الكعبة المشرفة

وقنون زركشتها(*)

منذ أعوام سحيقة ، ومنذ أن عرف الإنسان الله ،
وأدرك الطريق إلى هداة وتطهر قلبه بنور رباني مشرق ،
سعى من تيسر له من بني جنسه إلى زيارة بيت الله
الحرام ، من أجل أن يغتسل من الذنوب والأوزار
والأدران ، ويعود فائزا بنعيم الصفح والتوبة
والغفران .

ومنذ أن هل دين الاسلام ، وهو خاتم الرسالات السماوية ، بأركانها الخمس ،
حف الإنسان المسلم الركن الأخير منه - وهو الحج - بكل مظاهر الاجلال والعناية
والاهتمام في حياته .

وكان أبرز دليل على ذلك هو عنايته الخاصة ببيت الله الحرام ، وسعيه
واهتمامه بكساء هذا البيت العتيق ، الذي كان أول بيت وضع للناس مباركا .
ولقد مرت الأيام ، وبعبورها في ساحة الزمن ، كانت تتفتق مدارك الإنسان
المسلم ، وتتركز في ابداعات فنية قيّمة ، خصّ بها كساء بيت ربه المعظم ، حتى
وصلت إلى أعلا مراتب الابداع في الفنون ، فكان في الختام جملة ما نشاهده الآن
فوق جدران بيت الله الحرام من كساء جميل الصنع ، فائق الاتقان ، حلو الصورة
يجعلنا نشيد بقدرات وملكت من أبداع هذا ، وسبحان من ألهم العقول والأذهان
لكي تبداع عن طريقها أصابع الفنان .. !

مكونات كسوة الكعبة المشرفة :

من واقع آخر وثيقة مصرية كتبت وحررت كإشهاد شرعى لكسوة الكعبة
الشريفة في عام ١٣٨٠ هجرية الموافق ١٩٦١ ميلادية نستطيع أن نقف على
مكونات وتفاصيل هذه الكسوة المصرية ، ونجدها على النحو الآتي :

١ - ثمانية أحزمة^(١) وأربعة كردشيات^(٢) مزركشة جميعها بالمخيش^(٣) الفضة
الأبيض والمخيش الفضة الملبس بالذهب البندقى^(٤) . على حرير أطلس أسود
والخضر ، وهذه الأحزمة وما يتبعها من رفوكة^(٥) عددها أربعة ، وكذلك
الكردشيات سالفه الذكر مركبة جميعها على ثمانية أحمال من الحرير الأسود
الكمخ^(٦) المكتوب بالدالة المعروفة ، وهذه الأحمال الثمانية مبطنة بالبفتة
البيضاء وعروضها متماسكة بواسطة اشربة من النوار القطن الأبيض ، وتتكون
هذه الأحمال من اثنين وخمسين ثوبا من قماش الكمخ المذكور ، يحتوى كل ثوب
على ١٤,٨٠ مترا طول و ٠,٩٣ مترا عرض^(٧) .

٢ - ستارة باب بيت الله الحرام المعبر عنها بالبرقع ، وهي مزركشة أيضا بالمخيش سالف الذكر بنوعيه على حرير أطلس أسود وأخضر وأحمر ومبطنة بالبفتة البيضاء ومبطنة كذلك بالأطلس الحريري الأصفر ، وبها ثلاثة شرابات^(٨) كبيرة من الحريري الأسود والقصب والمخيش والكنثير^(٩) وستة أزرار فضة مطلية بالذهب واثنا عشرة شرابة صغيرة من القطن الهندي الأحمر والقصب والكنثير الفضة الأبيض والأصفر والمخيش العقادي الأصفر^(١٠) ، واثنا عشرة شمسية مزركشة^(١١) على الحريري الأحمر بالمخيش الفضة بنوعيه ومبطنة بالأطلس الأحمر ، والستارة المذكورة مكونة من أربعة أجزاء متصلة ببعضها ، وهي : العتبة^(١٢) والطراز^(١٣) والقائمان الكبير والصغير^(١٤) .

٣ - ستارة باب سطح بيت الله الحرام ، وهو المعروف بباب التوبة داخل البيت الحرام ، وهي من الحريري الأطلس الأسود والأخضر والأحمر ومزركشة بالمخيش بنوعيه ، ومبطنة بالبفتة البيضاء والنوار^(١٥) القطن ، وكذلك الأطلس الحريري الأصفر .

٤ - كيس مفتاح الكعبة المشرفة ، وهو من الأطلس الأخضر الحريري ومزركش بالمخيش الفضة المذكورة بنوعيه ، وله شرابتان من القصب الفضة الأصفر والمخيش العقادي والكنثير الفضة الأصفر ، وثلاثة أحبال قطن مجدولة تعرف بالمجاديل^(١٦) ، وواحد وأربعون حبلا من القطن تعرف بالعصافير^(١٧) ، وهذه الأحبال لتعليق الكسوة الشريفة على الكعبة المطهرة ، واقتان من الحريري الطبيعي الأسود المفتول لأصلاح ما يلزم في الكسوة الشريفة خلال عام إرسالها ، ويبلغ مقدار المخيش بنوعيه المزركشة به قطع الكسوة الشريفة جميعها ١٢٩٥٩ مثقالا^(١٨) من الفضة النقية وما يخالطها من الذهب البندقي .

ونلاحظ على وثيقة هذه الكسوة المصرية الأخيرة خلال عام ١٣٨٠ هجرية الموافق ١٩٦١ ميلادية ملحوظتين هامتين ، هما :

أولا : ان مكونات هذه الكسوة قد خلت من كسوة مقام سيدنا الخليل (إبراهيم) - عليه السلام - وستارة باب مقصورته ، حيث كان قد بطل عمل الكسوة لهذا المقام الجليل منذ عام ١٣٥٩ هـ الموافق ١٩٤٠ م ، لأن حكومة المملكة العربية السعودية قد غيرت شكل ما يحيط بالمقام من غطاء ، فأحاطته بسياج معدني ذهبي ، فلم تعد هناك حاجة لكساء هذا المقام الجليل ، في حين نجد في اشهادات سابقة لكسوة الكعبة الشريفة وجود كسوة لمقام خليل الرحمن و خليل الانسان سيدنا (إبراهيم) - عليه السلام - وكذلك ستارة لباب مقصورته الشريفة .

فمثلا في اشهاد كسوة عام ١٣٢٢ هجرية الموافق ١٩٠٥ ميلادية توصف كسوة مقام سيدنا (إبراهيم) بأنها مبطنة بالبفتة الأبيض المزركشة بالمخيش الأبيض والأصفر المطلق بالبندقي الأحمر على الحريري الأسود والأطلس الحريري الأخضر

والأحمر ، وبها أربعة شراريب حرير أسود وقصب وكنتير ومخيش وعشر شمسيات مزركشة بالمخيش الأبيض والأصفر المطلى بالبندقى الأحمر على الحرير الأحمر وعشرة شراريب صغيرة قطن مصبوغ أحمر وقصب وخمسة أزرة فضة مطلية بالبندقى الأحمر بها سجد قطن^(١٩) شبكة بقيطان قطن وأزرة وشراريب من قطن هندى أحمر وأصفر بخرز^(٢٠) وفي نفس الوثيقة نجد وصفا لستارة مقصورة سيدنا (ابراهيم) - عليه السلام - بأنها مزركشة بالمخيش الأبيض والأصفر على الحرير الأسود والأخضر والأحمر ، بها خمسة أزرة فضة مطلية بالبندقى الأحمر وعشرة شمسيات مزركشة بالمخيش الأبيض والأصفر على الأطلس الحرير الأحمر بها عشرة شراريب صغيرة قطن هندى أحمر وقصب مبطنة بالبفت الأبيض والأطلس الحرير الأخضر .

ثانيا : ان وثيقة اشهاد الكسوة الشريفة الأخيرة في عام ١٣٨٠ هجرية الموافق ١٩٦١ ميلادية قد خلت من ذكر « ستارة باب المنبر المكي » في حين ان وثائق الاشهادات السابقة كانت تذكرها باعتبارها احدى مكونات كسوة الكعبة الشريفة .

ونعتقد ان اللجنة التي قامت بكتابة وثيقة الاشهاد الشرعى لهذه الكسوة والمكونة من فضيلة الشيخ (احمد هريدى) مفتى مصر وقتها و (عبدالعظيم عبدالهادى القاضى) سكرتير دار الافتاء و (محمد ابراهيم صالح) رئيس دار الكسوة الشريفة ، والمقدم (عبدالرحمن حلمى الزغبى) المنتدب من مكتب الأمن بوزارة الأوقاف لتسليم الكسوة الشريفة بالأقطار الحجازية ، و (حسن عباس زكى) وزير الاقتصاد ورئيس بعثة الحج و (احمد عبدالله طعيمة) وزير الأوقاف ، وآخرين حضروا تسلم هذه الكسوة ، كل هؤلاء سقط منهم سهوا ان « ستارة باب المنبر المكي » هي احدى مكونات كسوة الكعبة المشرفة .

ولقد كنا نظن ان هذه الستارة قد بطل عملها وقتها بدار كسوة الكعبة بالخرنفس بالقاهرة ، وذلك أسوة بما حدث لكسوة مقام سيدنا (ابراهيم) وستارة باب مقصورته ، لكن فحصنا لمفردات كسوة الكعبة الشريفة هذه بالدار المذكورة تأكد لنا انها كانت موجودة ، لأنها مازالت مع بقية قطع الكسوة الأخيرة ويحتفظون بها حتى الآن فى الدار .

وهذه الستارة يصفها (ابراهيم رفعت باشا) قائلا : انها مصنوعة من المواد المصنوع منها البرقع (ستارة باب بيت الله الحرام) ، ومقاس ما فيها من الحرير الأطلس الأسود السادة ٦ ١/٤ أذرع ، وزنة ما عليها من المخيش بنوعيه ٣٩٧ مثقالا^(٢١) .

هذه هي مكونات كسوة الكعبة المشرفة ، أما فنون زركشتها فنستطيع أن نرجعها الى عهود قديمة .

واقدم هذه العهود التي تتحدث عن طراز كسوة الكعبة المشرفة هو عام ١٥٩ هجرية .

قال (الفاكهي) في كتاب « أخبار مكة » مؤرخا لها : « .. ورأيت كسوة من قباطي مصر مكتوبا عليها : بسم الله ، بركة من الله ، مما امر به عبدالله المهدي محمد أمير المؤمنين ، أصلحه الله ، محمد بن سليمان أن يصنع في طراز (تنيس) كسوة الكعبة ، على يد الخطاب بن مسلمة عامله سنة تسع وخمسين ومائة ، (٢٢) . وهذا التاريخ يرجع بنا الى أيام الدولة العباسية ، حيث كانت مصر تابعة لها بحكم الولاء للخلافة الإسلامية ، وكانت (تنيس) إحدى مدن دمياط التي تقوم بصناعة كسوة الكعبة المشرفة ، وفق أصول الصناعة التي تحذقها هي وبلدة أخرى شهيرة بصناعتها لكسوة الكعبة المشرفة ، وتدعى (تونة) ولها هي الأخرى طراز خاص بها وشهير ملء الأفق .

كانت بصمات الذوق المصري واضحة فوق كساء بيت الله الحرام منذ بواكير الاهتمام به في عصر النبي ، صلى الله عليه وسلم .

قال (عبدالرازق) عن (ابن جريج) : « أخبرني أن عمرا كان يكسوها القباطي ، وأخبرني غير واحد أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كساها القباطي والحبرات ، وأبو بكر وعمر وعثمان ، (٢٣) .

كان هذا القباطي قمشا مصريا منسوجا من الكتان المبيض وبه زخارف كتابية على شكل دوائر (٢٤) .

ولم يكن هذا القماش الذي نال شرف أن يستر بيت الله الحرام يعني بمعناه اللفظي اسم طائفة بعينها ، ولكنه يعني طريقة فنية تطبيقية اشتهر بانتاجها القبط من قبل دخول الاسلام وبرعوا فيها فأصبح اسمهم يطلق عليها سواء أكان صانعا قبطيا أم مسلما ، وظل هذا الاسم مستعملا طوال الفترة التي سادت فيها هذه الطريقة الفنية في زخرفة المنسوجات الى آخر العصر الفاطمي (٢٥) .

ويخطيء من يظن أن قماش القباطي كان ذا لون واحد ، أو من نوع الأقمشة السادة الخالية من الألوان . فهو على الرغم من قدم العهد به إلا أنه يعتبر من « المنسوجات الزخرفية » ، وأنه أول محاولة للحصول على زخرفة نسيجية مكونة من لونين أو أكثر وأن وسيلة صنعه تعد من أبسط الوسائل التي اتبعت في صنع أقمشة مزخرفة النسيج ، (٢٦) .

وعندما ازدهر استخدام قماش القباطي ، ذي الأسلوب المميز في الزخرفة المصرية كان يواكب ذلك ازدهار آخر في فن النسيج ، وهو أسلوب التطريز الذي أظهر براعة الانسلان المصري ، لمسك الأبرة والخيوط ، لينسج فوق سطح المنسوجات آيات واضحة من ابداعاته ، ليؤكد أن « فن التطريز أصيل في مصر وليس حرفة مستوردة ، فقد نشأ وظل بها في سلسلة متصلة الحلقات منذ أقدم عصورها التاريخية الى أوائل العصر الإسلامي على الأقل ، (٢٧) .

وبتلاحق السنين ، أخذ هذا الفن يوجد لنفسه صورا متعددة ، وقنوات يصب فيها اشكالا فنية فائقة الحس ، فكان فن الزركشة بصفة عامة وفن زركشة كسوة الكعبة المشرفة على وجه الخصوص ، بما له من سمات خاصة تحفها قدسية في داخل نفوس المبدعين لها من المسلمين ، لتضيف صفحات مجيدة منها الى الفن الاسلامي ، تبهر بها العيون والنواظر ، وتشرح بها القلوب والخواطر .

فنون زركشة كسوة الكعبة المشرفة :

شملت فنون زركشة كسوة الكعبة المشرفة ثلاثة أشياء تضافرت معا لتبرز وتجلو محاسنها على الوجه الأكمل . وهذه الأشياء هي :

- ١ - الحرف بما له من المعنى والشكل .
 - ٢ - الزخرف بما له من وحدة الايقاع المنتظم .
 - ٣ - اللون بما له من وقار التعبير الهادي .
- وإذا دققنا الفحص في أحزمة كسوة الكعبة المشرفة فسنجد أن العناصر الثلاثة السابقة تتناغم معا في وحدة عضوية واحدة .

الكتابات على أحزمة الكعبة المشرفة وأسلوب زركشتها :

- جاءت الكتابات على أحزمة الكعبة المشرفة الثمانية على النحو الآتي : (٢٨)
- الحزام الأول : طوله ٧,٥٠ مترا ، ويتداخل فيه ١٢٠٩ مثقالا من خيوط المخيش الفضة ، ومكتوب عليه : « بسم الله الرحمن الرحيم وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمانا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى . وعهدنا الى إبراهيم واسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود » .
 - الحزام الثاني : طوله ٦,٨٠ مترا ، ويتداخل في تشغيله ٨٧٤ مثقالا من المخيش ، ومكتوب عليه : « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت واسماعيل . ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا امة مسلمة لك وارنا مناسكنا وتب علينا انك انت التواب الرحيم » .
 - الحزام الثالث : طوله ٦,٤٠ مترا ، ويتداخل فيه ٩٠١ مثقالا من المخيش ، ومكتوب عليه : « بسم الله الرحمن الرحيم قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين . إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقام إبراهيم » .
 - الحزام الرابع : طوله ٥,٧٠ مترا ، ويتداخل فيه ٧٨٥ مثقالا من المخيش ، ومكتوب عليه : « ومن دخله كان آمنا . والله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ومن كفر فإن الله غني عن العالمين . قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله . والله شهيد على ما تعملون » .
 - الحزام الخامس : طوله ٧,٥٠ مترا ، ويتداخل فيه ١٠٣٨ مثقالا من

المخيش ، ومكتوب عليه : « بسم الله الرحمن الرحيم . وإن بوانا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بى شيئا وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود . وأن فى الناس بالحج ياتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ،

● الحزام السادس : طوله ٦,٧٠ مترا ، ويتداخل فيه ٩٤١ مثقالا من المخيش ، ومكتوب عليه : « ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها واطعموا البائس الفقير ثم ليقضوا نفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق ،

● الحزام السابع طوله ٦,٣٥ مترا ، ويتداخل فيه ٨٣٤ مثقالا من المخيش ، ومكتوب عليه : « بسم الله الرحمن الرحيم . الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله ،

● الحزام الثامن والأخير : به الأهداء وهو : « صنع بالجمهورية العربية المتحدة من الرئيس جمال عبدالناصر سنة ١٩٦١ » .

وبالطبع كانت هذه الكتابات على أحزمة كسوة الكعبة المشرفة التى صنعتها مصر عام ١٣٨٠ هجرية الموافق ١٩٦١ ميلادية .

ومن فنون الزركشة نلاحظ أن الخط مكتوب بخط الثلث لكل حزام ، وأن هذا الخط مكتوب بخيوط المخيش البارز ، وفوقه وتحت شريطان زخرفيان بأسلوب الزركشة البارزة ، وكل شريط ينحصر بين خطين يحصران توريقا على جانبي فرع نبات يأخذ شكل موجة الماء فى شكل الانحناءات .

ويلاحظ أن الفنان مركزش كسوة الكعبة المشرفة يبدأ حصر الكتابة فى قوس مفتوح جهة اليسار ، وهذا القوس يعلوه توريق ويتذيله آخر ، فى حين ينهى كتابة الحزام بقوس عكس الاتجاه الأول وينفس طريقة حصر القوس الأول ، مع اختلاف الاتجاه ، لكى يعطى نوعا من التماثل فى أسلوب الزركشة .

كما يلاحظ أيضا أن بين كل حزامين وضع الفنان مركزش كسوة الكعبة زركشة داخل دائرة ، وهى المسماة باسم (الرنك) وهذا الرنك انقسم الى أربعة أقسام متساوية ، شكلتها أربعة كلمات هى « يا حنان يا منان يا سبحان يا ذيلان » وهذه الكلمات الأربعة تشترك جميعها فى أول وثانى حرفين ، وهما (يا) كما تشترك فى الحرفين الأخيرين ، وهما (ان) . فضلا عن الجرس الموسيقى الذى تكونه هذه الكلمات الأربعة وتعطى صفاء النداء ونقاء الابتهاال لمن يقرأها فإنها تشكل ما يشبه الوردة عندما يتجمع كل حرف آخر منها مع نظيره فى تشكيل فنى رائع . ولقد تصرف الفنان كاتب الزركشة فى شكل حرفى النداء وهما (يا) ، وجعلهما فى وضع معكوس على شكل (ل) حتى يعطى مساحة فاصلة بين كل كلمتين ، وهذه المساحة ملأها بنقطتي حرف ياء النداء ، وجعل الفنان مركزش كسوة الكعبة المشرفة النقاء هذه الحروف الأربعة على شكل شبكة تملأ قلب الشكل ، ووسطه بنقطة فى المركز .

الكردشية وزركشتها .

توضع أربعة كردشيات عند أركان الكعبة المشرفة وتحت مستوى أحزمتها ، وكل كردشية عبارة عن دائرة داخل تشكيل مزركش على شكل مربع ، طول ضلعه ٣,٤٠ متر ، وهذه الدائرة تحوى سورة الاخلاص ، مكتوبة بحيث تأخذ شكل الدائرة هي الأخرى ، وعند كتابة العبارة « ولم يكن له كفوا أحد » صادف الخطاط حرفى كاف فى كل من « يكن » و « كفوا » وحتى لا يشوه تشكيله الخطى اكتفى بكتابة الحرف الأول فى كلمة « يكن » ووضع عند أسفل شرطة كافها كافا صغيرة على شكل (كـ) تعويضا عن الحرف كاف فى كلمة « كفوا » .

ولقد كوّن الفنان الخطاط تشكيلا مزركشا مشبكاً من كل الحروف ذات السيقان فى سورة الاخلاص ، وهذا التشكيل الهندسى حوى تشكيلا آخر دائريا عبارة عن أربعة كلمات من دعاء (يا الله) ، وقد جعل الخطاط حرف الف النداء مع حرف الالف فى لفظ الجلالة ليشكل زاوية قائمة شغلت مساحة ربع الدائرة ، وقد تصرف الخطاط فى طريقة كتابة حرفى النداء مثلما فعل فى الرنوك التى فى الأحزمة . وقد حدث تطور فى شكل الكردشية ، إذا غير الفنان الخطاط والمزركش هذا التكوين المشكّل من الكلمات الأربعة للفظ الجلالة والتى كانت تكتب منذ أزمنة بعيدة عثرنا على نسخة منها أيام الملك قواد الأول عام ١٩٢٥ ، الى دائرة من الحرير الأخضر كُتِبَ فى داخلها عبارة « الله جل جلاله » .

كما حدث تطور آخر فى ذلك الاطار المزركش الذى كان يحيط بالكردشية الى أربعة زوايا من الزركشة فى الأركان متصلة ببعضها ، وهذه الزوايا عبارة عن تشكيل هندسى من الأوراق النباتية المتداخلة ، بحيث تحدد هذه الزوايا اطار الشكل المربع .

وكانت كل كردشية تزركش بما هو زنته ٤٠٥ مثقالا من المخيش بنوعيه الفضى والذهبى^(٢٩)

ستارة باب الكعبة أو (البرقع) :

تعتبر ستارة باب الكعبة المشرفة أكثر قطع الكسوة الشريفة احتفاء بالزخارف النباتية والهندسية والكتابية على السواء^(٣٠)

وهذه الستارة متماثلة الزركشة النباتية والهندسية حول محورها الرأسى ، أما زركشة الخط فهى بالطبع لا تخضع لهذا التماثل ، نظرا لوجود آيات قرآنية تأخذ من مساحة مسطحها قدرا هو أكثر من النصف ، لذا يتعذر التماثل .

وإذا ما دققنا النظر فى زركشتها النباتية فسنجد انها إطار يحيط هذه الستارة بأوراق وفروع نباتية ، تتقابل على جانبي الفرع ، وتكثر الزخارف والزركشة فى الجزء السفلى من الستارة بشكل لافت للنظر ، وهو ما يسمى باسم (القائم الكبير) والذى به فتحة باب الكعبة المعظمة . فالفنان المزركش والمصمم لها أراد



■ كرداشية كسوة الكعبة المشرفة عام
١٩٢٥ ميلادية في عهد الملك فؤاد ■

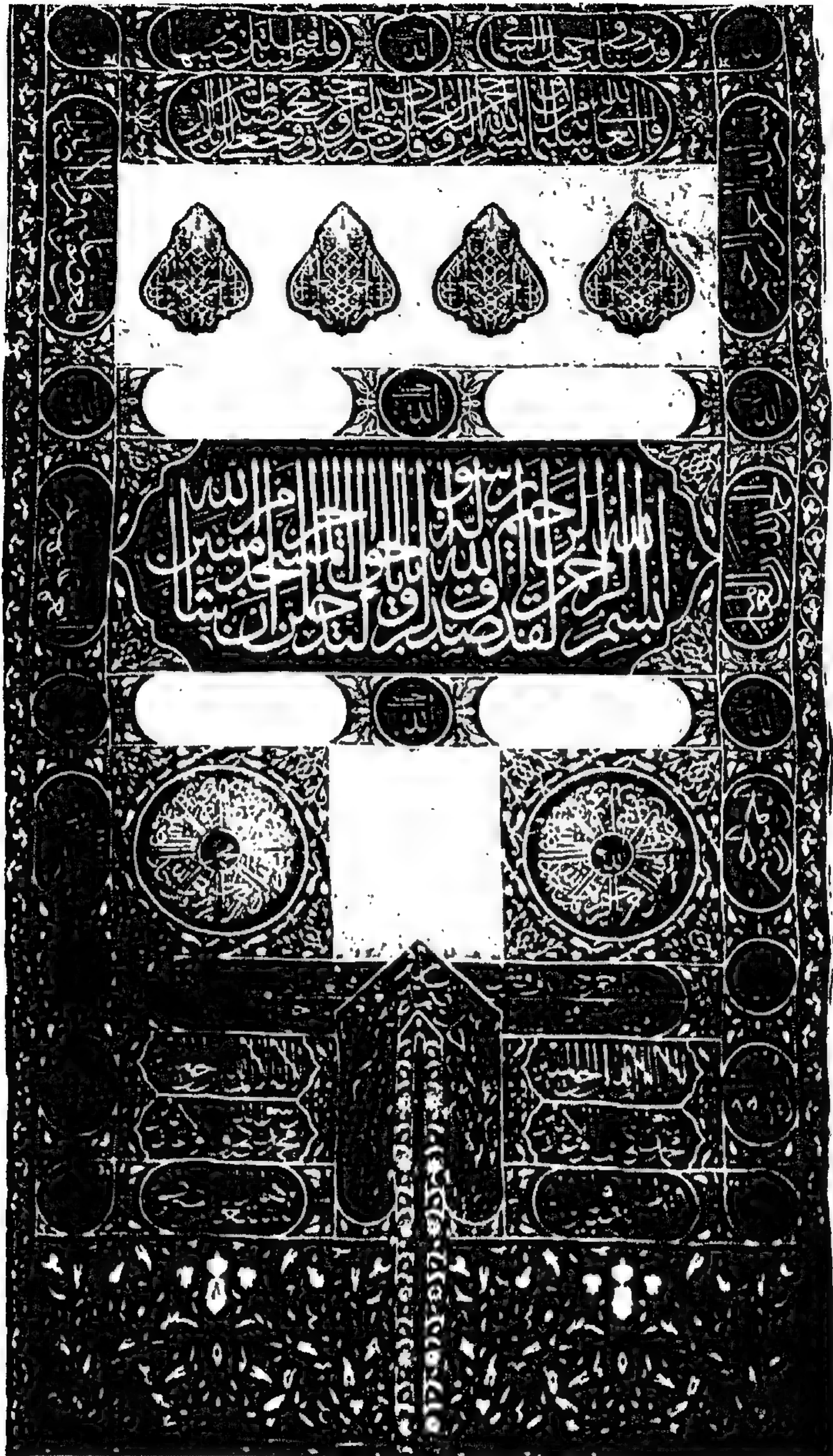
أن يضعها على هذا النحو في الجزء القريب من سطح الأرض ، لكي يبعد باقى الزخارف الكتابية عن مستوى الأرض باكبر مسافة ممكنة ، لأنها زركشة كتابية لآيات قرآنية شريفة .

أما الزركشة الهندسية فلا تخرج عن أن تكون ذات شكل دائرى ، أو بيضاوى ، أو مستطيل ، أو دائرى منبعج ، أو أشكال موزركشة على هيئة القنديل أو ثمرة الكمثرى .

والزركشة الكتابية فى ستارة باب الكعبة المشرفة أو البرقع عديدة ، ففي أعلا جزء فيها نجد فى ركنيها لفظ الجلالة مقترنا بالربوبية داخل دائرة مكتوب فيها « الله ربى » ثم الآية القرآنية الشريفة : « قد نرى تقلب وجهك فى السماء » ، وذلك داخل شكل بيضاوى ، ثم عبارة « الله حسبى » داخل دائرة فى المنتصف ، ثم تكملة الآية القرآنية الشريفة : « فلنولينك قبلة ترضاها » فى شكل بيضاوى ثان يتماثل من حيث الشكل مع نظيره الأول حول المحور الرأسى المار بالمنتصف . وفى أسفل هذه الآية القرآنية نجد آية قرآنية أخرى فى داخل شكل بيضاوى كبير تقول : « قال الله تعالى انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم » وهى الآية رقم (٣٠) من سورة المائدة ، غير ان كاتب الخط لم يكمل السطر بباقى الآية ، وإنما أكمل السطر بآية أخرى قرآنية تقول : « وقل رب ادخلنى مدخل صدق واخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا » ، وقام الخطاط بكتابة آخر كلمتين فى هذه الآية وهما « سلطانا نصيرا » بخط أصغر من باقى حروف الآية الكريمة ، حتى يتمكن من أن يكمل بهما باقى السطر فى حدود المساحة والحيز المتاحين ، فى براعة فائقة واتقان لا يوصف ودقة متناهية^(٣١)

ثم أسفل هاتين الآيتين الكريمتين يوجد أربع أشكال كتابية موزركشة ، داخل شكل على هيئة القنديل أو ثمرة الكمثرى ، تحتوى البسمة كل واحدة منها ، فى تكوين متماثل الشكل حول كل محور رأسى لاحداها ، فى حين تتخلل الزركشة فيما بين هذه الأشكال الأربع القنديرية أو الكمثرية افقيا ورأسيا بأوراق نباتية ذات فروع .

يلى ذلك شكل بيضاوى يحتوى على الآية القرآنية الكريمة فى الجزء الأيمن من الستارة : « بسم الله الرحمن الرحيم . الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم » ، وهى مكتوبة فى سطرين يفصلهما خط أفقى ، ثم دائرة داخلها عبارة « الله حسبى » ثم تكملة آية الكرسي فى الجزء الأيسر من الستارة فى شكل بيضاوى متماثل مع الجزء الأيمن : « له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون » ويكمل الفنان الخطاط والمزركش الآية فى سطور لاحقة . وعند هذا الحد ينتهى الجزء الأول العلوى ، وهو ما يسمى باسم (العتبة) .



■ ستارة باب الكعبة المشرفة أو ما يسمى بالبرقع عام ١٩٠٩ ميلادية

في عهد السلطان حسين كامل ■

أما الجزء القالى فقد أدخل الفنان الخطاط والمزركش بأكبر خط فى التصميم كله الآية الكريمة : « بسم الله الرحمن الرحيم . لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين » .

والى هنا ينتهى الجزء الذى يلى (العتبة) والمسمى باسم (الطراز) . ثم تاتى أسفل ذلك تكملة آية الكرسي ، ثم كردشيتان داخلهما سورة الاخلاص ، مع اختلاف بسيط عن الكردشيات التى تعلق منفصلة فى أركان الكعبة . إذ يتوسط اليمنى لفظ « الله جل جلاله » أما اليسرى فيتوسطها « محمد رسول الله » . وينتهى عند ذلك الجزء المسمى بالقائم الصغير . أما القائم الكبير فهو بقية الجزء السفلى من الستارة ، وهو الذى يحتوى على فتحة باب الكعبة ، والتى زركت على جانبيها بسورة الاخلاص ، وفى الجزء الأيمن من الفتحة والأيسر سورة قريش ، وتحتها « لا إله إلا الله الملك الحق المبين » فى كل من الجزء الأيمن والأيسر وتحتها « محمد رسول الله صادق الوعد الأمين » .

ونلمح فى زركشة الستارة الكتابية فاتحة الكتاب ، وهى مكتوبة فى مجموعة من الأشكال البيضاوية ، على الاطار الخارجى لها ، فى حين يتوسط نهاية الزركشة الكتابية مستطيل كتبت بداخله : « أمر يصنع هذه الستارة صاحب الجلالة ملك مصر فؤاد الأول بن اسماعيل باشا بن الحاج ابراهيم باشا بن الحاج محمد على باشا » ، وان كانت هذه الأسماء قد تغيرت كثيرا ، واستبدلت باسم الملك فاروق الأول ، ثم الرئيس جمال عبدالناصر ، والذى توقف ارسال الكسوة المشرفة فى عهده . ثم الرئيس أنور السادات فيما بعد ، والذى كانت لديه النية فى إعادة ارسال الكسوة المصرية للكعبة المشرفة ، ولكن لم تمكنه الظروف من ذلك ، بعد ان تم تغيير الاسم بالفعل من على آخر كسوة^(٣٢)

ستارة باب سطر بيت الله الحرام أو باب التوبة :

على يمين الداخل من زاوية الركن الشمالى الشرقى للكعبة المشرفة يوجد باب يصعد منه على مدرج الى أعلا الكعبة ، يقال له « باب التوبة » . وهذا الباب عليه ستارة من الحرير المزركش بما هو زنته ١٠٢٤,٦٦ مثقالا من خيوط المخيش بنوعيه .

ومكتوب على هذه الستارة « بسم الله الرحمن الرحيم وإذا جاءك الذين « وذلك فى السطر الأول العلوى منها . أما السطر الثانى فمكتوب فيه التكملة « يؤمنون بإياتنا قل سلام عليكم كتب ربكم » ، وفى الثالث مكتوب « على نفسه الرحمة انه من عمل منكم سوءا بجهالة » وفى السطر الرابع « ثم تاب من بعده وأصلح فانه غفور رحيم » .

أما السطر الخامس ، فمكتوب بخط أصغر « صدق الله ربنا وخالقنا العزيز الرحيم وصدق رسوله البشير النذير » .

وفي نصف الستارة السفلى فمكتوب الاهداء على ثلاث سطور ، وهي « أمر بتجديد هذه الستارة الشريفة » ، « صاحب الجلالة ملك مصر فؤاد الأول » ، « ابن اسماعيل باشا ابن الحاج ابراهيم باشا » . وفي الستار القديمة كان يكتب الاهداء في السطر الخامس من الجزء العلوى ، وهذا ما لاحظناه على ستارة باب التوبة التى أمر بصنعها السلطان (محمد خان الخامس) (٣٣)

ويلاحظ على هذا الجزء السفلى من هذه الستارة انه متماثل فى الزركشة النباتية والهندسية حول المحورين الأفقى والرأسى المارين بالمنتصفين ، والزركشة فيه غزيرة . أما الاطار الخارجى للستارة فهو مزركش بعدد ١٤ وردة ، كل واحدة منها داخل دائرتين فى حين يفصل بين كل وردتين تكوين زخرفى مزركش متماثل حول محوريه الأفقى والرأسى ، ويختلف هذا التكوين فى منتصف الاطار العلوى والسفلى لكسر حدة التماثل فى اسلوب زركشة الستارة .

أما من حيث الألوان ، ففضلا عن لون الستارة الأسود ، يستخدم فنان الزركشة بعض قطع من الحرير الأخضر فى نصف الستارة العلوى ، امعانا فى اظهار الآيات المؤكدة لمعاني الايمان والتوبة ، وهو المعنى الذى أضفى على اسم هذه الستارة . ويختلف اسلوب زركشة اطار هذه الستارة عن اسلوب زركشة اطار ستارة باب الكعبة المشرفة ، كما يختلف عن اسلوب زركشة ستارة باب المنبر المكي ، إذ أن اسلوب زركشة اطار هاتين الستارتين واحد فى استخدام الفرع النباتى والأوراق على جانبيه ، ولكن الفنان المزركش لستارة باب التوبة عمد الى الزركشة بالدوائر وبالتكوين ذى الوحدة المتكررة بلا فروع نباتية .

وحيث أن هذا الاسلوب موجود فى ستارة السلطان (محمد خان الخامس) فواضح ان البصمات العثمانية واضحة على الاسلوب الفنى فى زركشة مثل هذه الستارة ، وان كانت الايدى المزركشة لها مصرية .. !

ستارة باب المنبر المكي :

هذه الستارة وصفها اللواء / ابراهيم رفعت باشا فى رحلته للأراضى الحجازية عام ١٣١٨ هجرية الموافق ١٩٠١ ميلادية فقال انها : « مصنوعة من المواد المصنوع منها البرقع ، ومقاس ما فيها من الحرير الأطلس الأسود السادة ٦ ١/٤ أذرع ، ووزنه ما عليها من المخيش بنوعيه ٣٩٧ مثقالا » (٣٤)

(الذراع = ٧٥ سنتيمترا)

واسلوب زركشة هذه الستارة لم يختلف كثيرا خلال هذا القرن سوى فى اختيار الآيات القرآنية الشريفة التى تكتب عليها . وفى أحد نماذجها التى نشرها اللواء (ابراهيم رفعت باشا) نجد الآيات القرآنية الشريفة الآتية :

فى السطر الأول العلوى : « بسم الله الرحمن الرحيم . إن الله » .
وفى السطر الثانى الذى يليه : « وملائكته يصلون على النبى يا أيها » .
وفى السطر الثالث الذى يليه : « الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما » .
وفى السطر الرابع الذى يليه : « الاهداء من الخديو عباس حلمى باشا خديو
مصر » .

وتنتهى الكتابة عند منتصف الستارة بالكامل ، بحيث يشغل منتصفها السفلى
زركشة فنية وهندسية ، حيث يتدلى قنديل أو مشكاة من مركز ثقلها معلق بثلاث
خيوط .

هذه الزركشة كانت فى عام ١٣١٨ هجرية الموافق ١٩٠١ ميلادية ، أما نفس
الستارة فى عام ١٣٤٤ هجرية الموافق ١٩٢٥ ميلادية أيام الملك فؤاد الأول ملك
مصر فقد تم تغيير الآيات القرآنية فيها الى :

السطر الأول فى منتصفه : « قال الله تبارك وتعالى فى كتابه العزيز » .
وفى السطر الثانى الذى يليه : « يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم
الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله » .

وفى السطر الثالث الذى يليه : « وذكروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون .
فإذا قضيت الصلاة » .

وفى السطر الرابع الذى يليه : « فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله
واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون . صدق الله العظيم » . وعبارة الختام بخط
صغير .

أما السطر الخامس والآخر فى الكتابة فكتب فيه : « أمر بصنع هذه الستارة
لمنبر بيت الله الحرام صاحب الجلالة ملك مصر فؤاد الأول نصره الله وذلك
سنة ١٣٤٤ » ..

إن اختيار هذه الآية التى تدعو الى صلاة الجمعة لوضعها على ستارة باب المنبر
المكى مقترن بأهمية المنبر فى أداء شعائر صلاة الجمعة ، حيث تشكل خطبة خطيب
المنبر الركن الأساسى فيها .

ولقد عمد الفنان المزركش لهذه الستارة الى ترك الجزء السفلى منها باستثناء
وضع القنديل أو المشكاة لاعطاء أكبر قدر ممكن لظهور مدى سواد الحرير الذى
يمثل لفيفا من الظلام ، فيحدث التضاد بين هذا الظلام وتعلق القنديل أو المشكاة
به .

كسوة مقام سيدنا ابراهيم عليه السلام :

يكتسب مقام الخليل (ابراهيم) عليه السلام قدسية خاصة عند كافة المسلمين . ف قيل : انه هو الحجر الذي وقف عليه الخليل - عليه السلام - حين بنى الكعبة ، وهذا يروى عن (ابن عباس) - رضى الله عنهما - و (سعيد بن جبير) ، وغيرهما ، وقيل : وقف عليه حين أذن للناس بالحج ، وقيل : وقف عليه حين غسلت زوجة ابنه اسماعيل رأسه لما جاء يسأل عن ولده اسماعيل^(٣٥) وروى (ابن بطوطة) أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما دخل المسجد أتى البيت فطاف به سبعا ، ثم أتى المقام فقرا : « واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى » ، وركع خلفه ركعتين^(٣٦)

وكان الخليفة (المهدي) العباسي هو أول من حلّى هذا المقام بحلية ذهبية من أعلاه وأسفله عام ١٦١ هجرية . وقد قال القاضي (عز الدين بن جماعة) : حررت لما كنت مجاورا بمكة سنة ٧٥٣ هجرية مقدار ارتفاع المقام عن الأرض ، فكان $\frac{7}{8}$ الذراع ، وأعلى المقام مربع من كل جهة $\frac{3}{4}$ الذراع ، وموضع غوص القدمين ملبّس بالفضة ، وعمقه من فوق الفضة سبعة قراريط ونصف قيراط من ذراع القماش المستعمل في مصر^(٣٧)

(الذراع = ٧٥ سنتيمترا)

وكانت مصر ترسل كسوة مقام سيدنا الخليل (ابراهيم) - عليه السلام - مع كسوة الكعبة المشرفة كل عام حتى أربعينيات هذا القرن حيث تغير شكل المقام جملة وتفصيلا - كما سبق أن قلنا - وأحيط بسياج ذهبي .

وهذه الكسوة مؤلفة من خمسة قطع ، أربعة منها راسية والخامسة هي سقفها ، وارتفاعها ٣,٣٤ مترا ، وعرضها ٣,١٨ مترا عند القاع و ١,١٢ مترا عند القمة وعلى كل قطعة منها ما وزنه من ٦١٠ الى ٦١٤ مثقالا من المخيش بنوعيه ، أما السقف فعليه ما وزنه من المخيش ١٣٩ مثقالا .

ولابرز جمال هذه الكسوة فقد استخدم الحرير الأسود والأطلس الحريري الأحمر والأخضر ، هذا فضلا عن الكتابات التي جاءت بها على النحو الآتي كما في الجدول رقم (١) :

البركة المكتوبة التي كانت على كسوة مقام الخليل (ابراهيم) - عليه السلام - سنة ١٣٤٤ هجرية
الواق ١٩٢٥ ميلادية

الوجه الاول	الوجه الثاني	الوجه الثالث	الوجه الرابع
بسم الله الرحمن الرحيم (وإن جعلنا البيت جنة للناس (وإن مطية للناس (وإن وعدها إلى ابراهيم واسماعيل أن للمطائفين العاكفين والركع	مقام ابراهيم مصلي	طهرا بيتي	السجود
بسم الله الرحمن الرحيم (وإن قال أولم تؤمن قال بلى ولكن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن وإعلم أن الله ربنا وخالقنا العزيز الرحيم تحتي ابوتى	الطير فصرهن	جزءا ثم ادعهن يا قتيك سعييا	الله ربنا وخالقنا العزيز الرحيم
بسم الله الرحمن الرحيم (إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين فيه دخله كان آمنا والله على الناس	أيت بيئات مقام ابراهيم ومن حج البيت من استطاع	أ- إليه سبيلا . إن الله غني عن	العالمين
عليه وسلم	رضي الله عنه	رضي الله عنه	رضي الله عنه
الله جل جلاله . محمد صلى الله عليه وسلم	أبو بكر رضي الله عنه . عمر	عثمان رضي الله عنه . علي رضي	حسن رضي الله عنه . حسين
بسم الله الرحمن الرحيم (قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم	الذي أرسل رسوله بالهدى ودين	وإذ يرفع ابراهيم القواعد من	الشريفة صاحب الجلالة ملك
بمن هو أهدى سبيلا	الحق ليظهره على الدين كله	البيت واسماعيل ربنا تغلب منا	مصر فؤاد الأول بن اسماعيل
وكفى بالله شهيدا	إنيك أنت السميع العليم	بأشما ابن ابراهيم بأشما	بأشما
بن الحاج محمد علي بأشما	سنة ١٣٤٤ هـ	سنة ١٣٤٤ هـ	سنة ١٣٤٤ هـ



■ كسوة مقام سيدنا ابراهيم عليه السلام عام ١٩٢٥ ميلادية في عهد
الملك فؤاد ■

وهذه الكسوة التي صنعتها مصر في عام ١٣٤٤ هجرية الموافق ١٩٢٥ ميلادية إذا ما قورنت بتظيرتها التي عملت في عام ١٣٢٧ هجرية الموافق ١٩١٠ ميلادية والتي أمر بصناعتها السلطان العثماني (محمد خان الخامس) سجد تغييرا طفيفا في مكان الآية الأخيرة من الوجه الثالث ، فكتب بدلا منها (السلطان محمد خان الخامس بن السلطان الغازي عبدالمجيد خان بن السلطان محمود خان بن السلطان عبدالحميد خان) ويستكمل بقية الاسم في نهاية الوجه الرابع (ابن السلطان أحمد خان خلد الله خلافته وأيد بالعدل سلطنته الى انتهاء الزمان ونهاية الدوران سنة ١٣٢٧ هـ (٣٨)

ونلاحظ على اسلوب زركشة كسوة الخليل (ابراهيم) - عليه السلام - انه على الرغم من كثرة وتنوع الآيات القرآنية المستخدمة في زركشتها إلا انها داخل تقسيمات هندسية تتكرر على كل الجوانب ، كما يصغر الخط في الجزء السفلي منها ليفسح مكانا كبيرا للمزكشة النباتية على أوجه هذه الكسوة الأربعة .

ستارة باب مقصورة سيدنا (ابراهيم) عليه السلام :

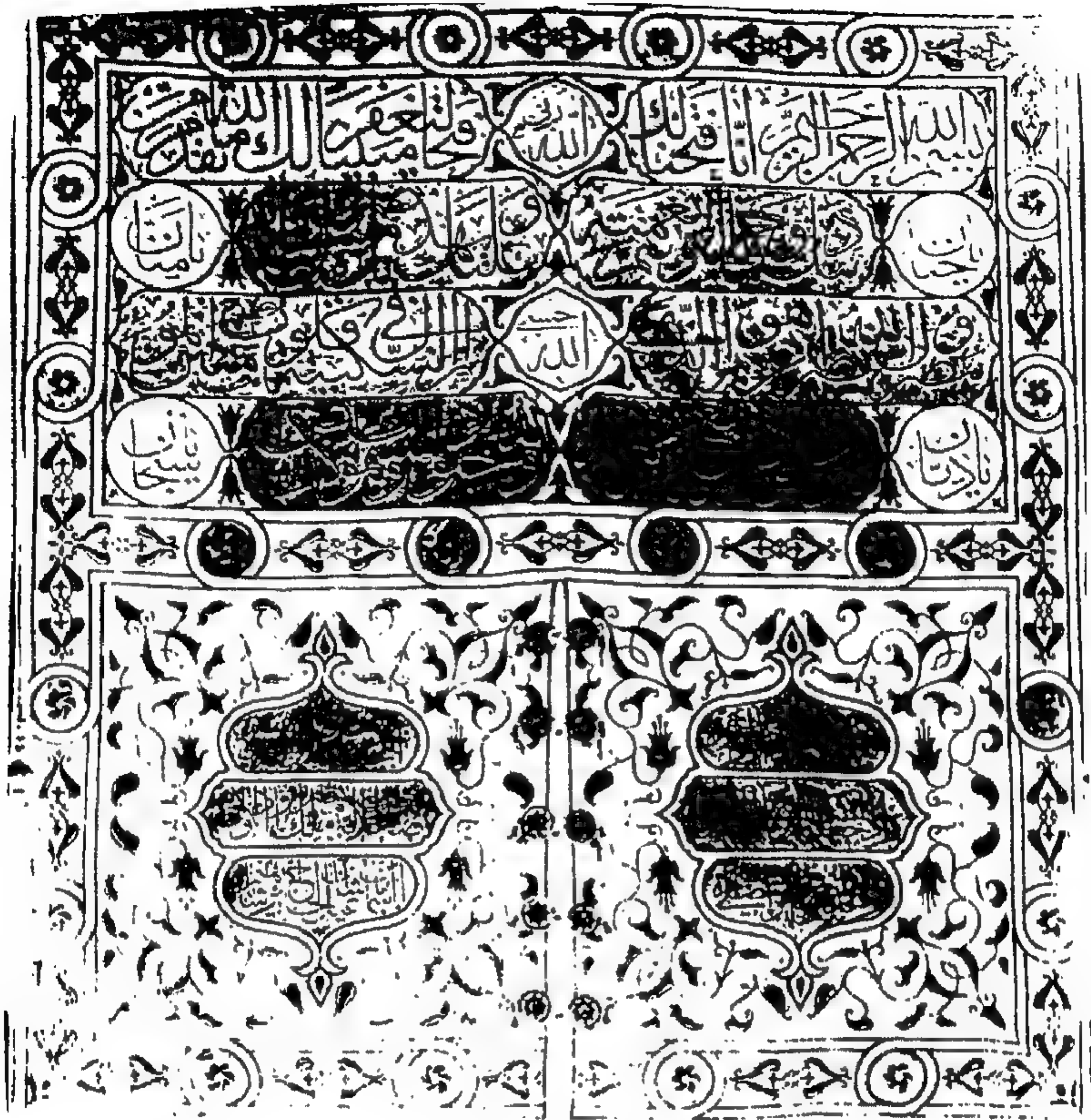
هذه الستارة مركبة من قطعتين طول كل منها ٥,٧٠ مترا ، ومن وصلة للقطعتين ، وهي كانت تصنع من المواد التي كانت تصنع منها ستارة باب الكعبة أو البرقع ، ويزن ما كان على القطعة الأولى من المخيش $915\frac{1}{2}$ مثقالا ، وما كان على القطعة الثانية $906\frac{1}{3}$ مثقالا ، وما كان على الوصلة ٤٨ مثقالا ، فالجملة كان ١٨٧٠ مثقالا ، وكان عليها خمسة أزرار فضة وعشر شمسيات وعشر شرابات صغيرة (٣٩)

وقد جاء زركشتها الكتابية على النحو الآتي :

السطر الأول : « بسم الله الرحمن الرحيم إنا فتحنا لك » ، ثم دائرة داخلها « الله ربى » ، ثم تكملة الآية « فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من »

السطر الثانى : يبدأ بدائرة داخلها دعاء « يا حنان » ، ثم تكملة الآية : « ذنبك وما تأخر ويتم نعمته » ، ثم يفصل الفنان المزرکش والخطاط الآية بما يشبه شكل المقص ، ثم يكمل : « عليك ويهديك صراطا مستقيما » ، ثم دائرة داخلها دعاء « يامنن »

السطر الثالث : يكمل الخطاط الآية : « وينصرك الله نصرا عزيزا . هو الذى » ثم نجد عبارة « الله حسبى » داخل ما يشبه الدائرة ، ثم : « أنزل السكينة في قلوب المؤمنين » ، السطر الرابع : دائرة في داخلها دعاء « يا ديلن » ، ثم تكملة الآية : « ليزدادوا إيماننا مع إيمانهم » ثم فاصل كما في السطر الثانى ، ثم يكمل الآية : « والله جتود السموات والأرض » ، ثم يكمل الخطاط البارع بقية الآية بخط صغير فوق حرف الضاد في الكلمة الأخيرة حيث يضع عليها كلمة « وكان » ، ثم يضع فوق حرف الراء في الكلمة الأخيرة « الأرض » عبارة « الله عليما حكيما » ، ثم ينهى السطر بدعاء داخل دائرة « يا سبحان »



■ ستارة باب مقصورة سيدنا ابراهيم عليه السلام عام ١٩٢٥
 ميلادية في عهد الملك فؤاد ■

والكتابة في الجزء السفلي تنقسم الى قسمين : يمين ويسار ،
 ففي اليمين نجد في السطر الخامس : « بسم الله الرحمن الرحيم » ،
 وفي السطر السادس : « وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا »
 وفي السطر السابع : « واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى »
 أما جزء اليسار فنجد في السطر الخامس : « أمر بتجديد هذه الستارة
 الشريفة »

وفي السطر السادس : « صاحب الجلالة ملك مصر فؤاد الأول » ،
 وفي السطر السابع : « بن اسماعيل باشا بن الحاج إبراهيم باشا » ولم يكمل
 الخطاط بقية الاسم على غرار باقي صور الاهداءات السابقة لعدم كفاية المساحة .
 وقد عمد المصمم الى الاكثار من الزركشة في الجزء السفلي بالأوراق النباتية والورود
 داخل الدوائر على محيط الستارة الخارجي ، فضلا عن الزركشة بالأزهار الفضية في
 شريط المنتصف .

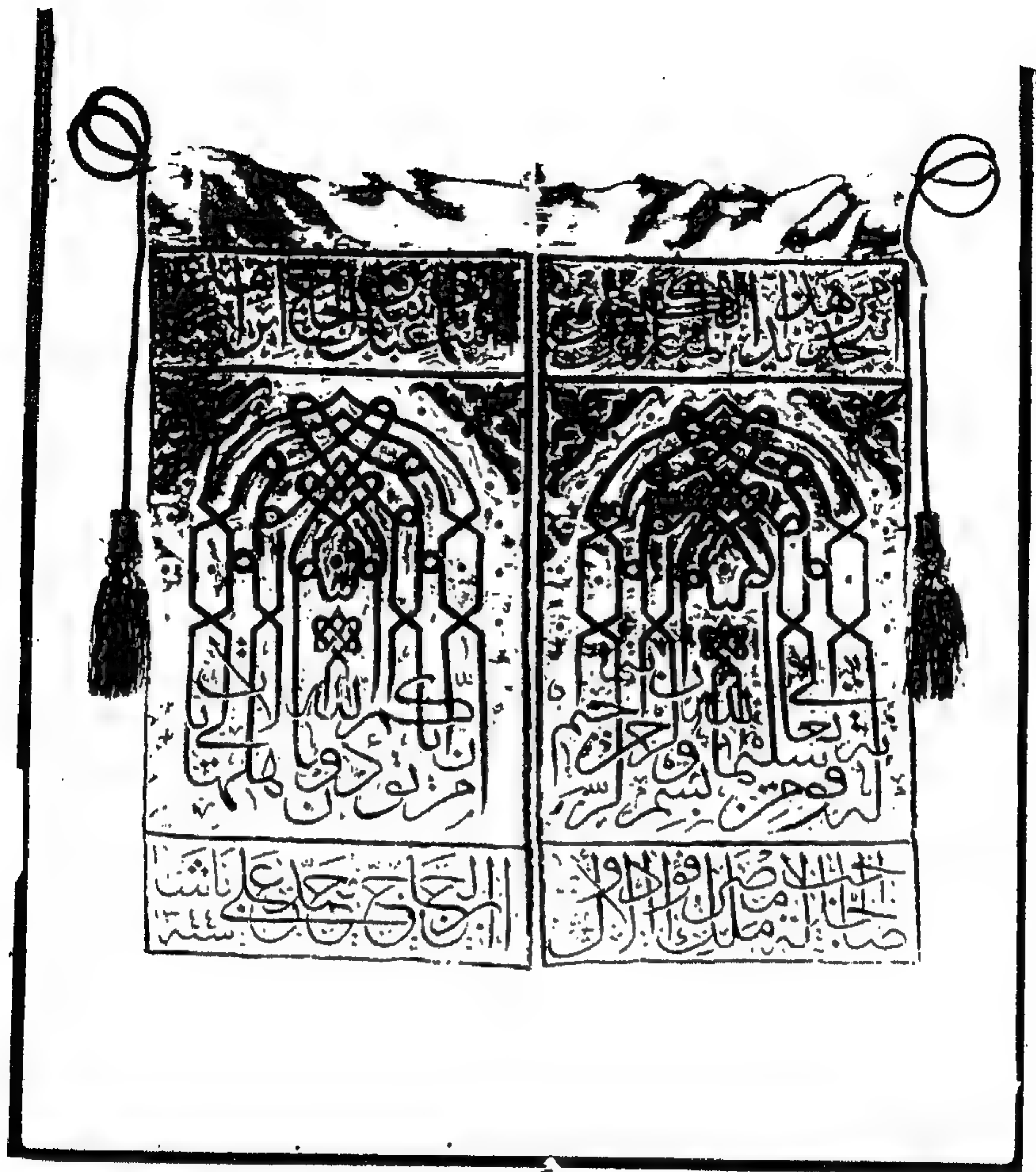
• كيس مفتاح الكعبة المشرفة :

عند فتح باب الكعبة المشرفة كانت تقام مراسم معينة وسط ابتهاج حجاج بيت
 الله الحرام ، من ذلك ما رواه الرحالة الأندلسي (ابن جبير) في عام ٥٧٩ هجرية .
 قال وهو يصف كيفية فتح باب البيت الحرام : « .. فيصعد زعيم الشيبين اليه ،
 ويبيده مفتاح القفل المبارك ، ومعه من السدنة من يمسك في يده سترا أسود ، يفتح
 يديه به أمام الباب خلال ما يفتحه الزعيم الشيبين المذكور ، فإذا فتح القفل قبل
 العتبة ، ثم دخل البيت وحده وسد الباب خلفه ، وأقام قدر ما يركع ركعتين ، ثم
 يدخل الشيبينون ويسدون الباب أيضا ويركعون ، ثم يفتح الباب ويبادر الناس
 بالدخول . وفي أثناء محاولة فتح الباب الكريم ، يقف الناس مستقبليين إياه
 بأبصار خاشعة ، وأيد مبسوطة الى الله ضارعة . وإذا انفتح الباب كبر الناس ،
 وعلا ضجيجهم ، ونادوا بالسنة مستهلة : « اللهم افتح لنا أبواب رحمتك
 ومغفرتك يا أرحم الراحمين . ثم دخلوا بسلام آمنين »^(٤٠)

ولأجل أهمية فتح باب بيت الله الحرام ، بما يحدثه في نفوس المسلمين الطائفين
 والمعاكفين والركع السجود من غبطة وانشراح وابتهاج الى غفار الذنوب ، حرصت
 مصر على ارسال كيس لمفتاح البيت العتيق مع كل كسوة للكعبة المشرفة كانت
 ترسلها .

ويصف اللواء (إبراهيم رفعت باشا) هذا الكيس فيقول : « هذا الكيس من
 الأطلس الساسي^(٤١) الأخضر الذي مقاسه ذراع وثمان (١/٨ ذراع) وموضوع
 عليه مخيش فضة ملبس بالذهب البندقى الأصفر الذي زنته ٤٥ مثقالا ، وكنثير
 ششخانة^(٤٢) أبيض وترتر^(٤٣)

فضة أبيض مثقالين ، وهو مبطن بالأطلس الساسي الأخضر ، ومركب عليه



■ كيس مفتاح الكعبة المشرفة عام ١٩٢٥ ميلادية في عهد
الملك فؤاد ■

قيطان بشرايتين مصنوعتين من قصب ومخيش عقادي اصفر وكفتير
ششخانة،^(٤٤)

والكيس الموجود الآن بدار كسوة الكعبة المشرفة بالخرنفس مقاسه ٤٢ × ٥٥
سنتيمترا ، ومكتوب بالخيش على أحد وجهيه الآية القرآنية الكريمة : « إن الله
يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وعلى الوجه الآخر مكتوب الآية القرآنية
الكريمة : « انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم ، ومكتوب في اطار علوي
وسفلي خارجي عليه الاهداء : « صنع بالجمهورية العربية المتحدة في عهد الرئيس
(جمال عبدالناصر) ، ثم استبدل الاسم باسم الرئيس الراحل (انور
السادات) »^(٤٥)

والآية القرآنية الكريمة التي تكتب على كيس مفتاح الكعبة لها قصة . فقد ردَّ
النبي المصطفى - صلى الله عليه وسلم - مفتاح الكعبة الى (عثمان بن طلحة) بعد
أن اخذه من (عمر بن الخطاب) وقال : « خذوها يا بني طلحة خالدة نالدة الى
يوم القيامة لا ينزعها منكم إلا ظالم ، ثم نزلت الآية القرآنية الكريمة على الرسول
المصطفى الأمين . ومن ثم بقيت سدانة الكعبة من بعده في بني شيبه الى اليوم^(٤٦)
ومن واقع مشاهدة صورتى كيس مفتاح باب الكعبة المشرفة في
عام ١٣٢٧ هجرية الموافق ١٩١٠ ميلادية أيام الخديو (عباس حلمي الثاني)
وعام ١٣٤٤ هجرية الموافق ١٩٢٥ ميلادية أيام الملك فؤاد الأول ، ومشاهدة آخر
كيس للكعبة المشرفة صنعته مصر عام ١٣٨٠ هجرية الموافق ١٩٦١ ميلادية ،
نستطيع ان نقرر ان زركشة هذا الكيس لم تختلف في كثير رغم اختلاف السنين ،
وكل ما حدث ان تم تبديل أسماء الحكام فقط ، مع بعض التغيرات الطفيفة في
الزركشة مثل استخدام شكل الورد في زركشة الكيس أيام الخديو (عباس حلمي
الثاني) في حين تغير ذلك الى استخدام نقط مكانها في أيام الملك فؤاد وما تلاها من
سنين حتى آخر كيس في عام ١٣٨٠ هجرية الموافق ١٩٦١ ميلادية .

كسوة الكعبة الداخلية :

برغم الاهتمام الحافل من المؤرخين بكسوة الكعبة المشرفة الخارجية ، وبمن قام
بعملها على مدى التاريخ ، وحتى رصد الوانها وتغيراتها إلا ان كسوة الكعبة
الداخلية لم يتتبعها أحد من المهتمين ، ولا نعرف حتى الآن من هو أول من كسى
الكعبة المشرفة من الداخل .

واقدم تاريخ وقفنا عليه لكسوة الكعبة الداخلية ذكره الرحالة الأندلسي
(ابن جبير) أثناء تأديته لفريضة الحج خلال عام ٥٧٩ هجرية . قال
(ابن جبير) : « وسقف البيت مجلل بكساء من الحرير الملون »^(٤٧)
وفي عام ٦٥٩ هـ قام ملك اليمن (المظفر يوسف بن المنصور) بكساء بيت الله
الحرام من الداخل والخارج بعد أن قُتل خليفة بغداد (المستعصم بالله)

العباسي^(٤٨) ولم يصف لنا احد شكل هذه الكسوة اليمينية الداخلية للكعبة المشرفة ، ولم نستطع الوقوف على تفاصيلها ، كالشكل ، واللون ، واسلوب الزركشة ، والكتابات التي عليها .

و اول كسوة للكعبة المشرفة من الداخل وجدنا لها بعض التفاصيل - فيما بين ايدينا من المصادر - هي الكسوة التي أرسلتها مصر ايام سلطنة (الناصر حسن ابن قلاوون) في عام ٧٦١ هجرية .

قيل عن هذه الكسوة المصرية انها كانت تستر باطن الكعبة المشرفة ، ابتداء من سقفها حتى أرضها ، ولكن يبدو ان احدا من سدنة الكعبة المشرفة كان يقطع منها بضعة اجزاء ليفرقها على من كانوا مغرمين باقتناء قطع منها . قال (الحافظ أبو الطيب الفاسي) (٧٧٥ - ٨٣٢) هجرية وهو ويصفها : « وبلغني انها كانت أطول من هذا بحيث تصل الى الأرض ، وهي الآن سائرة لمقدار النصف الأعلى وسقفها ، وهي حرير أسود ، وفيها جامات^(٤٩) مزركشة بالذهب »^(٥٠)

وبالوقوف برهة عند هذا الأسلوب الفني في زركشة كسوة الكعبة المشرفة من الداخل نجده انه أسلوب قديم ، وهو الاعتماد على وضع « الجامات » ، أو ما يسمى الآن بالكردشيات المزركشة بالزخارف ، سواء اكانت كتابية أو غير كتابية .

وإذا كان نفس المؤلف قد قال في نفس كتابه : « وفي سنة عشر وثمانمائة احدث في جانب الكسوة الشرقي من الكعبة جامات منقوشة بالحرير الأبيض »^(٥١) فليس معنى ذلك ان بداية التفكير في وضع الجامات على كساء بيت الله الحرام قد بدا في عام ٨١٠ هجرية ، كما قال المؤلف ، وإنما الصحيح الذي يستقيم مع المتطابق والتاريخ هو ان هذا العلم المتأخر كل بداية لهذا النوع من الزركشة بالجامات للكسوة الخارجية التي صنعتها مصر - إذا صح التقدير ، ولم يغفل ذكر البداية الحقيقية المؤرخون - في حين كانت كسوة الباطن للكعبة المشرفة تحمل نفس هذا الأسلوب الفني من الزركشة بالجامات المزركشة أو ما يسمى الآن بالكردشيات ذات الزركشة المذهبة والمفضضة منذ عام ٧٦١ هجرية على الأقل .

وإلا كيف « يستحدث » شيء وقبل ذلك بنحو نصف قرن من الزمان كل موجودا على الكسوة الداخلية للكعبة المشرفة !!؟

ولم نعرف لون هذه الكسوة الداخلية ، لأنه لم يشر احد من المؤرخين الى ذلك ، وإنما أشار المؤرخون الى لون كسوة الكعبة الداخلية التي عملتها مصر سنة ٨٢٥ هجرية ، ايام سلطنة السلطان المملوكي (الأشرف برسباي) وقالوا انها كانت من الحرير الأحمر^(٥٢)

وظلت مصر تصنع كسوة الكعبة المشرفة من الداخل ، حتى عام ١١١٨ هجرية الموافق ١٧٠٦ م ، حيث استأثرت بها الدولة العثمانية وحدها بعد أن شاركت مصر بضع سنين . عملها بحكم تبعية مصر لها بعد الغزو العثماني عام ٩٢٢ هجرية . الموافق ١٥١٧ ميلادية .

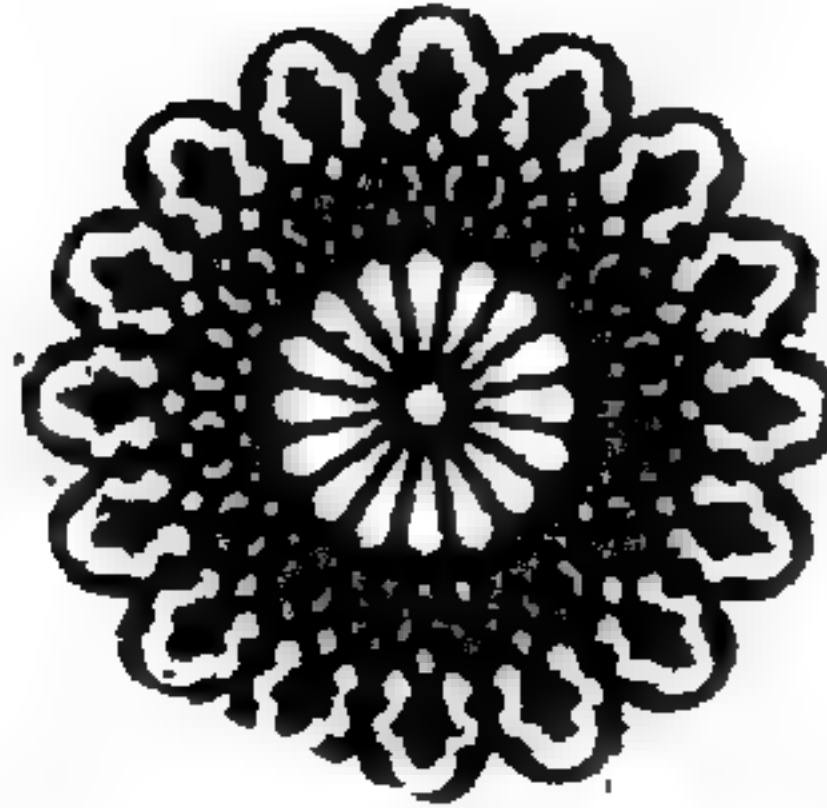


■ كسوة الكعبة المشرفة من الداخل التي ترجع الى عهد السلطان
العثماني عبدالعزيز خان ■

كانت زركشة كسوة الكعبة التي صنعتها تركيا أيام السلطان العثماني (سليمان القانوني) عام ٩٧٤ هجرية الموافق ١٥٦٦ ميلادية تأخذ شكل الزجراج العريض وداخله عبارة « لا إله إلا الله » ، وظهرت فيها وحدة زخرفية على شكل شجرة أو وردة ذات ثلاث مستويات ، ثم تغير الشكل في القرن الحادي عشر الهجري الى زجراجين متكررين ، أولهما عريض كُتِبَ عليه : « الصلاة والسلام عليك يا رسول الله » ، ومتكررة في الشريط الواحد ، ثم يلي ذلك زجراج أقل في السمك ، كُتِبَ عليه : « اللهم صلى وسلم على أشرف جميع الأنبياء والمرسلين » ، ثم يلي ذلك زجراج أقل في السمك مكتوب فيه : « ورضى الله تعالى عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي » ، وعلى الصحابة أجمعين ، . أما الشريط العريض من الزجراج الكبير ، فهو بنفس السمك الكبير ، ولكن تغيرت فيه الكتابة الى : « محمد حبيب الله ولا سواه » ، وكانت كسوة الكعبة المشرفة من الداخل حمراء اللون في عهد السلطان (عبدالعزيز خان) العثماني ، وكانت بنفس التقسيم ذي الزجراج ، وظهرت فيها بعض الزركشة بأشكال فنية ، مثل كلمة « يا حنان » ، في داخل شكل زخرفي في أعلا الزجراج الأصغر ، وكلمة « يا منان » ، في شكل معكوس للشكل الأول وتحت الزجراج الأصغر التالية للزجراج الكبير الأوسط .

وفي هذا الزجراج ظهرت عبارة « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ، متكررة ، أما الزجراج الصغير العلوي فمكتوب فيه الآية القرآنية الشريفة : « قد فرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها ، فول وجهك شطر المسجد الحرام » . وتتكرر هذه الآية القرآنية بامتداد الزجراج ، أما الزجراج السفلي فمكتوب فيه : « سبحان الله العظيم ، سبحان الله وبحمده » ، وهكذا تتكرر هذه العبارات متبادلة بامتداد الزجراج نفسه .

□ □ □



الهوامش والمراجع

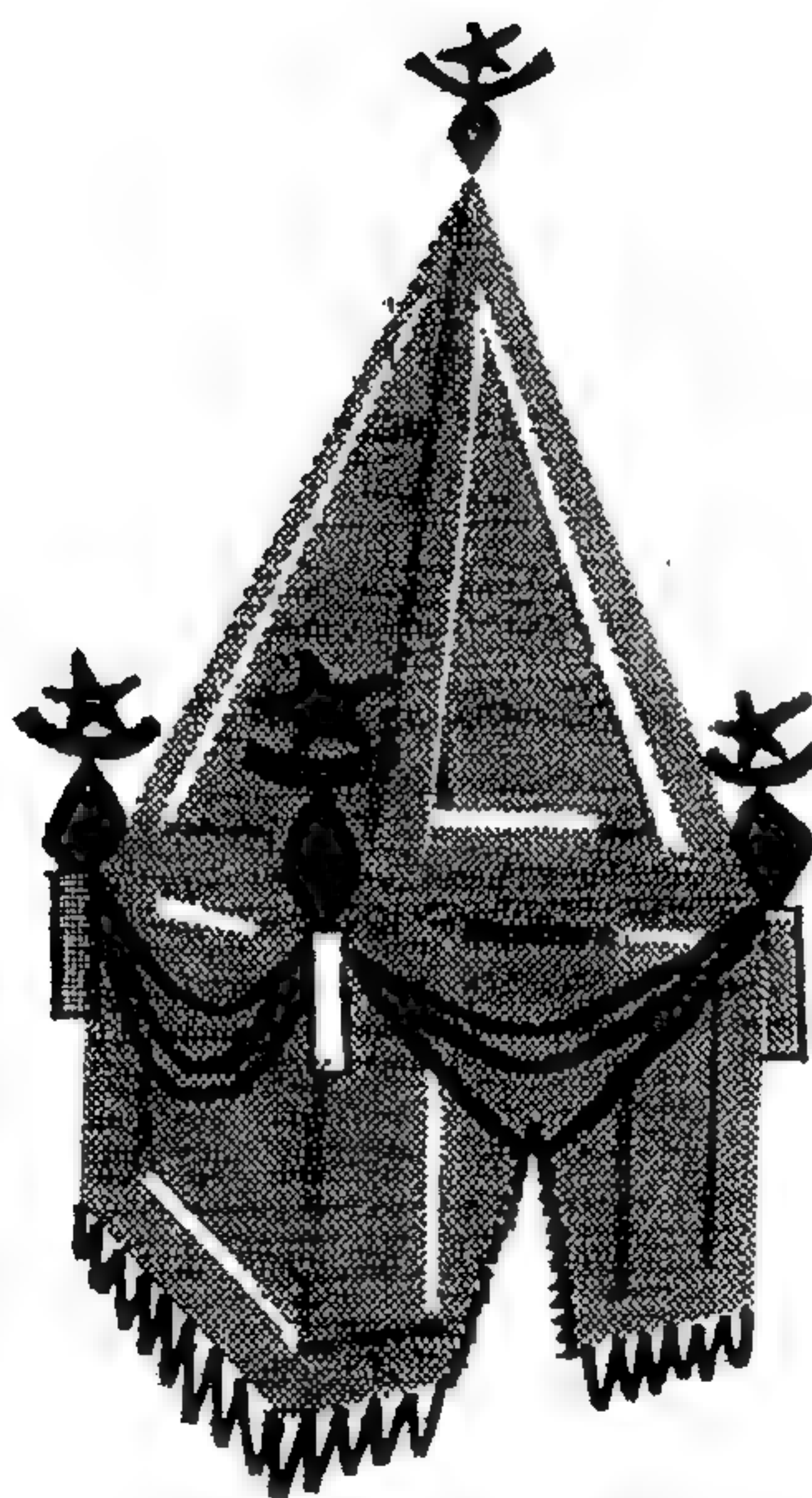
- (*) في الفارسية زركش الثوب المذهب أو الثوب تطرز حواشيه بخيوط الذهب - ص ١٢٢ - « تاصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل »
- (١) الحزام : هو الشريط الذي عليه كتابة مزركشة ومزخرفة على الكسوة الشريفة .
- (٢) الكردشية : زخارف كتابية في شكل دائري له تكونه الخاص .
- (٣) المخيش : نوع من الخيوط السلكية الرفيعة والتي تم سحبها من الفضة الخالصة ، أو الملبسة بالذهب .
- (٤) البندقى : عيار ٩٩ ٪ وهو أنقى أنواع الذهب .
- (٥) رونكه وهى كلمة فارسية بمعنى اللون والصبغة ، وهى في الاصطلاح التاريخى بمعنى الشعارو (الأرمال) والبندرة « أنظر » تاصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل ، للدكتور / أحمد السعيد سليمان - ص ١١٥ .
- (٦) الكمخ : الكتابة .
- (٧) هذه التفاصيل بياناتها من دار الكسوة بالخرنفش بالقاهرة .
- (٨) شُرَابَات : جمع شرابة ، وهى مجموعة خيوط قصيرة مجمعة في شكل كروى وذات اطراف متفرقة من هذه الخيوط .
- (٩) الكنتير : نوع من خيوط المخيش .
- (١٠) المخيش العقادى الأصغر : نوع من الخوط ذى طلاء ذهبى بالذهب .
- (١١) شمسة مزركشة : هى شكل دائرى شبه الشمس بأشعتها مزخرفة .
- (١٢) العتبة : هى الجزء العلوى من البرقع أو الجزء العلوى من ستارة باب الكعبة .
- (١٣) الطراز : هو الجزء الأوسط من البرقع أو الجزء الأوسط من ستارة باب الكعبة .
- (١٤) القائم الصغير : هو أيضا جزء أوسط ويل الطراز ، أما القائم الكبير فهو الجزء السفلى من البرقع .
- (١٥) النوار : شريط منسوج من القطن يوضع على ملتقى العرضين .
- (١٦) المجاديل : هى أحبال لتعليق الكسوة في سطح الكعبة بعد أن يتم خياطتها بالجزء العلوى من الكسوة الشريفة ، وهى سميكة نوعا .
- (١٧) العصافير : هى أحبال من النوع الرفيع بغرض ربط الكسوة الشريفة في حلق التحاس المثبت في محيط الكعبة المشرفة العلوى .
- (١٨) المثقال يعادل ٤,٧٥ جرام .
- (١٩) سجد قطن : صغيرة من النسيج في أطرافها كرات .
- (٢٠) هذه التفاصيل بياناتها من دار الكسوة بالخرنفش بالقاهرة .
- (٢١) اللولء / ابراهيم رفعت باشا « مرآة الحرمين » - ص ٢٩٦ ج ١ - دار المعرفة ببيروت - بدون تاريخ .
- (٢٢) المقرئى - « خطط المقرئى » - ص ٣٣٨ ج ١ - دار التحرير ١٩٦٧ .
- (٢٣) محمد صالح الشيبى « اعلام الأنام بتاريخ بيت الله الحرام » ص ١٩٦ تحقيق اسماعيل أحمد اسماعيل حافظ - مطبوعات نادى مكة الثقافى ١٩٨٤ .
- (٢٤) د سعاد ماهر « النسيج الإسلامى » ص ٣٤ مطابع دار الشعب ١٩٧٧ .
- (٢٥) المرجع السابق - ص ٣٥ .
- (٢٦) المرجع السابق - ص ٣٦ .

- (٢٧) المرجع السابق - ص ٢٣ .
- (٢٨) ابراهيم حلمي « كسوة الكعبة الشريفة » ص ٨٥ - مقالة بمجلة الفنون الشعبية عدد (٢٩) اكتوبر - نوفمبر - ديسمبر ١٩٨٩ - الهيئة العامة للكتاب .
- (٢٩) اللواء / ابراهيم رفعت باشا « مرآة الحرمين » ص ٢٩٣ ح ١ .
- (٣٠) ابراهيم حلمي « كسوة الكعبة الشريفة » ص ٨٥ .
- (٣١) يبدو غريباً من الخطاط عدم اكتمال سورة المائدة وهو ذلك الحوار الذي دار بين الملكة (بلقيس) ورجال بلاطها ، وفيما نعتقد - وهذا مجرد ظن بلا سند - ان التكملة كانت موجودة فيما سبق من كساوى ، وغير ان احد سلاطين الدولة العثمانية ، وهو السلطان (سليمان بن سليم الاول) قام بهذا التغيير في عهده ، تيمنا بان الآية الاولى تحوى اسم (سليمان) والثانية تحمل دعاء بان يهب الله له (سلطاناً نصيراً) .
- (٣٢) شاهدنا بانفسنا هذا التغيير في الاسم على نفس الكسوة عام ١٣٨٠ هجرية الموافق ١٩٦١ ميلادية والتي عادت من الحجاز في عهد الرئيس جمال عبدالناصر ، وقد لاحظنا على نفس الكسوة اسم الرئيس الراحل عبدالناصر ، وقد لاحظنا على نفس الكسوة اسم الرئيس الراحل انور السادات .
- (٣٣) قارن بين ستارة باب التوبة في عهد الملك فؤاد الاول سنة ١٩٣٠ وتلك الستارة للسلطان محمد خان الخامس - ص ٥٧٧ ح ١ « مرآة الحرمين » لابراهيم رفعت باشا ، وهي شكل رقم ١٠٤ .
- (٣٤) اللواء / ابراهيم رفعت باشا « مرآة الحرمين » - ٢٩٦ ح ١ .
- (٣٥) الحافظ أبو الطيب القاسي « شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام » ص ٢٠٢ ح ١ .
- مكتبة النهضة الحديثة بمكة ودار احياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي ١٩٥٦ .
- (٣٦) ابن بطوطة « رحلة ابن بطوطة » ص ٩٣ ح ٣ - دار التحرير للطبع والنشر - كتاب التحرير رقم ١٦٨ .
- (٣٧) اللواء / ابراهيم رفعت باشا « مرآة الحرمين » ص ٢٤٣ ح ١ .
- (٣٨) المرجع السابق - ص ٢٤٧ ح ١ ، ص ٥٧١ ح ١ .
- (٣٩) المرجع السابق - ص ٢٩٥ ح ١ .
- (٤٠) ابن جبير « رحلة ابن جبير » ص ٧٩ - دار الكتاب اللبناني - مكتبة المدرسة - بدون تاريخ .
- (٤١) الساسي : حرير جيد ينسب الى بلاد ساسان بارض العجم .
- (٤٢) كنتير ششخانه : هو خيوط من المخش ملفوفة في بعضها .
- (٤٣) الترتز : دوائر مثقوبة من وسطها .
- (٤٤) اللواء / ابراهيم رفعت باشا « مرآة الحرمين » - ص ٢٩٦ ح ١ .
- (٤٥) ابراهيم حلمي « كسوة الكعبة الشريفة » مجلة الفنون الشعبية - العدد (٢٩) ص ٨٨ .
- (٤٦) اللواء / ابراهيم رفعت باشا « مرآة الحرمين » ص ٢٩٩ ح ١ .
- (٤٧) ابن جبير « رحلة ابن جبير » ص ٧٢ .
- (٤٨) المقرئى « الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك » ص ٨٤ - تحقيق د . جمال الدين الشيال - مكتبة الخانجي ١٩٥٥ ، عبدالمك بن حسين العصافى المكي

« سمط التجوم العوانى فى انباء الاوائل والتوائى » ص ٢٢٢ ح ٤ - المكتبة السلفية بالروضة بالقاهرة - ١٣٨٠ هجرية .

- (٤٩) الجملة : كلمة فارسية بمعنى الرداء . انتظر « تاصيل ما ورد فى تاريخ الجبرقى » من الدخيل ، للدكتور احمد السعيد سليمان - ص ٥٩ ، والمقصود بكلمة جملة هنا هى وضع قطع من القماش المزركش فوق كسوة الكعبة المشرفة ، على غرار الكروشيات السابق وصفها .
- (٥٠) الحافظ أبى الطيب الفاسى « شفاء الغرام » ص ١٢٣ ح ١ .
- (٥١) المرجع السابق - ص ١٢٣ ح ١ .
- (٥٢) اللواء / ابراهيم رفعت باشا « مرآة الحرمين » - ص ٢٩١ ح ١ .

□ □ □





مشوار كسوة الكعبة المشرفة عبر التاريخ

كسوة الكعبة المشرفة في الجاهلية :

قال الراوى في سيرة الملك (سيف بن ذى يزن) :
« وبعد ان اظهر الوزير (يثرب) ايمانه للملك صار عنده
اعز من اخوانه ، وزادت مرتبته .. واقبل الليل بالظلام ،
وطلبت العين حظها من المنام ، وانصرف كل واحد منهم
الى مضاربه والخيام ، فنام الملك فى فراشه ، وغرق فى
منامه ، فرأى فى ليلة هاتفا يقول له : ياذا يزن بقى عليك
حلاوة اسلامك وهو ان تكسو البيت الشريف فانت فى بركته وبركة الطائفين به من
مشاريق الارض الى مغاربها . فلما افلق من منامه ولذيد احلامه طلب الوزير
(يثرب) اليه فلما حضر بين يديه قص القصة التى جرت عليه فقال له الوزير :
ياملك الزمان افعل ما امرت به فاجابه الى ذلك وامر بكسوة البيت خصفا وهى نوع
من الثياب الخليطة - وولى النهار ، واقبل الليل بالاعتكار ، ونام الملك ، فاتاه
الهاتف وقال له : اكس البيت غير هذا فلما افلق امر باحضار الوزير ، فلما حضر
قص عليه الرؤيا فقال له الوزير : ياملك الزمان . انت ملك الارض فى طولها وعرضها
وهذا لا يليق به ولا يليق بمقامك ، فامر الملك بالحرير ، وامر الصناع ان يشتغلوا
فى الكسوة وكساه واتم امره ثم نام تلك الليلة فاتاه الهاتف ثالث مرة ، وقال له
اكس البيت غير ذلك ، فلما افلق من منامه امر باحضار الوزير وقص عليه ما رأى
فقال له الوزير : ياملك الزمان افعل ما امرت به فامر بتركشة الكسوة بالخز
والفضة والذهب ، ففعلوا ما امر به الملك ، ورتب هذا على الملوك من بعده^(١)
هكذا استطاع الابد الشعبى المصرى ان يرصد ظاهرة الاحتفاء بكسوة الكعبة
المشرفة فى واحدة من اهم سيره الشعبىة العربية ، الا وهى سيرة الملك (سيف
ابن ذى يزن) بل واستطاع كذلك ان يرصد ذلك التدرج فى نوعية الكسوة المشرفة
الذى حدث لها ، وذلك وفق ما رأى خياله فى احد اشكال ابداعات تعبيراته
الشعبية .

وتقول احداث هذا السيرة الشعبىة ان الملك الحميرى اليمنى (ذا يزن) هم
بهدم الكعبة المشرفة ونقل حجارتها الى بلده واعادة بناء هيكلها باليمن لكى
يتباهى بذلك بين سائر ملوك الارض قاطبة ، غير ان الانتقام الالهى منه جعله
لا يستطيع ان يتم تنفيذ وسلوس النفس بالهدم ، حيث يردعه كلما هم بالهدم ،
ويمرض ، مرارا وتكرارا ، ولم يكن هناك من مخرج من تلك الورطة سوى ان يفض
الطرف عن هدم الكعبة المشرفة بل على العكس من ذلك ، يامر بكسوتها على النحو
الذى رآه فى منامه .

وتلخص السيرة الشعبية (سيف بن ذي يزن) تلك الواقعة في ابيات شعرية تقول على لسان الملك (ذي يزن) وهو يبدي بها الندم ، فيقول^(٢) : «

لقد رمت هدم البيت والركن والحجر

فردنى الجبار بالقهر والقدر

عزمت مرارا مرة بعد مرة

على هدمه بغيا وقد مسنى الضرر

وقد جاعنى من بعد ذلك هاتف

وقد كنت اسلمت على غم من كفر

وقال اكس هذا البيت ياذا بكسوة

فحللته خذاً وديباجاً اشهر

واقررت ان الله لا رب غيره

وان خليل الله بالحق قد امر

واذا كانت هي هكذا رؤية الفنان الشعبي فيما يخص كسوة الكعبة المشرفة ، في

ابداع سيرة شعبية ، فأين هذا كله - والسؤال يفرض نفسه فرضاً - من الواقع

التاريخي الصحيح لمسيرة الانسلان العربى والمسلم مع كساء بيت الله الحرام ؟ في

الحقيقة لم يثبت للمؤرخين رأى قاطع واحد عمن هو الشخص الذى كان اول من

قام بكساء الكعبة المشرفة ، ولا عرف بيقين مؤكد لا يتزعزع متى تم ذلك في زمن من

الازمنة قبل الاسلام .

ولكن للحقيقة فقد انحصرت الآراء في بضعة افراد بالذات دون غيرهم فنالوا

بذلك العمل الشرف الرفيع العظيم .

فمن هم هؤلاء ؟

روى (عبد الرازق) عن (ابن جريج) قال : « زعم بعض علمائنا ان اول من

كسى الكعبة اسماعيل النبى عليه السلام »^(٣) .

ويقال انه (عدنان بن أد) او (عدنان بن أد) فقد خاف ان يدرس الحرم

فوضع انصابه ، فكان اول من وضعها ، واول من كسى الكعبة^(٤) . وكانت كسوته

للكعبة المشرفة من الأنطاع ، وهى عبارة عن قطع من الأديم أو الجلد ، ولم يذكر

احد من المؤرخين ممن يؤيد ذلك متى تمت هذه الكسوة وإن اشار بعضهم الى نسب

(عدنان بن أد) فهو على حد قول البلاذرى - حفيد سيدنا (اسماعيل بن

ابراهيم) عليهما السلام - ويليه خمسة اجيال كاملة .

وقيل ان اول من كسا الكعبة هو تبع (اسعد أبو كرب) او (معان اسعد

الحميرى) وقد روى في ذلك قصة تشبه في كثير من تفاصيلها ما حكاه الحكاء

الشعبى في السيرة الشعبية (سيف بن ذي يزن) مع بعض التغيرات في

الأشخاص والأحداث ، التى فرضها حكاة السيرة الشعبية ، وفق رؤيته ونسجه

الفنى في ابداعه الخاص .

قال (الحافظ أبو الطيب الفاسي) : في كتابه « شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام » عن هذا الملك : « لما أقبل تبع وهو (معان أسعد الحميري) ملك اليمن من الشرق ، وجعل المدينة - يثرب - على طريقه لقضاء وطره بها ، ثم توجه منها الى مكة ، لأنها طريقه لبلده ، فلما كان بين أمج وعسفان ، لقيه نفر من هذيل من بني لحيان ، فحسنوا له تخريب الكعبة ، وأن يبني عنده بيتا يصرف اليه الحجيج ، فعزم على ذلك ، فدقت بهم دوابهم ، وغشيتهم ظلمة شديدة وريح ، فدعى أحبارا كانوا معه من أهل الكتاب ، فسألهم فقالوا : هل هممت لهذا البيت بسوء ؟ فأخبرهم بما قال له الهذليون وما أراد أن يفعل ، فقالوا له : ما أراد القوم إلا هلاكك وهلاك من معك ، هذا بيت الله لم يرد أحد بسوء إلا هلك . قال : فما الحيلة ؟ قالوا : تنوئ له خيرا أن تعظمه وتكسوه وتنحصر عنده وتحش دوابهم أياما ينحصر كل يوم مائة بدنة وكسا البيت »^(٥)

وروى عن (جعفر بن محمد) عن أبيه قال : « لما أقبل (تبع) يريد هدم البيت وصرف وجوه العرب الى اليمن فبكت مريضا ، فاقبل وقد سألت عيناه على خديه ، فبعث الى الأحبار والسحرة والكهان والمنجمين ، فقال : مالي ؟ فوالله لقد يت ليلى وما أجد شيئا ، ثم صرت الى ما ترون ، فقالوا : لعلك حدثت نفسك لهذا البيت بسوء ؟ فقال : نعم . قالوا : فحدث نفسك أن تصنع به وبأهله خيرا . ففعل وقد رجعت عيناه فلترت بصيرا ، وكسى البيت الخصف »^(٦) .

ويقال ان هذه الكسوة كانت من الخصف والمعافر والملاء والوصايل والعصب والمسوح والانطاع والبرود^(٧) .

ويقال كانت مدة هذه الكسوة للكعبة المشرفة قبل الهجرة النبوية بنحو ٢٢٠ سنة كما حدد ذلك التاريخ (العمرى)^(٨) .

وهذه الكسوة التي قام بها الملك الحميري لم يتفق أحد من المؤرخين على زمنها الحقيقي .

فكلا من (الحافظ أبي الطيب الفاسي) في كتابه (شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام) نقلا عن (العتبي) و (المسعودي) في كتابه (مروج الذهب) يذكران قصة الملك الحميري مع أول كسوة للكعبة المشرفة كانت قبل الاسلام بسبعمئة عام^(٩) !

وان صحت هذه القصة فنحن نرجح ان تكون وقائعها قد حدثت قبل الاسلام بنحو ما بين ٧٨ سنة الى ١٢١ سنة ، وسندنا في تحديد ذلك ما قد ورد في حادثة كساء الملك الحميري اليمنى (أسعد أبو كرب) للكعبة المشرفة من بعض الأبيات الشعرية التي تحدد هذا التاريخ قائلة :

ورد	الملك	تبع	وبنوه
جبيننا	من	ظفار	جدودهم
ثم سرفنا	بها	مسيرا	بعيدا

فاستبحنا بأخيل ملك (قباذ)
 وابن اقلود جاءنا مصفودا
 فكسونا البيت الذى حرم الله
 ملاء مقصبا وبرودا
 واقمنا به من الشهر عشرا
 وجعلنا لبابه اقليدا
 ثم طفنا بالبيت سبعا وسبعا
 وسجدنا عند المقام سجدودا
 وخرجنا منه إلى حيث كنا
 ورفعنا لواءنا معقودا

إذا فتاريخ هذه الكسوة يتفق مع فترة حكم الملك الساسانى فى فارس (قباذ
 الأول) والذى تولى الحكم سنة ٤٨٨ ميلادية لمدة ثلاث وأربعين سنة (١٠) .
 وقد قيل أن خلفاء الملك الحميرى اليمنى (أسعد أبو كرب) قاموا كذلك بكساء
 بيت الله الحرام بالجلد والأقمشة ثم أخذ الناس يقدمون للكعبة المشرفة هدايا من
 الكساوى المختلفة فيلبسونها على بعضها ، فكان إذا بلى ثوب وضع عليه ثوب
 آخر ، وكانت قریش ترافد فى كسوة البيت الحرام ، وذلك بأن يقدرُوا بعضا من
 المال على القبائل بقدر احتمالها فى عهد (قصى بن كلاب) حتى جاء
 (أبو ربيعة بن المغيرة المخزومى) وكان من الأثرياء فقال لقریش (أنا أكسو
 الكعبة وحدي سنة ، وجميع قریش سنة ، وظل يأتى بالحبر الجيدة من الجلد
 بأرض اليمن ، فيكسو الكعبة ، الى أن مات . فكانت قریش تلقبه بلقب « العدل »
 وذلك لأنه كان يعدل قریشا وحده فى كسوة الكعبة المشرفة (١١) .

وروى (الواقدي) عن (النوار بنت مالك) أم (زيد بن ثابت) رضى الله
 عنهما - أنها قالت : رأيت قبل أن ألد زيدا على الكعبة مطارف خز اخضر ،
 واصفر ، وكرار - أى خيش رقيق - وأكسية من أكسية الأعراب ، وشقاق شعر .
 كما روى (البخارى) عن أم المؤمنين (عائشة بنت أبى بكر) - رضى الله
 عنها - قالت : كانوا يصومون عاشوراء قبل أن يفرض رمضان ، وكان يوما تستر
 فيه الكعبة .

وقيل عن (ابن جريج) أن الكعبة كانت تكسى يوم عاشوراء إذا ذهب أخر حاج
 حتى كان بنو هاشم فكانوا يعلقون عليها القميص يوم التروية من الديباج لكى
 يرى الناس ذلك عليها بهاء وجمالا ، فإذا كان يوم عاشوراء علقوا عليها الأزار .
 وعن (عمر بن الحكم السلمى) قال : نذرت أمى بدنة تنحرها عند البيت ،
 وجللتها شقتين من شعر ووبر ، فنحرت البدنة ، وسترت الكعبة بالشقتين ،
 والنبى - صلى الله عليه وسلم - يومئذ بمكة لم يهاجر ، فنظرت الى البيت يومئذ

وعليه كسى شتى من وصائل وأنطاع وكرار وخز ونمارق عراقية كل هذا قد رأيته عليه (١٢) .

وتعد (نتيلة بنت جناب) أم (العباس بن عبد المطلب) أول عربية قامت بكساء الكعبة المشرفة في الجاهلية . فيقال انها ضل (العباس) منها وهو طفل صغير ، أو أخوه (ضرار) أو (خوار) فنذرت إن هي وجدت أن تكسو الكعبة المشرفة ، فلما عثرت عليه قامت بكساء الكعبة وفاء بنذرهما (١٣) .

وروى (الفاكهي) عن (جسر) ، قال : أصاب خالد بن جعفر بن كلاب لطيمة في الجاهلية - وهي جمال تحمل العطر والحرير - فيها نمط من ديباج فأرسل به إلى الكعبة ، فنيط عليها - أي وضع عليها - فعلى هذا هو أول من كسا الكعبة الديباج (١٤) .

مما سبق يتبين لنا أن كسوة الكعبة المشرفة عبر التاريخ العربي لها مشوارها الحافل والهام ، الذي لا يمكن إغفاله بأي حال من الأحوال ، على الرغم من الدجي الدامس لألفاف الظلام في الجاهلية ، وقبل شروق نور فجر الاسلام على يد نبيه المصطفى الكريم صلوات الله عليه وسلامه .

فقد كان الاهتمام بكساء بيت الله الحرام يعد مفخرة إنسانية يتطلع إليها هؤلاء البشر ، ممن كانوا يطوفون بالبيت العتيق ، طلباً للغفران ، بصرف النظر عن كون الرسالة المحمدية لم يأت وقتها أو ان مبعثها ، أو كانت الرعوس الضالة تسجد أمام جلاميد أصنام شتى ، لا هي تنفع ، ولا هي تضر ، ولا هي حتى تملك من أمرها شيئاً .

ففي أغوار تلك النفوس الطيبة كان غالباً ما يكمن ويستقر في الوعي أن هذا البناء الشامخ ما هو إلا بيت الله المحرم ، ولذا وجب كسوته على من وجد في طاقته القدرة ويستطيع أن يفعل .

أما وقد انبلج نور البعثة المحمدية ، فقد انتقلت كسوة الكعبة المشرفة من مرحلة هامة وحافلة إلى مرحلة أخرى أهم واحفل ، وشتان ما بين المرحلتين ، مثلما هو شتان ما بين شيء في الظلام ، وآخر في روعة النور .. !

كسوة الكعبة المشرفة في صدر الاسلام :

روى (البخاري) عن (عروة) يوم فتح مكة في رمضان أن قال الرسول المصطفى صلى الله عليه وسلم : « هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة ويوم تكسى فيه الكعبة » (١٥) .

وقد كان من الطبيعي ألا يشارك الرسول المصطفى صلى الله عليه وسلم ومعه المسلمون في كساء بيت الله الحرام قبل الفتح ، ذلك أن المشركين من قريش حالوا دون ذلك ، إلى أن تم فتح مكة فأبقى صلى الله عليه وسلم على كسوة الكعبة ، ولم يستبدلها ، حتى احترقت على يد امرأة كانت تريد تبخيرها ، فكساها الرسول صلى الله عليه وسلم بالثياب اليمانية (١٦) .

وبعد النبي صلى الله عليه وسلم كساها خليفته (أبو بكر الصديق) ، ثم كساها (عمر ابن الخطاب) بالقماش المصرى المعروف باسم (القباطى) ، وكان يكتب إلى مصر لتحك له الكسوة فيها .

وكان (عمر بن الخطاب) ينزع الكسوة القديمة كل سنة ، ويفرقها على الحجاج لكي يستظلوا بها بعد وضعها على نوع من الأشجار بمكة اسمه السمر^(١٧) .

وقال (ابن اسحق) : بلغنى أن البيت لم يكس في عهدى (أبى بكر) ، ولا (عمر) ، بمعنى أنه لم يجدد له كسوة^(١٨) .

وقيل أنه في عهد (عمر بن الخطاب) وجد شيئاً من الكسوة القديمة على حائض ، فأمر بحفر حفرة ، وألقى فيها الكسوة القديمة ، وأهل التراب عليها خوفاً من أن يلبسها جنب أو حائض ، فقالت له أم المؤمنين (عائشة بنت أبى بكر) : إن ثياب الكعبة إذا نزع عنها لا يضرها من لبسها من حائض ، ولكن بعها واجعل ثمنها في سبيل الله تعالى وابن السبيل ، فكان ما أشارت به (عائشة) رضى الله عنها^(١٩) .

وكان ذو التورين (عثمان بن عفان) أول من وضع من الخلفاء كسوتين على الكعبة المشرفة ، إحداهما فوق الأخرى ، وكانت إحداهما من البرود اليمانية^(٢٠) وكساها (عبدالله بن عمر بن الخطاب) ما كان يجلب به بدنه من قماش القباطى المصرى والحبرات والأنماط^(٢١) .

ويقال أن (ابن عمر) كان يكسو بدنه إذا أراد أن يحرم القباطى والحبر ، وفي رواية الأنماط ، فإذا كان يوم عرفة لبسها إياها ، وإذا كان يوم النحر نزعها ، ثم أرسل بها إلى (شيبه بن عثمان الحجبي) فناطها على الكعبة قبل أن تكسى^(٢٢) .

في عهد بنى أمية :

كان (معاوية بن أبى سفيان) يكسو الكعبة المشرفة بكسوتين في العام . وكانت الكسوة الأولى من الديباج في يوم عاشوراء ، وأما الثانية فكانت من القماش المصرى (القباطى) في اليوم التاسع والعشرين من شهر رمضان^(٢٣) .

ويقال أن (شيبه بن عثمان الحجبي) قد كتب إلى (معاوية بن أبى سفيان) في أمر تراكم أكسية الكعبة فوق بعضها البعض ، فقال : لو طرح عنها ما عليها من كسى الجاهلية ، فخفف عنها حتى لا يكون مما مشه المشركون شيء لتجاستهم ؟ فأمره أن يجرد الكعبة المشرفة مما عليها من كساو ، ويخلقها بالطيب ، ويلبسها ما جهرة إليها من ديباج وقباطى وحبرة . ففعل ، وقسم الثياب التي كانت عليها بين أهل مكة ، وكان (ابن عباس) - رضى الله عنهما - حاضرا في المسجد الحرام وهم يجردونها فما أنكر ذلك ولا كرهه^(٢٤) .

ثم كساها (يزيد بن معاوية بن أبى سفيان) الديباج الخسروانى ، كذلك فعل

(ابن الزبير) ، فقد كان يبعث إلى أخيه (مصعب) ليرسل إليه الكسوة كل سنة . وربما كساها به كذلك (الحجاج بن يوسف الثقفي) ، ولعله فعل ذلك تكفيرا عما أتاه من رميها بالمنجنيق في قتله (ابن الزبير) وهو معتصم بها . وكساها بالديباج أيضا الخليفة (عبد الملك بن مروان) . فقد كان يبعث به من الشام ، فيمر به وعلى المدينة ، فينشر يوما في مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم على الأساطين في مؤخر المسجد ، ثم يطوى ويبعث به إلى مكة . (٢٥) وقد كساها الخليفة (هشام بن عبد الملك) ديباجا من النوع الغليظ . وقال (الماوردي) : وكساها بنو أمية في بعض أيامهم الحل التي كانت على أهل (نجران) في جزيتهم ، والديباج من فوقها .

في عهد الدولة العباسية :

لم يهتم خلفاء الدولة العباسية في بداية عهد التأسيس بكساء بيت الله الحرام ، نظرا لكثرة القلاقل ، بل كان منهم من يريد أن يبني في بغداد نموذجا لصرف الأنظار إليه اطلقوا عليه (القبة الخضراء) ، وذلك في عهد الخليفة العباسي الثاني (أبو جعفر المنصور) ، وكان ما قاساه هذا الخليفة من عواقب إهماله الحرمين عبرة لخلفائه ، فلما تولى ابنه (المهدي) أمر الخلافة من بعده قام بكساء الكعبة المشرفة كسوة جديدة . (٢٦)

هذه الكسوة ذكرها (المقرئ) في خطه ، نقلا عن (الفاكهي) في كتابه (أخبار مكة) ، حيث أخبرنا أنها كانت في عام ١٥٩ هـ . في حين ذكرها (النويري) في كتابه (نهاية الأرب) بأنها كانت في عام ١٦٠ هـ .

فعند (المقرئ) قال نقلا عن (الفاكهي) الذي قال : ورأيت كسوة من قباطني مصر مكتوبا عليها « بسم الله ، بركة من الله ، مما أمر به عبد الله المهدي محمد أمير المؤمنين ، أصلحه الله ، محمد بن سليمان أن يصنع في طراز (تنيس) كسوة الكعبة ، على يد الخطاب بن مسلمة عاملة سنة تسع وخمسين ومائة » . (٢٧)

أما عند (النويري) فقد ذكر ضمن أحداث عام ١٦٠ هجرية أنه : حج (المهدي) في هذه السنة بالناس ، وفيها نزع المهدي كسوة الكعبة وكساها كسوة جديدة ، وكان سبب نزعها أن حجة الكعبة ذكروا له أنهم يخافون على الكعبة أن تتهدم ، لكثرة ما عليها من الكسوة فنزعها ، وكانت كسوة هشام بن عبد الملك من الديباج الثخين ، وما قبلها من عمل اليمن . (٢٨)

وكانت هناك كسوة أخرى صنعها الخليفة العباسي (المهدي) في عام ١٦٢ هجرية أتى بها من مصر ..

قال (المقرئ) عن هذه الكسوة نقلا عن (الفاكهي) قال : « ورأيت كسوة من كسا المهدي مكتوبا عليها بسم الله ، بركة من الله لعبد الله المهدي محمد أمير المؤمنين ، أطل الله بقاءه ، مما أمر به اسماعيل بن إبراهيم أن يصنع في طراز تنيس ، على يد الحكم بن عبيدة سنة اثنتين وستين ومائة » . (٢٩)

ورأى (الفاكهي) كسوتين من اكسية الخليفة العباسي (هارون الرشيد) في عامي ١٩٠ ، ١٩١ هجرية .

قال عن الأولى : ورأيت أيضا كسوة لهارون الرشيد ، من قباطى مصر ، مكتوبا عليها « بسم الله ، بركة من الله للخليفة الرشيد عبدالله هارون أمير المؤمنين ، أكرمه الله ، مما أمر به الفضل بن الربيع أن يعمل في طراز تونة سنة تسعين ومائة (٣٠) .

أما عن الثانية فقال (الفاكهي) : رأيت فيها كسوة من كسا أمير المؤمنين هارون الرشيد من قباطى مصر ، مكتوبا عليها : « بسم الله ، بركة من الله لعبدالله هارون أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ، مما أمر الفضل بن الربيع مولى أمير المؤمنين بصنعه في طراز شطا ، كسوة الكعبة ستة إحدى وتسعين ومائة (٣١) .

وقال (الفاكهي) : « ورأيت كسوة مما يلي الركن الغربى - يعنى من الكعبة - مكتوبا عليها : « مما أمر به السرى بن الحكم وعبد العزيز بن الوزير الجروى ، بأمر الفضل بن سهل ذى الرياستين وظاهر بن الحسين ، ستة سبع وتسعين ومائة (٣٢) .

وفي عهد الخليفة العباسي (المأمون بن هارون الرشيد) أمر أن تكسى الكعبة ثلاث مرات كل سنة ، فتكسى الديباج الأحمر يوم التروية ، وتكسى القباطى أول رجب ، وتكسى الديباج الأبيض في عيد رمضان (٣٣) .

ثم استمر الأمر على ذلك ، ثم اقتصر إلى أن الأزار الذى تكسى به الكعبة في عاشوراء ، ويلصق بالديباج الأحمر الذى تكسى به يوم التروية لا يفى إلى تمام السنة ، وأنه يحتاج إلى أن يجدد لها إزار على عيد رمضان ، مع قميص الديباج الأبيض الذى تكسى به في العيد ، فأمر أن تكسى إزارا آخر باخر عيد رمضان (٣٤) . وفي خلال القلاقل التى نشبت في هذا العصر نجد أن (أبا السرايا السرى بن منصور الشيباني) قد بعث (الحسين ابن الحسن الأقطس) إلى مكة في سنة تسع وتسعين ومائة لما ظهر أمره ، فدخل مكة ، فلما كان في المحرم من هذه السنة نزع الحسين كسوة الكعبة ، وكساها كسوة أخرى كان قد أنفذها (أبو السرايا) من الكوفة من القرن (٣٥) .

وفي عهد (المأمون) شاهد (الفاكهي) كسوة للكعبة المشرفة ، قال عنها : ورأيت شقة من قباطى مصر في وسطها ، إلا أنهم كتبوا في أركان البيت بخط دقيق أسود « مما أمر به أمير المؤمنين المأمون سنة ست ومائتين . » (٣٦) .

وفي سنة ٢٤٠ هـ رفع إلى الخليفة العباسي (جعفر المتوكل على الله) أن إزار الديباج الأحمر يبلى قبل هلال رجب من مس الناس وتمسحهم بالكعبة ، فزادها إزارين مع الأزار الأول ، فأزال قميصها الديباج الأحمر وأسبله حتى بلغ الأرض ، ثم جعل الأزار فوقه ، في كل شهرين إزار .

ثم نظر الحجابة فإذا الأزار الثانى لا يحتاج إليه ، فوضع فى تابوت الكعبة ، وكتبوا إلى (المتوكل) أنه يكفى إزار واحد مع ما أذيل من قميصها ، قصار يبعث بإزار واحد ، فتكسى به بعد ثلاثة أشهر ، ويكون الذيل ثلاثة أشهر . ثم فى سنة ٢٤٣ هجرية أمر (المتوكل) بإزالة القميص القباطى حتى بلغ الشاذوران الذى تحت الكعبة .

قال (الماوردى) : ثم كسا المتوكل أساطينه الديباج ، وقد عدت الكساوى التى كست بها الكعبة من سنة ٢٠٠ إلى سنة ٢٤٤ فإذا هى ١٧٠ ثوبا^(٣٧) ومن أكثر أكسية الكعبة المشرفة فى العصر العباسى وصفا وإسهابا عند من شاهدها كانت تلك الكسوة التى وصفها الرحالة العربى الأندلسى (ابن جبير) خلال حجه فى عام ٥٧٩ هجرية ، حيث تناولها بالوصف الدقيق فى ثلاث مواضع من كتاباته عن رحلاته الشهيرة .

لقد وصفها فى المرة الأولى ، فقال : « وظهر الكعبة كلها ، من الأربعة جوانب ، مكسو بستور من الحرير الأخضر ، وسداها قطن ، وفى أعلاها رسم بالحرير الأحمر ، فيه مكتوب : « إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة » الآية ، وإسم الامام الناصر لدين الله فى سعته قدر ثلاث أذرع يطيف بها كلها . قد شكل فى هذه الستور من الصنعة الغريبة التى تمطره أشكال محاريب رائقة ، ورسوم مقروءة مرسومة بذكر الله تعالى ، وبالدعاء للناصر العباسى المذكور الأمر بإقامتها ، وكل ذلك لا يخالف لونها . وعدد الستور من الجوانب الأربعة أربعة وثلاثون سترا ، وفى الصفحين الكبيرين منها ثمانية عشر ، وفى الصفحين الصغيرين ستة عشر ، وله خمسة مضاو ، وعليها زجاج عراقى بديع النقش ، أحدها فى وسط السقف ، ومع كل ركن مضوى . والواحد منها لا يظهر لأنه تحت القبو المذكور بعد وبين الأعمدة أكواس من الفضة عددها ثلاث عشرة ، وإحداها من ذهب »^(٣٨) ووصفها فى المرة الثانية ، فقال : « وكسوة الكعبة المقدسة من الحرير الأخضر حسبما ذكرناه ، وهى أربع وثلاثون شقة فى الصفح الذى بين الركن اليمانى والشامى منها تسع ، وفى الصفح الذى يقابله بين الركن الأسود والعراقى تسع أيضا ، وفى الصفح بين اليمانى والأسود ثمانى أيضا . قد وصلت كلها فجاءت كأنها ستر واحد يعم الأربعة جوانب » .

وقد احاط بها من أسفلها تكيف مبنى بالجص ، فى ارتفاعه أزيد من شبر ، وفى سعته شبران أو أزيد قليلا ، فى داخله خشب غير ظاهر ، وقد سمرت فيه أوتاد حديد فى رؤوسها حلقات حديد ظاهرة ، قد أدخل فيها مرس من القنب غليظ مفتول ، واستدار بالجوانب الأربعة ، بعد أن وضع فى أذيل الستور شبه حجن السراويلات ، وأدخل فيها ذلك المرس ، وخيط عليه بخيوط من القطن المفتولة الوثيقة ، ومجتمع الستور فى الأركان الأربعة مخيط إلى أزيد من قامة ، ثم منها إلى أعلاها تتصل بعرى من حديد تدخل بعضها فى بعض » .

« واستدار أيضا بأعلاها ، على جوانب السطح ، تكفيف ثان ، وقعت فيه أعالي الستور في حلقات حديد على تلك الصفة المذكورة ، فجاءت الكسوة المباركة مخططة الأعلى والأسفل ، وثيقة الأزرار ، لا تخلع إلا من عام إلى عام عند تجديدها . فسبحان من خلد لها الشرف إلى يوم القيامة لا إله سواه »^(٣٩)

وفي المرة الأخيرة وصف (ابن جبير) كسوة الكعبة المشرفة ، فقال : « وفي يوم السبت ، يوم النحر المذكور ، سيقّت كسوة الكعبة المقدسة ، من محلة الأمير العراقي إلى مكة ، على أربعة جمال . تقدمها القاضي الجديد بكسوة الخليفة السوداوية ، والرايات على رأسه ، والطبول تهر وراءه » .

« فوضعت الكسوة في السطح المكرم أعلى الكعبة . فلما كان يوم الثلاثاء ، الثالث عشر من الشهر المبارك المذكور ، اشتغل الشيبليون بإسبالها خضراء يانعة تقيد الأبصار حسنا ، في أعلاها رسم أحمر واسع ، مكتوب فيه في الصفح الموجه إلى المقام الكريم - حيث الباب المكرم - وهو وجهها المبارك ، بعد البسملة : « إن أول بيت وضع للناس ، الآية ، وفي سائر الصفحات اسم الخليفة والدعاء له ، وتحف بالرسم المذكور طرتان حمراوان بدوائر صفار بيض ، فيها رسم بخط رقيق يتضمن آيات من القرآن ، وذكر الخليفة أيضا » .

« فكملت كسوتها ، وشمرت أذيالها الكريمة ، صونا لها من أيدي الأعاجم وشدة اجتذابها ، وقوة تهافتها عليها وانكبابها ، فلاح للناظرين منها أجمل منظر ، كأنها عروس جلست في السندس الأخضر . أمتع الله بالنظر إليها كل مشتاق إلى لقائها ، حريص على المثل بفنائها ، بمنه »^(٤٠)

وعند أفول نجم الدولة العباسية كانت ستائر كسوة الكعبة المشرفة وهي تصارع تقلبات الأجواء من حولها بمثابة قراءة في عالم الغيب لتاريخ دولة تلفظ النفس الأخير من عمرها .

قال (ابن آياس) عن تلك الفترة التي انحصرت ما بين عامي ٦٤٨ و ٦٥٥ هجرية . إبان سلطنة الملك المعز (عز الدين أيبك التركماني) على مصر يؤيد ذلك الاعتقاد في عالم قراءة التواريخ الغيبية للدول ، ما نصه :

« ومن الحوادث في أيام الملك المعز (عز الدين أيبك) ، أن في أوائل دولته ، جاءت الأخبار من مكة ، أن في يوم الثلاثاء ثامن عشر ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين وستمائة ، قام بمكة أرياح عاصفة عظيمة ، فمزقت أستار الكعبة الشريفة ، فما سكن الريح إلا والكعبة عريانة ، وزال عنها الكسوة السوداء ، ومكنت واحد وعشرين يوما ليس عليها كسوة ، وكان هذا فألا لزوال دولة بني العباس ، فما عن قريب حتى جاء هولاكو : وأخرب بغداد ، وقتل الخليفة المستعصم بالله ، وزالت دولة بني العباس من بغداد »^(٤١)

ومع انتهاء دولة بني العباس انتهى تقريبا دورها الحضاري في كساء الكعبة

المشرفة ، وبدأت دول أخرى تنافسها هذا الشرف العظيم ، من المشرق ومن المغرب ، وخاصة مصر التي ظهرت قوتها تبرز إلى الوجود وتتفصل عن التبعية للدولة العباسية ، ويصبح لها الكيان المستقل المنفرد .

ولقد كان لعصر الدولة العباسية تأثيره الكبير والبعيد في تحديد وتطوير شكل كسوة الكعبة المشرفة ، سواء من ناحية النسيج أو من ناحية اللون والذي تغير كثيرا فيما قبل مجيء دولة بني العباس .

وهذا الدور الذي لعبه العباسيون في تطوير صناعة النسيج أنتج أنواعا متعددة من المنسوجات التي تم نسجها في دور الطراز الخاصة ، وكذلك دور الطراز العامة في مدينة السلام ، وغيرها من مراكز النسيج الخاصة بدولة بني العباس ، وكذلك كان لدور الطراز في بغداد أهمية كبرى في ذلك ..

وبأخر كسوة عباسية للخليفة الناصر تحددت الألوان لكساء بيت الله الحرام في اللون الأسود ، واستمر ذلك من بعد ، إلى أن انقرضت الدولة العباسية سنة ٦٥٦ هجرية ، وظهرت قوى جديدة ودول أخرى ورثت دورها ، فقامت به على النحو الذي سنراه .

كسوة الكعبة المشرفة في عهد الدولة الفاطمية: (٤٢)

على الرغم من أن أمر كساء الكعبة المشرفة لم يرق به الإمام (علي بن أبي طالب) ، نظرا للقلقل العديدة التي عرضت لفترة خلافته ولم تمكنه من أداء ذلك ، إلا أن الدولة الفاطمية المتشعبة للإمام (علي بن أبي طالب) وآله حظيت في فترات عدة بالاهتمام بكساء بيت الله الحرام .

فقد حكى (المؤيد) صاحب جماء في تاريخه أن الفاطميين في عهد خليفتهم الثاني (العزيز بالله بن المعز لدين الله) ، في إمارة (أبي الحسن جعفر) من السلمايين على مكة في سنة ٣٨١ هجرية قد كسوا الكعبة المشرفة بكسوة بيضاء اللون (٤٣)

وقال (المسبحي) في حوادث سنة ٣٨٤ هجرية : وفي ذي القعدة ورد (يحيى بن اليمان) من تنيس ودمياط والفرما بهديته ، وهي أسفاط وتخوت وصناديق مال ، وخيل وبغال وحمير ، وثلاث مظال وكسوتان للكعبة . (٤٤)

وقال (ابن اياس) ضمن حوادث سنة ٣٨٧ هجرية في عهد (الحاكم بأمر الله) الفاطمي : « إن جماعة من العربان وثبوا على كسوة الكعبة وانهبوها جميعا ، فكسيت الكعبة في تلك السنة الشنفاص الأبيض ، وهذا من الغرائب ، فإن الكعبة ما كسيت شنفاص قط إلا في زمن الحاكم . (٤٥)

ولم يذكر لنا (ابن اياس) عن هؤلاء العربان شيئا عن كونهم من المصريين أو من غير المصريين ، وإن كان قد أثبت لنا في التاريخ أثرا حميدا قام به الخليفة الفاطمي .

ولم تكن هذه الكسوة هي الكسوة الوحيدة التي أرسلها هذا الخليفة الفاطمي لكساء بيت الله الحرام ، فقد ذكر (الحافظ أبو الطيب الفاسي) في كتابه « شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام » أن (الحاكم بأمر الله) الفاطمي بعث بكسوة للكعبة المشرفة في سنة سبع وتسعين وثلاثمائة^(٤٦)

وفي سنة ٤٢٣ هجرية بعث الخليفة الفاطمي (الظاهر لأعزاز دين الله) بكسوة للكعبة المشرفة^(٤٧) .

وخلال الفترة التي بين سنتي ٤٣٧ و ٤٤٤ هجرية زار الرحالة الفارسي (ناصر خسرو) في رحلاته كل من سوريا وفلسطين والحجاز ، وعان بنفسه الكسوة التي كانت على الكعبة المشرفة ، ووصفها قائلا : « كانت الكعبة مضاعة بأربع شبابيك موضوعة في الزوايا الأربع ، ومغشاه بزجاج شفاف ، ليمنع المطر من أن يتخلل الكعبة . أما الكسوة فكانت بيضاء عليها شريطان بعرض ذراع ، وارتفاع الكسوة بين الشريطين نحو عشرة أذرع ، وفوق وتحت هذان الشريطين توجد أجزاء بنفس السمك والمقاس ، وبهذا الوضع بدت الكعبة كأنها مقسمة إلى ثلاثة أقسام كل قسم عشرة أذرع تقريبا وفق تقديرى الشخصى ، وعلى وجوه الكسوة الأربع رأيت محاريب تم نسجها بالحرير الملون ، وعليها زركشة بالخيوط الذهبية بالقصب . وعلى كل واجهة توجد محاريب مزركشة ، ويبدو أن المحراب الأوسط هو الأكبر ، أما الاثنان الآخران فمقاسهما أقل من الأوسط ، وكان عدد المحاريب المرسومة على الأجناب الأربعة كلها يبلغ اثنى عشر محرابا . »^(٤٨)

وفي عهد الدولة الفاطمية وصلت إلى الكعبة المشرفة كساوى لها من جهات أخرى غير بغداد والقاهرة ، مثل صنعاء وبلاد العجم أو مراکش .
ففي عام ٤٥٥ ذكر لنا (ابن تغرى بردى) عن كسوة للكعبة المشرفة من اليمن ، فقال : « دخل الصليحي إلى مكة ، واستعمل الجميل مع أهلها ، وأظهر العدل والاحسان ، وطابت قلوب الناس له ، وكسا البيت الحرام بثياب بيض »^(٤٩)

ولم تكن هذه الكسوة اليمنية لتمثل غير اليمن ، بعد أن أزال (الصليحي) قوة وسلطان قبضة الدولة العباسية على اليمن ، وانتمى إلى الحاكم الفاطمي في مصر الخليفة (المستنصر بالله معد) ، وخطب باسمه في المساجد اليمنية ودعا للخليفة الفاطمي في هذه المساجد .

وذكر (ابن الصابى) ضمن حوادث عام ٤٦٦ هجرية أنه : « ورد إلى مكة إنسان أعجمي يعرف بسلاح من جهة جلال الدولة ملكشاه ، ودخل وهو على بغله بمركب ذهب ، وعلى رأسه عمامة سوداء ، وبين يديه الطبول والبوقات ، ومعه للبيت كسوة ديباج أصفر ، وعليها اسم محمود بن سبكتكين ، وهى من استعماله ، وكانت مودعة بنيسابور من عهد محمود بن سبكتكين عند إنسان يعرف بابى القاسم الدهقان ، فأخذهما الوزير نظام الملك منه وأنفذها مع المذكور . »^(٥٠)

وكسا الكعبة المشرفة في نفس العام (أبو النصر الاسترابادى) كسوة بيضاء من عمل الهند ، وكساها الحبريات وغيرها الشيخ (أبو القاسم رامشت) صاحب الرباط بالمغرب وذلك في سنة ٥٣٢ هجرية ، وكانت كسوته بثمانية عشر ألف دينار مصرية على ما قال (ابن الأثير) ، وقيل : بأربعة آلاف دينار .^(٥١)

وهناك بعض المصادر الأخرى قد ذكرت أن (أبا القاسم رامشت هذا من تجار الفرس الأثرياء ، وقد قام بكساء الكعبة المشرفة في هذه السنة عندما انقطع إرسال كسوة الكعبة المشرفة بسبب خلافات نشبت بين الملوك السلجوقية ، فأرسل للكعبة الحبريات وكل ما وجد إليه السبيل ، فبلغ ثمن الكسوة ثمانية عشر ألف دينار مصرية »^(٥٢)

وقد ذكر المؤرخون أن الكعبة المشرفة قد عريت من كسوتها سنة ٦٤٢ هجرية لتقطع كسوتها من ريح شديدة ، فأراد الملك (المنصور) وهو صاحب اليمن أن يكسوها ، فقال له شيخ الحرم : لا يكون هذا إلا من جهة الديوان العزيز - يعنى الخليفة العباسى - ولم يكن عند شيخ الحرم شيء ، فلأجل ذلك اقترض ثلاثمائة مثقالا ، واشترى بها ثيابا بيضاء وصبغها بالسواد ، وركب عليها الطراز القديم الذى كان في كسوة الكعبة المشرفة ، وكساها بذلك .^(٥٣)

وقد أعاد ابنه الملك المظفر (يوسف بن المنصور) طلب أبيه في أن يكسو الكعبة المشرفة في سنة ٦٥٩ هجرية ، وكانت مصر قد كسرت شوكة التتار في هجمتها الشرسة التى محت سلطان الدولة في بغداد . فذهب الملك اليمنى إلى الحجاز ، « فلما قارب مكة خرج عنها الشريفان (إدريس بن قتادة) و (أبونمى بن أبى سعد) خوفا منه ، ثم دخل مكة في عساكره وجنوده ملبيا ، خاشعا ، متضرعا ، عارى الرأس والجنب ، حتى قضى حق الطواف ، ثم تقدمت العساكر والجيوش فحصت في الحجون ، ولم يزل بمكة إلى أن قضى ما يجب عليه من الوقوف بعرفة ، فوقف عند الصخرات ، وطلعت أعلامه وأعلام صاحب مصر مضمومة ، فقال له الأمير (عز الدين بن الامام) : هلا أطلعت أعلامك قبل أعلام المصريين ؟ فقال : أترانى أخفى أعلام من كسر ملك التتار وعساكره بالأمس وأقدم أعلامى لأجل حضورى وغيبته ؟ لا أفعل هذا أبدا ، وكسا الكعبة الشريفة ، ولم يكسها ملك قبله بعد الخلفاء العباسيين ببغداد ، واستمر يكسوها سنين مع ملوك مصر ، وإنما يجعل كسوته على الكعبة بعد سفر الحاج المصرى من مكة مراعاة لصاحب مصر ، وانفرد بكسوتها في بعض السنين . »^(٥٤)

ثم جاء عصر انفراد مصر بكسوة الكعبة المشرفة وهو العصر المملوكى .

□ □ □

كسوة الكعبة في عصر سلاطين المماليك : (٥٥)

امتدت فترة الحكم المملوكي نحو ثلاثة قرون إلا ربعا ، وهي فترة - بلا شك - طويلة تقارب فترة حكم الفاطميين لمصر وتزيد عليها بخمس سنين ، لكنها كثيرة وحافلة عنها فيما يخص حوادث التاريخ التي تطوف حول كساء بيت الله الحرام . مع الانقاس الأولي لهذا العصر نذكر أن ملك اليمن (المظفر يوسف ابن المنصور) في سنة ٦٥٩ هجرية حج إلى الكعبة المشرفة بحرا ، وكساها من داخلها ، ونثر عليها الذهب والفضة ، وعمل لها بابا وقفلا ، ثم ودع الكعبة المشرفة والدموع ملء عينيه إلى بلاده . (٥٦)

كانت هذه الكسوة هي الأولى والأخيرة التي يرسلها أحد من غير مصر في عصر سلاطين المماليك .

كانت الرعوس كلها تتطلع إلى المظفر بكساء بيت الله الحرام ، من اليمن والعراق ، بل ومن بلاد فارس والدولة العثمانية الناشئة في القوة والتكوين ، لكن هذا التطلع يعد شيئا والواقع شيء آخر .

فلم تكن مصر لترضى أن ينال أحد هذا الشرف سواها ، حتى وإن شرعت في وجهها أسنة رماح أو قتلت عضلات ..

في عام ٧٥١ هجرية أراد الملك اليمني (المجاهد) أن ينزع كسوة الكعبة المصرية ويكسوها كسوة من عنده باسمه ، فلما علم بذلك أمير مكة أخبر المصريين ، فقبضوا عليه ، وفي ذلك قال مؤذن الكعبة شعرا : (٥٧)

يا راقد الليل مسرورا بأوله .. إن الحوادث قد يطرقن أسحارا
فإن أمنت بلبيل طلب أوله .. قرب آخر ليل أجج النارا

وتاججت النار بالفعل فوق جبل عرفات في حرب ضروس بين المصريين وأهل اليمن ، ولم تخمد إلا وملك اليمن مصفد في الحديد المصري ، وأتى به إلى القاهرة مكبلا ..

وحينما عاد أمير الحج المصري إلى القاهرة ذهب لاقبلة السلطان (الناصر حسن بن قلاوون) بالقلعة ليطلعه على نتائج الأمور .

يقول (ابن أيلس) شارحا ما تم في هذه الجلائة : « .. فلما طلع إلى القلعة ، عرض على السلطان الملك المجاهد ، صاحب اليمن ، فلما مثل بين يدي السلطان أمر بتزج قيوده ، وإطلاقه ، ورسم له بالعود إلى بلاده ، ثم إن السلطان أرسل معه الأمير قشتمر المنصوري ، أحد الأمراء العشرات ، ليوصله إلى مكة ، فلما خرج من مصر ، ووصل إلى ينبع ، وثب هناك ، ومن معه من جماعته على الأمير قشتمر ، الذي خرج صحبته ، وأراد قتله ، فلما جرى ذلك ، قبض أمير ينبع على الملك المجاهد ، ووضعته في الحديد ، وسلمه إلى الأمير قشتمر ، فرجع به إلى القاهرة .

فلما علم السلطان بذلك تغير خاطره على الملك المجاهد ، وأرسله وهو مقيد الى ثغر الاسكندرية ، واحتاط على موجوده ، (٥٨)

وعلى الرغم من واد المصريين لرغبات ملك اليمن في كساء بيت الله الحرام إلا أن تلك الرغبة ظلت حبيسة في صدور حكام اليمن ، يتمنون تلك اللحظة التي تواتيهم لتحقيق رغبتهم وأمنيتهم الغالية .

ولما جاءت هذه اللحظة كان قد مرّ نحو نصف قرن انتظرها اليمنيون بفارغ الصبر ، ففي عام ٩٨٠ هجرية : « كان أمير الحاج المصري بهادر وصحبته أمير مجلس والأمير قره دمرداش الأحمدى ، ولما وصل الحاج الى مكة بلغهم قدوم محمل اليمن وكسوة الكعبة ، جهّز ذلك صاحب اليمن اسماعيل بن الأفضل عباس بن المجاهد ، فمنع الأمير قره دمرداش الأحمدى المحمل من الدخول وحجاج اليمن ، (٥٩)

وعادت الكسوة اليمنية الى جبال اليمن ، وماتت تطلعات اليمنيين في كساء بيت الله الحرام الى الأبد .

وفي الحقيقة لم تكن آمال اليمنيين تشرئب وحدها في المنطقة العربية . أو الإسلامية ، بل كانت هناك رعوس تحلم بمثل هذا الشرف الرفيع كما قلنا من قبل .

ففي عام ٧١٨ هجرية نست بغداد انها لم تعد عاصمة الخلافة الإسلامية ، ولم تع الخريطة السياسية الجديدة للمنطقة العربية بعد اندحارها أمام القتر وبزوغ نجم عصر جديد سطع في مصر على أيدي المماليك . في هذا العام قدم من العراق محمل الى مكة وكسوة للكعبة عراقية ، فلم يُمكنوا من الكسوة (٦٠)

ولم يذكر لنا رواة التاريخ من هؤلاء الذين لم يمكنوا العراقيين من وضع كسوة الكعبة على جدرانها ، هل هم المصريون أو أهل الحجاز ؟ وان كان سياق حوادث التاريخ تمكننا من ان نستنتج أن السيوف المصرية كان لها الدور الكبير في توجيه دفعة الأمور وحسم الخلاف !..

نفس الحدث تكرر مرة أخرى في عصر سلاطين المماليك ، ولكن بعد نحو ستين عاما من الحادثة الأولى !..

يقول (ابن اياس) في حوادث شهر ذى الحجة ٨٧٧ هجرية : « وفيه وصل مبشر الحاج - وهو الرسول الذي يسبق مجيء قافلة الحج للاطمئنان على أحوال الحجاج - واخبر بأن لما وصل المحمل العراقى ، ودخل الى المدينة الشريفة ، كان أمير ركبهم شخصا يقال له رستم ، وصحبته قاض يقال له أحمد بن دحية ، فضيقوا على قضاة المدينة ، وأمروهم بأن يخطبوا في المدينة باسم الملك العادل حسن الطويل ، خادم الحرمين الشريفين ، فلما خرجوا من المدينة وقصدوا التوجه الى مكة ، فكاتبوا أهل المدينة أمير مكة بما وقع ، فخرج اليهم الشريف

محمد بن بركات ولاقاهم من بطن مرو ، قبل ان يدخلوا الى مكة وقبض على رستم امير ركب المحمل العراقي ، وقبض على القاضي الذى صحبتته ، وعلى جماعة من اعيانهم ، واودعهم فى الحديد ليبحث بهم الى السلطان ، ثم اطلق بقية من كان فى ركبهم من الحجاج ولم يتعرض لهم ،^(٦١)

وحينما عاد ركب الحجاج الى القاهرة ، احضروا صحبتهم رستم امير الحاج العراقي ، والقاضى الذى بعث بهما حسن الطويل ، وصحبتهما كسوة للكعبة ، وامر اهل المدينة ومكة ان يخطبا فيهما باسم الملك العادل حسن الطويل ، فرسم السلطان بسجن رستم والقاضى فى البرج الذى بالقلعة ، فسجنا ،^(٦٢) ومن بلاد فارس برزت مطامع او مطامح ملكها فى كساء بيت الله الحرام ، والظفر بذلك الشرف الرفيع من بين انياب سلاطين العصر المملوكى ، ولم تكن تلك المطامع او المطامح قد حدثت ذات مرة وانتهى الامر ، وانما كانت الامور يصحبها الالحاح فى الطلب والاستئذان دون فرض سياسة القوة الجبرية وانفثال العضلات .

فى شهر المحرم سنة ٨٣٨ هجرية كانت قافلة الحج المصرى قد عادت الى القاهرة تحمل اخبارا لا تسر عدوا او حبيبا ، فقد غمر مكة السيل العرم ، وحدث بسقف الكعبة المشرفة ثقبا .

فى اثناء ذلك وفد الى القاهرة رسول (شاه روخ) ملك العجم بهدية او هدايا للسلطان المملوكى الاشرف برسباى ، منها - كما يروى ابن اياس - نحو من ثمانين شقة اطلس مقصّب ، والى قطعة من الفيروز والبلخش ، فقوم ذلك بثلاثة آلاف دينار ، وحضر صحبة القاصد - اى الرسول - كسوة للكعبة ، وسال الاذن فى قبول ذلك ،^(٦٣)

استطاع ملك العجم (شاه روخ) وهو ابن (تيمورلنك) ان ينفذ بادب وبثقل الهدايا التى تذهب بالعقول ، ويبدو ان العقول قد ذهب بعضها ، ولم يستطع السلطان (الاشرف برسباى) ان يتخذ قرارا حاسما فى مسألة قبول او رفض ان يقوم احد من غير المماليك فى مصر بكساء بيت الله الحرام ، وحينما حار عقل السلطان وضرب اخماسا فى اسداس طلب المشورة ، على الرغم من تلك الهدايا التى تزغلل العيون ...

قال (ابن اياس) فى حوادث شهر صفر سنة ٨٣٨ هجرية : « وفيه رسم السلطان بعقد مجلس فى القصر ، فاجتمع به القضاة الاربعة ، وسبب ذلك ان قاصد شاه روخ احضر كسوة للكعبة المشرفة ، وذكر انه نذر بذلك ، فاستفتى السلطان فى هذا الامر القضاة الاربعة ، فلما طال بينهم الجدل ، اجاب قاضى القضاة بدر الدين العينى بان نذره لا ينعقد ، واجاب العلامة ابن حجر بان ذلك لا يجوز إلا لمن يكون ناظرا على الحرمين الشريفين ، وطال الكلام فى ذلك ، وانفض المجلس على جواب البدر العينى ،^(٦٤)

كان رسل او قصائد ملك العجم (شاه روخ بن تيمورلنك) في انتظار رد السلطان ، وكانوا موقنين ان السلطان المملوكي لن يصمد طويلا امام النقائص التي بعث بها ملكهم اليه على سبيل الرشوة المقنعة ، لكنهم صدمتهم ردود السلطان .

يقول (ابن اياس) : « وفيه عاك قصائد شاه روخ اليه ، وكتب له الجواب عن كسوة الكعبة المشرفة التي ارسلها ، بان العادة القديمة جرت بان الكعبة المشرفة لا تكسى إلا ممن يكون ناظرا على الحرمين الشريفين ، ورة عليه الجواب بذلك ، والهدية التي ارسلها ، وكسوة الكعبة المشرفة ، ورجع من غير طائل » (٦٥) اضمر ملك العجم (شاه روخ بن تيمورلنك) الغيظ من جراء رد السلطان المملوكي المصري (الاشرف برسباي) ، فتعاديا ، غير انه انتظر الى ما بعد وفاة السلطان المملوكي المصري (الاشرف برسباي) ، وخلع ابنه السلطان (العزيز يوسف) ، وتولية السلطان (الظاهر جقمق) امور السلطنة ، فاعاد الطلب من جديد ، بعد عشر سنوات كاملة دون ياس .

يقول (ابن اياس) في حوادث شهر شعبان سنة ٨٤٨ : « وفيه قدم قاصد من عند شاه روخ بن تيمورلنك ، وصحبته هدية للسلطان ، ومع الهدية كسوة للكعبة ، فامر السلطان بان يخفيها عن الامراء وارباب الدولة ، فلما طلع بها مع الهدية ، دخل بها الى البحرة ، فتسامع بها الامراء ، فشق عليهم ذلك ، ثم ان طائفة من الممالك الجليان نزلوا الى الدار التي نزل بها القاصد ، فتهبوا كل ما فيها ، هم والسواد الأعظم من العوام ، ولم يشعر السلطان بشيء من ذلك ، وكان الذي نهب للقاصد نحو من عشرة آلاف دينار » (٦٦) وصحيح ان ما حدث لرسول ملك العجم (شاه روخ) كان فتنة كبيرة ارتجت لها الأرض ، على حد تعبير ابن اياس ، لكن رد فعل العامة من الناس كان عنيفا تجاه ذلك الرسول ، الذي جاء ينتزع من المصريين شرفا جليلا وعظيما ، وهو اختصاصهم بكساء الكعبة المشرفة .

قال (ابن اياس) في رد فعل العامة من الناس : « وقد حصل للقاصد من العوام غاية البهدة ، من السب والرجم وغير ذلك ، وتشوش السلطان غاية التشوش ، ولولا انه كان دينا لرسم بقتل سائر العوام ، ولكنه دينه رده عن ذلك ، وكان العوام ظالمة في هذه الواقعة ، فإنهم فعلوا شيئا من غير مرسوم السلطان ، وقد اخطأوا في ذلك كل الخطأ » (٦٧)

إن نظرة (ابن اياس) الى رد فعل العامة كانتا هي نظرة حاكم الى تصرف احد من رعاياه خرج في تصرفه عن حدود قانونه ، ولكن العامة رأت في ذلك جريمة فعلها ملك العجم فجاء تصرفهم ورد فعلهم امام رسوله فحدث له « غاية البهدة » كما عبر عن ذلك مؤرخنا ابن اياس .

غير ان السلطان (الظاهر جقمق) لم يكن امام هذه المشكلة يستطيع ان يتخذ

قراره الحاسم ، فظل يفكر طويلا ، بالرغم من ربود الأفعال الغاضبة من حوله ،
ومن الشارع ، ثم تفتق ذهنه عن حل وسط ، وهو أن يرسل كسوة الكعبة المشرفة
التي بعث بها ملك العجم الى مكة ، ولكن ليكسوها باطنها وليس ظاهرها ، أي أن
تظل الكسوة في داخل الكعبة المشرفة لا يراها أحد ، كما أنه أرسلها الى مكة في
السري ، لا من رأى ولا من سمع !..

هذه الكسوة الأعجمية ظلت في داخل الكعبة المشرفة مدة ثمان سنوات الى أن
أصبح السلطان (الظاهر جقمق) أمرا بترعها ، واستبدلها بأخرى مصرية تحمل
اسمه هو . طبعا لم يتم ذلك سوى بعد وفاة ملك العجم (شاه روخ) بنحو
سنتين كاملتين .. (٦٨)

كل هذه التصرفات شكلت في العصر المملوكي نوعا من التلبس أو التحريم أمام
كل من يفكر في القيام بمحاولة كساء بيت الله الحرام من غير المصريين ، سواء
بقرض القوة والاجبار أو بالتفاهم وأعمال العقل والمسايسة ، ويحكي الأمر حكرا
على مصر وحدها لا يشاركها فيه أي شريك . عند مفتتح هذا العصر ، وبمجرد
توطيد أركان الدولة المملوكية وفراغها من حروبها مع القتل القادمين الى المنطقة
العربية كالجراد قامت مصر بدورها بكون تقصير خيل كسوة الكعبة المشرفة .
وكان السلطان (الظاهر بيبرس) أول من أرسل كسوة للكعبة المشرفة من
سلاطين العصر المملوكي .

قال البعض أن ذلك تم في عام ٦٦١ هجرية (٦٩)
وقال آخرون أن ذلك تم عند قيام السلطان (الظاهر بيبرس) باداء فريضة
الحج عام ٦٦٧ هجرية (٧٠)

جهّز السلطان (الظاهر بيبرس) قافلة الحج بمحملها الشهير ، غير أن الأمور
لم تمش وفق ما كان ينشد السلطان .

يقول (الجبرتي) واصفا ذلك : « فلما وصلوا الى مكة منعوهم من دخول
المحمل ومن كسوة الكعبة ، فقال أمير المحمل لأمير مكة : أما تخاف من الملك الظاهر
بيبرس ؟ فقال : دعه ياتيني على الخيل البلق . فلما رجع أمير المحمل وأخبر
السلطان بما قاله أمير مكة ، جمع له في السنة الثانية أربعة عشر ألف فرس أبلق ،
وجهّزهم صحبة أمير الحاج ، وخرج بعدهم على ثلاث نوق عشريات ، فوافاهم
عند دخولهم مكة وقد منعهم التتار وأمير مكة ، فحاربوهم فنصرهم الله عليهم ،
وقتل ملك التتار وأمير مكة ، طعنه السلطان بالرمح وقال له : أنا الملك الظاهر ،
جئتك على الخيل البلق . فوقع الى الأرض ، وركب السلطان فرسه ، ودخل الى
مكة ، وكسا البيت ، وعاد الى مصر (٧١)

ومن المؤكد أن هذه الكسوة للكعبة المشرفة تلتها كسوات أخرى بعث بها
سلطان مصر المملوكي الظاهر بيبرس ، ولكن كم بلغ عددها ؟ الله أعلم .
قد ذكر صاحب كتاب « درر الفوائد المنظمة » أنه في سنة ٦٦٨ هجرية : « حج

بالناس أمير يقال له التنيسي ، وجاء بكسوة الكعبة من جهة الظاهر صاحب مصر ،^(٧٢)

ونذكر (ابن اياس) في حوادث سنة ٦٧٥ هجرية ان هناك كانت توجد كسوة للكعبة المشرفة طافت في موكب كبير بالقاهرة ، وذلك قبل ان ترسل في قافلة الحج الى مكة المكرمة^(٧٣)

ويبدو من وراء سطور التاريخ ان بعض الرعوس حاولت ان تتطلع الى ان تنال شرف كساء بيت الله الحرام ، بعيدا عن مصر ، في عصر السلطان (المنصور قلاوون) مما جعل سلطان مصر يرسل الى أمير مكة معاتبا ، لكي يوصد الباب أمام تلك الرعوس .

ففي أخبار عام ٦٨١ هجرية نجد ان أمير مكة حلف للسلطان (المنصور قلاوون) بيمين الولاء والطاعة له ولولده ، والتزامه بتعليق الكسوة المصرية دون غيرها في كل موسم^(٧٤)

وفي عصر ابنه السلطان (الناصر محمد بن قلاوون) كانت هناك كسوة مصرية للكعبة المشرفة ، استطاع الرحالة العربي (ابن بطوطة) ان يرصدها في رحلته عام ٧٢٦ هجرية مرتين .

قال في المرة الأولى : « .. وستور الكعبة الشريفة من الحرير الأسود مكتوب فيها بالأبيض . وهي تتلأأ عليها نورا واشراقا ، وتكسو جميعها من الأعلى الى الأرض »^(٧٥)

وفي المرة الأخيرة وصفها في اسهاب ، فقال : « .. وفي يوم النحر بعثت كسوة الكعبة الشريفة من الركب المصرى الى البيت الكريم فوضعت في سطحه . فلما كان اليوم الثالث بعد يوم النحر أخذ الشيبيون (بنى شيبية) في اسبالها على الكعبة الشريفة .

« وهي كسوة سوداء حالكة من الحرير مبطنة بالكتمان ، وفي أعلاها طراز مكتوب فيه بالبياض (جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد ، ذلك لتعلموا ان الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ، وأن الله بكل شئ عليم) »

ويستطرد (ابن بطوطة) في وصفها قائلا : « وفي سائر جهاتها طرز مكتوب بالبياض فيها آيات من القرآن ، وعليها نور لائح مشرق من سوادها . ولما كسيت شمعت اذبالها صونا من أيدي الناس »^(٧٦)

وفي عام ٧٣٨ هجرية وصف (ابن فضل الله العمري) كسوة مصرية للكعبة المشرفة أيام سلطنة (الناصر محمد بن قلاوون) فقال : « لما حججت في سنة ٧٣٨ صعدت أنا وامراء الركب المصرى لتلبيس الكعبة الشريفة ، حتى كنا على سطحها ، فرأيت مبلطا بالمرمر والرخام الأبيض ، ومن جوانبه جدر قصار فيها

خلق لم رابط الستور ، تجر فيها الكسوة بحبال ، ثم تربط في تلك الحلق » .
وقال : « وأنا أحمد الله إذ بيدي توليت خلع الكسوة العتيقة عنها وتلبيسها
الكسوة الجديدة » (٧٧)

ولم يقف المؤرخون كثيرا عند كسوة الكعبة المشرفة التي بعث بها السلطان
المملوكي (الناصر أحمد بن قلاوون) عام ٧٤٢ هجرية ، ربما بسبب اشتداد
الفتن بين أمراء المماليك بعضهم وبعض . (٧٨) لكن هؤلاء المؤرخين وقفوا كثيرا
عندما أوقف السلطان (الصالح اسماعيل بن قلاوون) ضيعة كاملة بالشرقية
(هي الآن تتبع محافظة القليوبية) ، وهذه الضيعة تسمى (بيسوس) ،
وجعلها مرصدة على كسوة الكعبة المشرفة . (٧٩) ويقال ان هذا الوقف كان عبارة
عن ثلاث قرى ، وليس قرية واحدة ، وهذه القرى هي : بيسوس وسندبيس
وابو الغيط ، وهي من قرى القليوبية ، اشتراها من بيت المال ووقفها على كسوتي
الكعبة المشرفة والحجرة النبوية المطهرة بالمدينة المنورة سنة ٧٥٠ هجرية . (٨٠)
وبرغم هذا الوقف المرصود على كسوة الكعبة المشرفة فنجد من خلال التاريخ
انه في عام ٧٧٥ هجرية قد كسيت الكعبة المشرفة كسوة قصيرة فوق كسوة أخرى
بيضاء وسوداء ، فلما كان السادس عشر من ذي الحجة ، وبعد نحو أسبوع
واحد أخرجت الكسوة وكسيت بها الكعبة من داخلها . (٨١)
وفي دولة السلطان (فرج بن برقوق) حدثت عدة تغيرات في زخارف كسوة
الكعبة المشرفة .

قال العلامة (ابن فهد) يصف تلك التغيرات في سنة ٨١٠ هجرية : « وأحدث
في كسوة الجانب الشرقي من الكعبة الشريفة جامات منقوشة بالحرير الأبيض
مكتوب فيها (لا إله إلا الله ، محمد رسول الله) بالبياض ، ومنع ذلك بعد أربع
سنين متوالية » . (٨٢)

ثم حدث تغير آخر وفي زخارف كسوة الكعبة المشرفة ، « ففي سنة
٨١٤ هجرية جعل وجهة الباب من الكسوة كمخا أزرق بجامات مكتوب فيها ..
(والله العالم ما كان وما يكون) .

وفي سنة ٨١٩ جعلت الجامات المصنوعة من الحرير الأبيض في جميع الكسوة
من تحت وإلى أسفل بعد أن انقطعت ٤ سنين واستمرت الجامات في كسوة الكعبة
خمس سنين متوالية بعد هذه ، ثم أزيلت وغُوض عنها جامات سود في سنة
٨٢٥ هجرية . (٨٣) وحينما طاف موكب الحمل بهذه الكسوة قبل إرسالها إلى مكة
لفتت إليها الأنظار في القاهرة في زمن السلطان (الأشرف سيف الدين برسباي) .
يقول (المقرئ) في وصف ذلك المشهد الذي احتشدت من أجله كثير من
العوام والخواص : « وفي يوم الاثنين سادس عشرة (رجب سنة ٨٢٥ هجرية)
أدير محمل الحاج بالقاهرة ومصر على ما جرت به العادة . وقد كثر الاعتناء
بأمره ، وعُملت كسوة الكعبة في غاية الحسن ، بحيث لم يعمل مثلها فيما

أدركناه ، وولى عملها شرف الدين أبو الطيب محمد بن قاج الدين عبدالوهاب ابن نصر الله ناظر الكسوة ، لحسن مباشرته وعفته .^(٨٤) وفي سلطنة السلطان (الأشرف اينال) سنة ٨٦٤ هجرية كانت كسوة الجانب الشرقى بيضاء بجامات صفر .^(٨٥) أما في سنة ٨٦٥ هجرية فكانت كسوة الجانب الشرقى والشامى بيضاء بجامات سود ، وفي الجامات السود بعض ذهب .^(٨٦) وفي عام ٨٩٦ هجرية أرسل السلطان (قايتباى المحمودى) الى مكة كسوة للكعبة المشرفة وكسوة لمقام سيدنا ابراهيم ، وأقام لذلك احتفالا عظيما في شهر رجب ، وكان حاضرا رسول سلطان بنى عثمان ذلك الموكب .^(٨٧)

وقبل مجيء الجيوش العثمانية غازية كانت هناك كسوات للكعبة المشرفة كل عام ترسل من القاهرة الى مكة في عادة منتظمة ، وموكب كبير تسلط عليه كل الانتظار من كل اتجاه .^(٨٨)

وقبل هجوم العثمانيين على مصر أطلقت اشاعة في القاهرة في شوال سنة ٩٢٢ هجرية أن العثمانيين سوف يرسلون الى مكة وصحبته كسوة للكعبة المشرفة ، غير انه لم يثبت صحة ذلك ، لذا سارع السلطان المملوكى (قانصوه الغورى) بإرسال الطواشى (مرهف) من البيبىحر وصحبته كسوة الكعبة المشرفة ومشتلزماتها الى مكة ، عن طريق ميناء الطور .^(٨٩)

كل ذلك في اللحظات الأخيرة قبلما يهب الاعصار المدمر القادم من الشمال ، فيسقط الورقة الأخيرة في شجرة الحكم المملوكى بعدما جفت ويبيست وانطرحت أرضا ، وداستها أقدام الغزاة العثمانيين الجدد مع النزع الأخير لانفاس عام ٩٢٢ هجرية الموافق ١٥١٧ ميلادية .

كسوة الكعبة المشرفة في العصر العثمانى :

حينما ودعت مصر عصر سلاطين المماليك ، واستقبلت عصرا جديدا تحت لواء العثمانيين استمرت مسيرتها في كساء بيت الله الحرام ، ولم يمنعها مانع من أداء واجب وشرف وهبها الله به وخصها بهذا التشريف الجليل من ذى الجلال والاکرام سبحانه وتعالى .

وفي العام القالى للغزو العثمانى ، وفي يوم الاثنين ثانى عشر شهر رمضان عرض ملك الأمراء (خاير بك) كسوة الكعبة المشرفة ، والبرقع ، ومقام الخليل ابراهيم عليه السلام ، وكسوة لضريح النبى - صلى الله عليه وسلم - وعدة ستور ، وكسوة لضريح الخليل ابراهيم بالقدس ، ومحملا ، وقد تفاهاوا في زركشة برقع كسوة الكعبة المشرفة وملحقاتها على خلاف المعتاد ، وأقيم احتفال كبير بالقلعة من أجل هذه المناسبة .^(٩٠)

ولم يكن هذا الاحتفال هو الأول والأخير بالكسوة ، وإنما جرى احتفال ثلث بَعْدَ اسبوع واحد من الاحتفال الأول .

قال (ابن اياس) يصف وقائع هذا الاحتفال : « وفي يوم الاثنين تسع عشر شهر رمضان ، فيه خرج (الشهابي احمد بن الجيعان) نائب كاتب السر ، و (مصلح الدين) خاندنار ابن عثمان ، وخرج صحبتهما كسوة الكعبة الشريفة وهي محزومة محملة على الجمال ، واشيع انهما يتوجهان من البحر الملح الى جدة ومن جدة الى مكة ، فكلن لهما في القاهرة موكب حفل ، وكان ذلك اليوم مشهودا ، وخرج صحبتهما نحو من ألفي عثماني ، وقدامهم طبلان وزمران ورماة نبط ، وركب قدامهما الأمير (قايتباي) الدوادار الكبير وأعيان جماعة من المبشرين . فلما شقوا من القاهرة رجّت لهم ، فخرجوا من باب النصر وتوجهوا الى الوطليق بالريدانية ، (١١)

كان الصرف على كسوة الكعبة المشرفة يتم من حاصل الأوقاف التي لوقفها السلطان المملوكي (الصالح اسماعيل) غير ان هذه الأوقاف لم تعد تكفي تكاليف عمل كسوة الكعبة المشرفة فخصص السلطان العثماني (سليمان بن سليم الاول) وقفية سنة ٩٤٧ هجرية لوقف فيها عشرة قرى من قرى مصر لينفق من ريعها على كسوة الكعبة المشرفة وكسوة الحرم النبوي الشريف . وقد قال في هذه الوقفية يعد ديوان طويلة تبين انه ظل متفكرا في كلام الله سبحانه وتعالى - ونظرا ثواب الحج ، « وعلمنا بان تعظيم الكعبة المستورة بالاستار الشريفة العالية وتشریفها في الحج يوجب الجنة ، ولذا فقد اوقف جميع القرى الثلاث المسماة (بيسوس) وابو الغيث وحوض بقمص الواقعة بالولاية المصرية التي كان الحاصل منها في السنة الواحدة مبلغ ٨٩٠٠٠ درهم ، (١٢)

ومنها جميع القرى السبع الجديدة الواقعة في الولاية الشرقية بالديار المصرية :

اولها : قرية (سلكة) كان تحصل منها في تلك السنة مبلغ ٣٠٤٩٤ درهما .
وثانيها : قرية (سيرو بجنجة) تحصل منها ٧١٨٢٠ درهما .
وثالثها : قرية (قريش الحجر) تحصل منها ٥١٣٠٤ درهما .
ورابعها : قرية (منايل وكوم رحان) تحصل منها ٣٧٨٤٠ درهما .
 وخامسها : قرية (بجام) تحصل منها ١٤٩٣٤ درهما .
وسادسها : قرية (منية النصارى) تحصل منها ٦٠٨٥٨ درهما .
وسابعها : قرية (بطاليا) تحصل منها ١٠٤٨٤ درهما .
وبذا تكون جميع المبالغ المرصودة في تلك السنة ٣٦٥١٥٢ درهما فضيا ، وقد حدد الواقف اوجه الصرف على النحو الآتي :

١ - ان يصرف مبلغ ٢٧٦٢١٦ درهما للاتفاق على استار ظاهر الكعبة المشرفة في كل سنة .

٢ - أن يصرف مبلغ ٧٥٠٣٧٠ درهما للاتفاق على كسوة الكعبة المشرفة الداخلية ، والحجرة النبوية المطهرة بالمدينة المنورة ، والمقصورة المعمورة بالحرم الشريف ، والمنبر ومحرابه ، والأستار الأربعة للحرم الشريف ، ومحراب (ابن العباس) وقبره ، وقبر (علي بن أبي طالب) و (الحسين) و (عثمان ابن عفان) و (فاطمة بنت أسد) رضوان الله عليهم أجمعين .

٣ - الفائض ، وهو مبلغ ٥٨٢٦٧٠ درهما يحفظ بفرض سد العجز إذا ما حدث نقص في مياه القيل أتبعه قلة وعجز في المحاصيل والغلال .

وفي سنة ١٠٠١ هجرية الموافق ١٥٩٢ ميلادية حضر السيد (مسعود بن الشريف حسن) نيابة عن والده بالمسجد الحرام ، وحضر أكبر العلماء والأعيان لقياس طول الكعبة من داخلها لورود أمر السلطان (محمد بن مراد) بذلك ليعمل لها كسوة ، فذرعت بالذراع الحديد المصري ، فعملت وأرسلت .^(٩٣)

وفي عام ١٠٣٩ هجرية الموافق ١٦٢٩ ميلادية وقع بالحرم الملكي سيل عظيم حتى وصل ارتفاعه عن الأرض الى منسوب يعلو باب الكعبة المشرفة بذراعين ، فأحدث ذلك بعض التدايعات استوجب أن يرسل شريف مكة الى جدة لاحتضار خشب يجعل على الكعبة لسترها الى أن يشرعوا في العمارة ، فلما وصل الخشب ستروا جميع ما سقط منها ، وجعلوا بابا من الخشب في الجهة الشرقية ، ثم جعل الشريف للكعبة المشرفة ثوبا أخضر والبسه اياها في السابع من شهر شوال .^(٩٤)

وفي عام ١٠٤٠ هجرية الموافق ١٦٣٠ ميلادية أجريت عدة اصلاحات في بيت الله الحرام ، وفي يوم الخميس الثالث والعشرين من شهر شعبان ركب الميزاب . وفي يوم الجمعة غرة رمضان المبارك البست الكعبة ثوبها ، وذلك كله من قبل مولانا أمير المؤمنين السلطان (مراد خان بن السلطان أحمد بن السلطان محمد خان) .^(٩٥)

واختصت مصر بكسوة الكعبة المشرفة الخارجية ، في حين انفردت الدولة العثمانية بكسوة الكعبة المشرفة الداخلية ، وبقيت مصر تصنع أقمشة الكسوتين الداخلية والخارجية كلها الى عام ١١١٨ هجرية الموافق ١٧٠٦ ميلادية حيث أمر السلطان (أحمد بن محمد) بحياكة كسوة الكعبة الداخلية التي ترسل من قبل السلطان عام توليه الملك في استامبول ، فصنعت فيها وأرسلت في العام التالي الى مكة المكرمة عن طريق مصر ، فاختصت استامبول من ذلك الوقت بحياكة الكسوة الداخلية .^(٩٦)

واستمر سلاطين الدولة العثمانية في ارسالها الى عهد السلطان (عبدالعزيز ابن السلطان محمود الثاني) ، حيث انقطعت الدولة العثمانية عن ارسال الكسوة الداخلية ، وبقيت الكسوة التي كان أرسلها السلطان المشار اليه عام ١٢٢٧ هجرية .^(٩٧)

وعندما حدثت الهجمة البربرية بقيادة (نابليون بونابرت) على مصر عام ١٢١٣ هجرية الموافق ١٧٩٨ ميلادية كان تعرية الكعبة المشرفة من ثيابها بمثابة اشعار للمسلمين بما أصاب بلادهم من مهانة ومذلة على يد الفرنسيين وفقا للعادات والتقاليد القديمة عند استفحال الأخطار المحدقة. (٩٨)

وقد ذكر (الجبرتي) ان « رجلا مغربيا يقال له الشيخ (الكيلاني) كان مجاورا بمكة والمدينة والطائف ، فلما وردت أخبار الفرنسيين الى الحجاز ، وانهم ملكوا الديار المصرية انزعج أهل الحجاز لذلك وضجوا بالحرم ، وجردوا الكعبة ، وان هذا الشيخ صار يعظ الناس ويدعوهم الى الجهاد ويحرضهم على نصرة الحق والدين ، وقرأ بالحرم كتابا مؤلفا في معنى ذلك فاتغظ جملة من الناس وبذلوا أموالهم وأنفسهم ، واجتمع نحو الستمائة من المجاهدين وركبوا البحر الى القصير مع ما انضم اليهم من أهل ينبع وخلافه » . (٩٩)

ولم يكن الاهتمام بكسوة الكعبة المشرفة من قبل الفرنسيين عند احتلالهم مصر إلا ستار تندثر فيه الأطماع الاستعمارية الفرنسية وقت مجيء حملتها في القرن الثامن عشر .

ففي أحداث شهر رمضان عام ١٢١٥ هجرية الموافق ١٨٠٠ ميلادية قال (الجبرتي) انه قد « وقع السؤال والفحص عن كسوة الكعبة التي صنعت على يد (مصطفى أغا) كتحدا الباشا ، وكملت بمباشرة حضرة صاحبنا العمدة الفاضل الأديب الناظم الناصر السيد (اسماعيل) الشهير (بالخشاب) ، ووضعت في مكانها المعتاد بالمسجد الحسيني وأهمل أمرها الى حد تاريخه ، وربما تلف بعضها من رطوبة المكان وخرير السقف من المطر ، فقال الوكيل : ان سارى عسكر قصده التوجه بصحبكم يوم الخميس قبل الظهر بنصف ساعة الى المسجد الحسيني ، ويكشف عنها ، فإن وجد بها خلاا أصلحه ، ثم يعيدها كما كانت ، وبعد ذلك يشرع في ارسالها الى مكانها بمكة ، وتكسى بها الكعبة على اسم المشيخة الفرنسية ، فقالوا له شأنكم وما تريدون ، وقرىء في المجلس فرمان بمضمون ذلك » . (١٠٠)

ولم يستطع أحد من المشايخ أن يفتح فمه بكلمة أمام مDAHنة (المشيخة الفرنسية) التي أرادت أن تكسو كعبة الاسلام المقدسة باسمها ، بعد أن جاست خلال وداست دماء وعظام الآلاف من المسلمين !!!

قال (الجبرتي) : « ولما كان يوم الخميس رابع عشرة (رمضان) الموعود بذكره توجه الوكيل ومشايخ الديوان الى المشهد الحسيني لانتظار حضور سارى عسكر الفرنسيين بسبب الكشف على الكسوة ، وازدحم الناس زيادة على عادتهم في الازدحام في رمضان ، فلما حضر ، ونزل عن فرسه عند الباب ، وأراد العبور للمسجد رأى ذلك الازدحام ، فهاب الدخول ، وخاف من العبور ، وسأل ممن معه عن سبب هذا الازدحام ، فقالوا له هذه عادة الناس في نهار رمضان يزدهمون دائما

على هذه الصورة في المسجد ، ولو حصل منكم تنبيه كنا أخرجناهم قبل حضوركم ، فركب فرسه ثانياً وكرّ راجعاً ، وقال : نأتى في يوم آخر ، وانصرف من حيث جاء وانصرفوا » . (١٠١)

وبعد ذلك قال (الجبرتي) متتبعا : « ولما كان يوم الخميس رابع عشرة ، تقيد للحضور بسبب الكشف على الكسوة (استوفو) خازن دار الجمهور و (فوريه) وكيل الديوان ، فحضر صحبتهم المشايخ والقاضى والأغا والوالى والمحتسب بعدما أخلى المسجد من الناس ، وأحضروا خدامين الكسوة الأقدمين ، وحلوا رباطاتها ، وكشفوا عليها ، فوجدوا بها بعض خلل ، فأمرُوا بإصلاحه ، ورسموا لذلك ثلاثة آلاف فضة ، وكذلك رسموا للخدمة الذين يخدمونها ألف نصف فضة ، ولخدمة الضريح ألف نصف ، ثم ركبوا الى منازلهم ، ثم طويت ، ووضعت في مكانها بعد اصلاحها » . (١٠٢) ويبدو أن الدولة العثمانية قد اشتهت الأحداث في مصر ، من خلال ما كان يجرى لكسوة الكعبة المشرفة من تلف ، أو ربما أرادت أن تقول أمام تراجيديا الأحداث الدموية أنها موجودة بقوة سلطانها الدينى على المسلمين ، فكان ما تم من أحداث في عام ١٢١٦ هجرية .

قال (الجبرتي) في أحداث جمادى الآخرة من هذا العام : « وورد الخبر بوصول كسوة للكعبة من حضرة السلطان ، فلما كان يوم الأربعاء حضر واحد أفندى وآخرون وصحبته الكسوة ، فنادوا بمرورها في صباحها يوم الخميس ، فلما أصبح يوم الخميس المذكور ركب الأعيان والمشايخ والأشايخ وعثمان كتحدا المنوه بذكره لامارة الحج ، وجمع من الجاويشية والعساكر والقاضى ، ونقيب الأشراف وأعيان الفقهاء ، وذهبوا الى بولاق ، وأحضروها ، وهم أمامها ، وفردوا قطع الحزام المصنوع من المخيش ثلاث قطع والخمسة مطوية ، وكذلك البرقع ومقام الخليل ، كل ذلك مصنوع بالمخيش العال ، والكتابة غليظة مجوفة متقنة وباقى الكسوة في سحاحير على الجبال ، وعليها أغطية جوخ أخضر ، ففرح الناس بذلك ، وكان يوما مشهودا ، وأخبر من حضر انه عندما وصل الخبر بفتح مصر ، أمر حضرة السلطان بعملها فصنعت في ثلاثين يوما ، وعند فراغها أمرهم بالسير بها ليلا ، وكان الريح مخالفا ، فعندما حلوا المراسى اعتدل الريح بمشيئة الله تعالى ، وحضروا الى الاسكندرية في أحد عشر يوما » . (١٠٣)

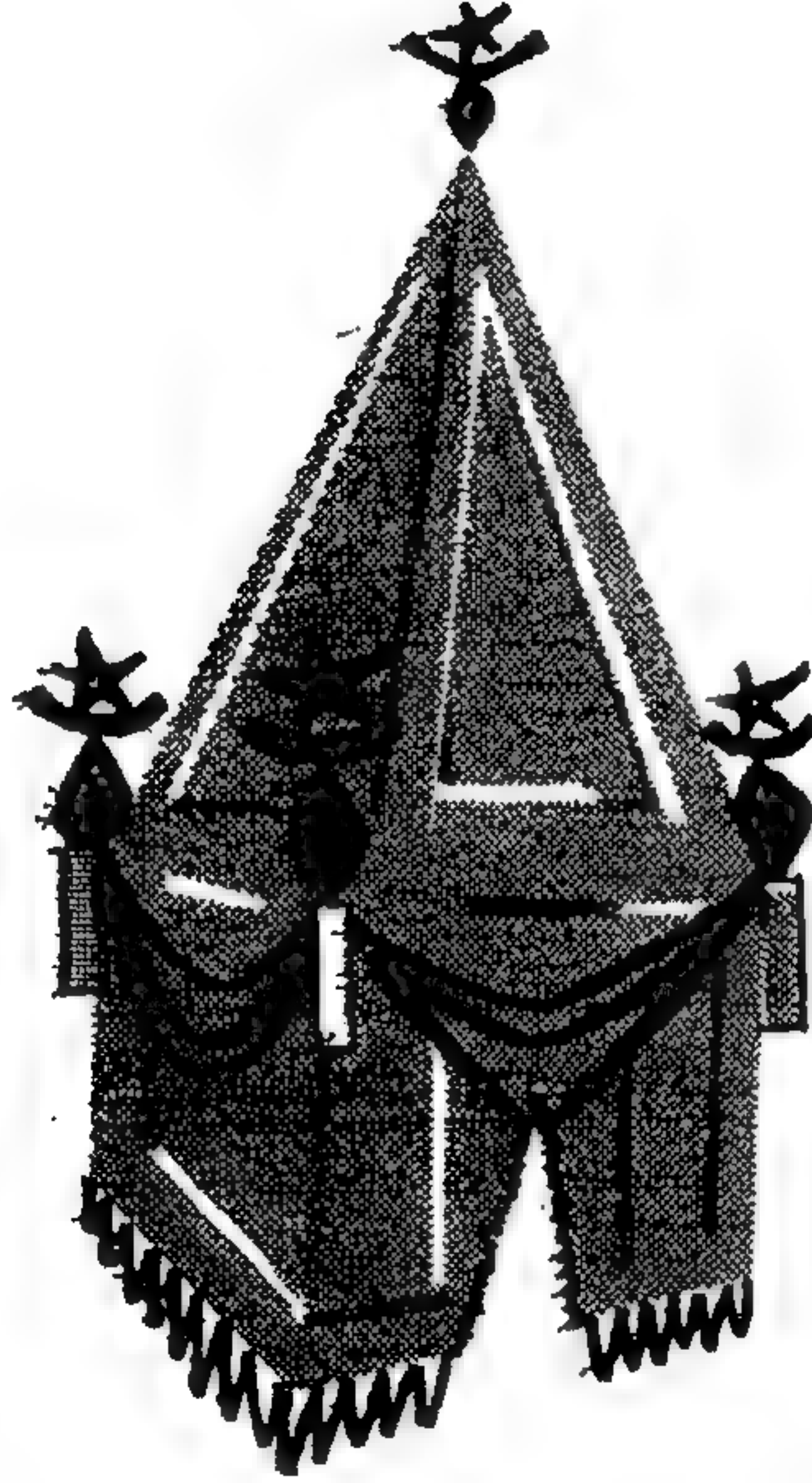
ومع هذا الوجود العثماني الذى كان يلفظ النفس الأخير كان علماء الحملة الفرنسية ينقبون في تراث مصر الحضارى ، ويقفون على كل كبيرة وصغيرة فيه ، وكان من جملة ذلك مخصصات كسوة الكعبة المشرفة وتكاليفها وقتها .

قال (الكونت استيف) الخازن العام للحملة الفرنسية بقيادة (نابليون بوناپرت) : « الكسوة هى الاسم الذى يطلق على الطنافس والبسط التى تسلم لأمير الحج كي يكسو بها الكعبة ، ويزين قبر فاطمة بالمدينة ، وكانت هذه تصنع في قلعة القاهرة ، وقد رصد السلطان سليمان مبلغ ٥٢٦,٠٠٠ مدينى لنفقات

صنعها ، وارتفع السلطان مصطفى بهذا الرصيد ، لكي يجعله كافيا ، الى
٧٩٠, ٨٠٧ مديني ، (١٠٤)

ولما دخل الامام (سعود) الكبير ابن (عبدالعزيز آل سعود) الى الحجاز
انقطعت مصر عن ارسال الكسوة الخارجية ، فكساها الامام المشار اليه عام
١٢٢١ هجرية من القز الأحمر ، ثم كساها في الأعوام التالية بالديباج ، والقيلان
الأسود ، وجعل إزارها وكسوة بابها من الحرير الأحمر المطرز بالذهب
والفضة . (١٠٥)

□ □ □



كسوة الكعبة المشرفة في عصر محمد علي ومآتلاه :

عندما تولى (محمد علي) حكم مصر في شهر ربيع الأول عام ١٢٢٠ هجرية الموافق مايو ١٨٠٥ ميلادية كان الفرمان العثماني الذي أعطاه حق الحكم بعد تعيينه من قبل نواب الشعب ينص على أن : « على خزينة مصر القيام بالتنفقات السنوية التي تقوم بها عادة للحرمين الشريفين » (١٠٦)

وخرجت أول كسوة للكعبة المشرفة من عصر في شهر ذي القعدة عام ١٢٢٠ هجرية الموافق يناير ١٨٠٦ ميلادية في عصر الوالي الجديد لمصر (محمد علي) ، قل (الجبرتي) : « وفي يوم الاثنين رابع عشرة أخرجوا المحمل والكسوة ، وعين للسفر بهما من القلزم (مصطفى جاويش العنتيلي) ، ومعه صراف الصرة دفعوا له ربحها وتمنئها ، وهذا لم يتفق نظيره » (١٠٧)

وبعد أربعة أيام فقط من هذا التعيين ، وعند آخر ضوء النهار يوم الجمعة ثامن عصر شهر ذي القعدة تحركت الجمال الحاملة لكسوة الكعبة المشرفة تخب الأرض خبا من عند تلحية قلايتباي بصحراء الماليك ، ومنها إلى جهة السويس ، لينسفرا من القلزم . (١٠٨)

وفي العام التالي ، وفي شهر ذي القعدة أيضا ذكر (الجبرتي) أنه : « في يوم السبت ثامن ، أداروا كسوة الكعبة والمحمل ، وركب معها المتسفر عليها من القلزم ، وهو شخص يقال له (محمود أغا الجزيري) وركب أمامه الأغا والوالي والمحاسب وطلقة الدلاة وكثير من العسكر » (١٠٩)

وحيثما حدث الاصطدام بين الوهابيين في الأراضي الحجازية وقافلة الحج المصرية في عام ١٢٢٢ هجرية الموافق ١٨٠٧ ميلادية توقفت مصر عن إرسال كسوة الكعبة المشرفة مدة ست سنوات حتى تستقر الأمور على أرض الحجاز ، ولم ترسل الكعبة المشرفة كسوة من مصر سوى في شهر شوال ١٢٢٨ هجرية الموافق ١٨١٣ ميلادية على الرغم من عملها كسوة في عام ١٢٢٣ هجرية ولكنها لم ترسلها ، وظلت محفوظة طيلة هذه المدة إلى أن قرر (محمد علي) السفر إلى الأراضي الحجازية بنفسه . قل (الجبرتي) في أحداث شهر شوال عام ١٢٢٨ : « في سابعه يوم السبت ، أداروا كسوة الكعبة وكانت مصنوعة من نحو خمس سنوات ، ومودوعة في مكان بالمشهد الحسيني ، فأخرجوها في مستهل الشهر ، وقد توسخت لطول المدة ، فحطوها ، ومسحوها ، وكان عليها اسم السلطان (مصطفى) فغيروه وكتبوا اسم السلطان (محمود) فلجتمع الناس للفرجة عليها ، وكان المباشر لها الرئيس (حسن المحروقي) فركب في موكبها . » (١١٠)

وفي شهر شوال عام ١٢٢٩ هجرية الموافق ١٨١٤ ميلادية اقيمت رقة شعبية لكسوة الكعبة المشرفة من باب القلعة حتى مسجد الإمام الحسين . قل عنها (الجبرتي) :

« وفي يوم السبت خادى عشرة ، نزلوا بكسوة الكعبة بالطبول والزمور الى
المشهد الحسيني ، واجتمع الناس على عادتهم للفرجة . » (١١١)
ونفس الاحتفال حدث في العام التالي ، عام ١٢٣٣ هجرية الموافق ١٨١٨
ميلادية .

ولقد ادرك موكب كسوة الكعبة المشرفة في عصر (محمد علي) الرحالة
والمستشرق الانجليزى (ادوارد وليم لين) فقال عنه بعد مشاهدته : « عقب
العيد السابق ذكره بيومين او ثلاثة تقريبا (عيد الفطر) تحمل الكسوة المرسلة
سنويا مع قافلة الحجاج الكبرى ، في موكب يسير من القلعة حيث تصنع على نفقة
السلطان الى مسجد الحسين ، لتخاط اقسامها معا ، وتبطن استعدادا للحج
القريب . والكسوة ديباج اسود غليظ تغطيه نقوش لايات قرآنية الخ ، تنسج
بالحرير من اللون نفسه ويعبر كل جانب شريط عريض ، مزين بنقوش مشابهة
تشغل بالذهب . وإنى اكتب الآن عن موكب الكسوة ، بعد عودتي من مشاهدته ،
في السادس من شهر شوال عام ١٢٤٩ هجرية الموافق ١٥ فبراير ١٨٣٤
ميلادية ، » (١١٢) .

وهذا الموكب للكسوة سجله بملحوظات دقيقة فقال : « اخذت مجلسي بعد
شروق الشمس في دكان كتبي الباشا ، في شارع المدينة الرئيسى مقابل مدخل سوق
خان الخليلى تقريبا ، وكان هذا الدكان وكل دكاكين الشارع تقريبا مزدحمة
باشخاص جذبتهم الرغبة في مشاهدة الموكب شيوفا وشبانا . والمصريون من كل
طبقة ومركز وسن يجدون لذة كبيرة في رؤية المشاهدات العامة . ولكن الشوارع
لم تكن مزدحمة الازدحام العادى التى تكون كل منها جانبا من الكسوة قد مرت
محمولة بالمكان الذى اتخذت فيه مركزى ، فوضع كل قسم من الحبال التى تربط
بها على حمار . ولم تكن الحمير مزينة إطلاقا ، ولا مسرجة بإتقان . » (١١٣)
« بعد هذا قدم حوالى عشرين رجلا في ثياب رثة يحملون على اكتافهم أطارا
طويلا من الخشب امتد عليه الحزام - أى الشريط السابق ذكره - وهو قطع اربع
تكون حينما تخاط معا إلى الكسوة شريطا متصلا يحيط بالكعبة جميعا إلى ثلثى
ارتفاعها تقريبا ، وهو من نمسج الكسوة نفسها . وتشغل النقوش الذهبية خطوط
جميلة متسعة . ويحيط بكل ربع حاشية ذهبية ، ويزين كل طرف ، حيث تتصل
الحواشى العليا والسفلى ، بالحرير الأخضر والأحمر ، يخاط به ويتركش بالذهب .
وكثيرا ما يتقدم أحد حاملى الحزام إلى المشاهدين المحترمين ليسألهم عطية ، » (١١٤)
وقال (إدوارد وليم لين) يصف برقع الكعبة : « وكان يحمل بعد ذلك ، مثبتا
على ظهر جمل جميل ، البرقع ، وهو الستار الذى يعلق أمام باب الكعبة ، ممددا
على اطار مرتفع من الخشب . وهو من الديباج الأسود ، المزركش على طريقة
الحزام ، بنقوش من القرآن في حروف من الذهب ، ولكنه أكثر فخامة وزينة ، وكان

مبطنا بالحرير الأخضر . وكان وجه البرقع ممتدا على يمين الاطار ، والحرير
الأخضر على اليسار .^(١١٥)

وهذا البرقع قال عنه (ادوارد وليم لين) أن كثيرا ما كان يسميه العامة باسم
(برقع ستنا فاطمة) ، إذ يقال ان (فاطمة شجر الدر) زوجة السلطان (الصالح
أيوب) كانت أول من أرسل برقعا من هذا النوع لتغطية باب الكعبة .^(١١٦)
ووصف (إدوارد وليم لين) كسوة مقام سيدنا ابراهيم وكيس مفتاح الكعبة
المشرفة في عصر (محمد علي) ، فقال : « وتلا المحمل غطاء أسود آخر ، مستطيل
الشكل مزركش بالذهب على الطريقة نفسها ، وهو يوضع على مقام (ابراهيم) ، في
مسجد مكة . وركب خلف هذا ضابط تركي يحمل علبة صغيرة من الحرير الأخضر
مزركشة بالذهب ، بها مفتاح الكعبة ، فوق منديل مطرز ،^(١١٧)

ووفقا لوثيقة الاشهاد الشرعى لكسوة الكعبة المشرفة في أوائل عصر الخديو
(اسماعيل) والتي حررت في شوال عام ١٢٨٠ هجرية الموافق ابريل
١٨٦٤ ميلادية نستطيع أن نقف على بعض التفاصيل لهذه الكسوة على النحو
الآتى :

تضمنت كسوة الكعبة المشرفة وقتها ما يلي^(١١٨) :

- ١ - ثمانية أحزمة مزركشة بالمخيش الأصفر والأبيض المطلق بالبندقى الأحمر
على الحرير الأسود والأطلس الأخضر مبطنة بالبفت الأبيض والنوار القطن .
- ٢ - ستارة بيت الله الحرام المزركشة بالمخيش الأصفر والأبيض المطلق بالبندقى
الأحمر على الحرير الأسود والأطلس الأخضر المبطنة بالبفت الأبيض والأطلس
الأخضر ، بها خمسة شراريب حرير أسود وقصب وستة أزرة مفضضة مطلية
بالبندقى الأحمر ، وإثنى عشرة شمسية مزركشة بالمخيش الأصفر المطلق بالبندقى
الأحمر على الأطلس الأخضر بها اثني عشر شرابة صغيرة حريرا أخضر وقصب .
- ٣ - كسوة مقام سيدنا (ابراهيم) خليل الرحمن المزركشة بالمخيش الأصفر
والأبيض المطلق بالبندقى الأحمر على الحرير الأسود والأطلس الأخضر بها أربعة
شراريب حرير أسود وقصب ، وعشر شمسيات مزركشة بالمخيش الأصفر على
الأطلس الأخضر وعشرة شراريب صغيرة حرير أخضر وقصب وخمسة أزرة فضة
مطلية بالبندقى الأحمر المبطنة بالبفت الأبيض ، وبها سجد حرير مزهر .
- ٤ - كيس مفتاح باب بيت الله الحرام المزركش بالمخيش الأصفر والأبيض المطلق
بالبندقى الأحمر على الأطلس الأخضر المبطن بالأطلس الأخضر ، به شرابتين
قصب وقيطان قصب وحرير أخضر ..
- ٥ - ستارة باب سطح بيت الله الحرام المعروف بباب التوبة داخل بيت الله
الحرام المزركشة بالمخيش الأصفر والأبيض المطلق بالبندقى الأحمر على الحرير
الأسود المبطنة بالبفت الأبيض والأطلس الأخضر .

٦ - ستارة مقام سيدنا (ابراهيم) خليل الرحمن المشار إليه المزركش بالمخيش الأصفر والأبيض المطلي بالبندقى الأحمر على الحرير الأسود المبطنه بالبطانة بالبنفسج الأبيض والأطلس الأخضر بها خمسة أزرة فضة مطلية بالبندقى الأحمر على الأطلس الأخضر ، بها عشرة شراريب صغيرة حرير أخضر وقصب .

وبالإضافة إلى هذه القطع المذكورة كانت هناك الملحقات الأخرى الآتية :

- ١ - ثلاثة مجادل قطن لتعليق الكسوة المشرفة على بيت الله الحرام .
 - ٢ - واحد وأربعون عصفورة قطن مجدولة احتياج الحق .
 - ٣ - غلايتان نحاس مغطتان ملائتان ماء ورد لغسيل داخل بيت الله الحرام .
- وقد قام بتحرير هذا الاشهاد الشرعى لكسوة الكعبة المشرفة قاضى مصر المحروسة السيد (مصطفى نظمى الدين) مع (حسين فخرى بك) مأمور تشغيل كسوة الكعبة المشرفة .

وبعد أن تولى الخديو (عباس حلمى الثانى) أمرالحكم فى مصر عام ١٣٠٩ هجرية الموافق ١٨٩٢ ميلادية سار على سنة أسلافه فى إرسال كسوة الكعبة المشرفة . وبعد عام واحد ، كتب (عبدالله النديم) فى جريدة (الأستاذ) تحت عنوان « الكسوة الشريفة » بتاريخ ٢٢ شوال سنة ١٣١٠ هجرية الموافقة ٩ مايو ١٨٩٣ ميلادية ما يلى (١١٩)

« احتفل ليلة السبت فى ديوان محافظة مصر احتفالا جليلا دعى إليه العلماء والأمراء وأرباب الطرق وكثير من الوجهاء والأعيان سرورا بإنجاز كسوة مقام سيدنا الخليل - عليه الصلاة والسلام - وقد بلغت مصارفها ١٧٠٠ جنيها ، وفى الصباح انتظم الموكب مركبا من فرق العساكر الخيالة والمشاة والمدفعية ، وكلن الوزراء الكرام يقدمهم صاحب الدولة (رياض باشا) نائبا عن الحضرة الخديوية قداجتمعوا فى سقاية المنشية ، يصحبهم لفيف من العلماء الاعلام فى مقدمتهم صاحب السماحة والفضيلة شيخنا الأستاذ الشيخ (الأنيلبى) ، وفى مقدمة رجال الطرق وأصحاب الأشاير صاحب السماحة والسيادة السيد (توفيق أفندى البكرى الصديقى) ، وسماحة قاضى أفندى مصر ، أى أن هؤلاء الاعلام وجدوا مع الفضل الكرام بالملابس الرسمية فى مقدمة من وجد معهم من العلماء والأشياخ ، ومن ساحة المنشية سار الموكب حتى دخل مسجد الامام (الحسين) رضى الله تعالى عنه ، وقد هرع الناس إلى الشوارع التى مر بها حتى لم يبق فى مصر أحد ممن يميلون لرؤية هذا الموكب المنيف إلا وقف له داعيا للحضرة الخديوية الفخيمة بطول العمر ودوام العز والاقبال متفرجا ، ولم تتوقف مصر عن إرسال كسوة الكعبة المشرفة فيما بعد سوى مرات قليلة ، كانت بسبب الحرب العالمية الأولى ومرة ثانية بسبب أزمة افتعلت بين مصر وحكومة المملكة العربية السعودية تقطعت خلالها الوشائج لفترة عشرة أعوام من عام ١٣٤٤ هجرية الموافق ١٩٢٦ ميلادية حتى ١٣٥٥ هجرية الموافق ١٩٣٦ ميلادية ، وأخرها أزمة

عام ١٣٨٠ هجرية الموافق ١٩٦١ ميلادية ، في عهد الرئيس المصري الراحل جمال عبد الناصر ، حيث توقف إرسالها تماما من مصر .

ورغم الخلافات السياسية كانت الأسواق المصرية تهفو إلى كساء بيت الله الحرام ، وكانت لا تتوان في بذل المساعي الحميدة لعودة أوامر الأخوة قوية كما كانت عين مصر والحجاز ، وكان يكفي للتدليل على ذلك ما سطرته « إدارة دار كسوة الكعبة الشريفة » عن مذكرة تسعى من خلالها إلى راب الصدع .

قلت بتاريخ ذي القعدة عام ١٣٤٢ هجرية الموافق يونية ١٩٢٤ ميلادية ، بعد مقدمة وجيزة عن تاريخ كسوة الكعبة المشرفة وبور مصر العتيق فيها . « وقد استمر إرسال الكسوة الشريفة إلى العام الماضي ، حيث أنها أرسلت مع ركب المحمل الشريف ، ونظرا لما حصل بين الدولة المصرية وحكومة الحجاز بشأن البعثة الطبية ، بحيث ترتب على ذلك عودة المحمل الشريف ، وبطبيعة الحال أعيدت الكسوة أسوة بباقي المرتبات التي كانت يرسلها المحمل ، ثم أوقف إرسالها حتى يفصل في أمر البعثة الطبية ، مع أن الكسوة الشريفة بعيدة كل البعد عن هذا الموضوع ، وليست لها علاقة بالمحمل ولا بالمرتبات التي تستلمها حكومة الحجاز ، وذلك للأسباب الآتية :

أولا : الكسوة الشريفة هبة ترسل من الوائف رحمه الله إلى البيت المشرف لا إلى ملك الحجاز ، أو إلى بلاد العرب وذلك منذ مئات من السنين ، يستلمها ورث بيت الشيباني المكلف بحجابة البيت العتيق قبل ظهور النبي عليه السلام بـ ١٥٠٠ سنة ، والذي لا يفتارعه فيها منازع ، ولا يشاركه فيها شريك ، لأنه استولى على مفاتيح هذا البيت الحرام في عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - بحكم إلهي - بحيث نزلت الآية الشريفة :

(أن الله يأمركم أن تؤثروا الأملاك إلى أهلها) وذلك لما أراد الإمام علي - كرم الله وجهه - أن يستولي على مفاتيح الكعبة المكرمة بعد غزو مكة ، وفعل أخذها من ورث بيت الشيباني ، فلما نزلت تلك الآية بادر النبي - صلى الله عليه وسلم - وأمر برد المفاتيح إلى هذه العائلة ، وصارت حتى يومنا هذا صاحبة التصرف في كل ما يتعلق بالبيت من الهدايا والنفور ، وغير ذلك ، وليس ملك الحجاز ولا لغيره من إشراف مكة حق التدخل في أي شيء يتعلق بهذا البيت .

ثانيا : تشغل الكسوة الشريفة وبعد إتمام تشغيلها تحرر بها حجة شرعية بتسليمها إلى مندوب خاص يستلمها من دار التشغيل ، ثم تصير في عهده حتى يجري تسليمها إلى الشيخ الشيباني دون سواه ، كمنطوق الحجة الشرعية ، وذلك بالاحتفال شرعي بمكة ، وبعد الاستلام يحضر الشيخ الشيباني إسهادا شرعيا باستلامه الكسوة وأدواتها كاملة يقدمه المندوب إلى إدارة الكسوة بعد عودته من البلاد العربية ، وليس ملك الحجاز ولا حكومته دخل في هذا التسليم .

ثالثا : إذا ظهر للشيخ الشيبى أى ملاحظات فى تشغيل الكسوة أو نقص فى اجزائها أو متعلقاتها يخاطب الدولة المصرية بشأنه مباشرة بدون وساطة الحكومة العربية كما هو واضح من الأوراق والمكاتبات الرسمية . وذلك لأنه إنما يطالب بحق هو من اختصاصه دون خلافه .

رابعا : ليس من المحتم أن ترسل الكسوة مع راكب المحمل الشريف ، وإنما احتراماً لها وتوقيراً على الشيخ الشيبى من استلامها بجدة ، وليتمكن مندوبها من الحج وزيارة بيت الله الحرام فضل إرسالها فى موسم الحج ومع ركب المحمل ، وقد سبق إرسالها بواسطة المندوب مباشرة بدون المحمل بعد الاحتفال بها كالمعتاد رسمياً بمصر عند تسفيرها وذلك فى غضون الحرب العظمى .

مما تقدم يتضح أن ما يصرف فى تشغيل الكسوة الشريفة هو ريع وقف ، وأن الذى يستلمها هو وريث بيت الشيخ الشيبى كما مر ذكره ولا دخل مطلقاً لأحد أفراد الحكومة العربية فى شأن كسوة البيت ، ولا ما يتخلف منها إلا إذا أراد الشيخ الشيبى أن يهدى ملك بلاده شيئاً منها على سبيل البركة أسوة بمن يهدى إليهم من ملوك الاسلام وكبرائه . ويتضح أيضاً أن الكسوة ليست من المرتبات المقررة لأشراف الحجاز ، لأنها خاصة بالكعبة الشريفة .

لذلك ونحن الآن فى عهد أول ملك دستورى هو صاحب الجلالة مولانا الملك (فؤاد الأول) الذى بنى دستور مملكته على قواعد الدين الحنيف ، وليس بين ممالك الاسلام مملكة أحق بالمحافظة على الدين وشرفه والبيت وكرامته من الدولة المصرية نلتبس من حضرات أعضاء البرلمان ، وحضرات أصحاب الدولة والمعالي رجال حكومة الشعب النظر فى إيجاد أقرب الطرق الموصلة لتنفيذ شروط الواقف ، والمبادرة بإرسال الكسوة الشريفة حتى يكتسبوا رضا الأمة المصرية والعالم الاسلامى . وإنا لا نرضى بأن يدون فى التاريخ أن كسوة بيت الله الحرام منعت عنه فى عهد جلالته مولانا الملك (فؤاد الأول) وحكومة حضرة صاحب الدولة الرئيس الجليل (سعد زغلول باشا) والله نسأل أن يحفظ حياة صاحب الجلالة مولانا الملك (فؤاد الأول) وحضرة صاحب السمو الملكى ولى عهده الأمير (فاروق) وحضرة صاحب الدولة الرئيس الجليل ورجال حكومته العظام . إنه سميع مجيب . (١٢٠)

وعلى الرغم من هذه النداءات والتوسلات التى تريد ألا يتعكر الماء بين الأشقاء ، فقد حدث ما حدث وتجمد إرسال كسوة الكعبة المشرفة عشرة أعوام ، فليس لكل ما الإنسان يريد يجلب له ، لأن مشيئة الله فوق كل رغبات البشر ، ولأن الله وحده هو الفعال لما يريد .

الهوامش والمراجع .

- (١) سيرة الملك (سيف بن ذي يزن) - ص ٨ ج ١ - مطبعة الجمهورية العربية بالصناديقية بالأزهر - بدون تاريخ .
- (٢) المرجع السابق - ص ١٠ ج ١ .
- (٣) الحافظ أبى الطيب الفاسى - ، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام - ، ص ١٢١ ج ١ - دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابى الحلبي بالقاهرة ١٩٥٦ . محمد صالح بن زين العابدين الشيبى - ، إعلام الأنتم بتاريخ بيت الله الحرام - ، ص ١٩٣ ، تحقيق إسماعيل أحمد إسماعيل حافظ - مطبوعات نادي مكة الثقافي والأدبي ١٩٨٤ .
- (٤) المرجعان السابقان الأول ص ١٢١ ج ١ ، والثاني ص ١٩٤ .
- (٥) المرجع ص ١٨٧ ج ١ .
- (٦) المرجع السابق ص ١٨٧ ج ١ ، والخصف جمع خصفة وهى الثوب الغليظ جدا ، كما وردت القصة عند (أبى العلاء المعرى) فى كتابه « رسالة الصاهل والشاحج » - ص ٦٦٧ ، تحقيق د. عائشة عبدالرحمن ، بنت الشاطي ، ، سلسلة ذخائر العرب رقم ٥١ - دار المعارف طبعة ١٩٨٤ .
- (٧) المعافر : فى الأصل اسم بلد سميت به الثياب المعافرية التى تصنع فيه ، والملاء : جمع ملاءة ، وهى ثوب لين رقيق نسيج واحد وقطعة واحدة وتسمى الريطة ، والوصائل : جمع وصلة ، وهى ثوب أحمر مخطط يمانى ، والعصب : برود يمانية مخططة أى الثوب مخططة واكسية يلتحف بها ، وهذه البرود يعصب غزلها ، أى يجمع ويشد ، ثم يصبغ بعضه وينسج مع غير المصبوغ فيأتى موشى ، والمسوح : جمع مسح ، وهو ثوب من الشعر غليظ ، ويقال له البلاس . راجع إبراهيم رفعت باشا - « مرآة الحرمين » - ص ٢٨١ ح ١ دار المعرفة بيروت بلبنان - بدون تاريخ .
- (٨) د. على حسنى الخربوطلى - ، الكعبة على مر العصور - ، ص ١١٠ - سلسلة اقرا رقم ٢٩١ - دار المعارف بمصر - الطبعة الثانية .
- (٩) الأول ص ١٨٨ ح ١ والثانى ص ٦٨ ح ١ ، والآخر من تحقيق محمد محبى الدين عبدالحميد - المكتبة الإسلامية ببيروت - بدون تاريخ .
- (١٠) اعتمدنا فى حساب هذين التاريخين على إثبات مدة حكم الملك الساسانى فى فارس وهو (قبل الأول) الذى ذكر اسمه فى الأبيات الشعرية ، وهذا الملك تولى الحكم فى الفترة التى حددناها وفقا للتاريخ الذى ذكره (جورجى زيدان) فى كتابه (العرب قبل الإسلام) - ص ٢٢٢ - دار الهلال ، فى حين كانت البعثة الحميدية عام ٦٠٩ ميلادية ، والأشعار المنسوبة للحادثة يمكن الرجوع إليها عند (إبراهيم رفعت باشا) فى كتاب « مرآة الحرمين » - ص ٢٨١ ح ١ .
- (١١) أبو الوليد الأزرقي - ، أخبار مكة - ، ص ٢٥١ ح ١ - دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع - بدون تاريخ .
- (١٢) المرجع السابق - ص ٢٥٠ ح ١ .
- (١٣) يوسف أحمد - ، المحمل والحج - ، ص ٢٣٤ ح ١ .
- (١٤) محمد صالح بن زين العابدين الشيبى - ، « إعلام الأنتم ... » - ص ١٩٦ .
- (١٥) المرجع السابق - ص ١٩٣ .
- (١٦) مجلة الفيصل - العدد ١٢٦ - أغسطس ١٩٨٧ - دار الفيصل الثقافية بالسعودية .

(١٧) السيد سابق - « فقه السنة » - ص ٧٦٦ ج ٢ - دار الكتاب العربي ببيروت لبنان - بدون تاريخ .

(١٨) محمد صالح بن زين العابدين الشيبى - « إعلام الأنعام ... » - ص ١٩٥
(١٩) محمد كبيب البتتوني - « الرخنة الحجازية » - ص ١٣٩ - مطبعة الجمالية بمصر - الطبعة الثانية (١٣٢٩ هـ - ١٩١٢ م) .

(٢٠) يوسف أحمد - « المحمل والحج » - ص ٢٣٥ ج ١ .
(٢١) إبراهيم رفعت باشا - « مرآة الحرمين » - ص ٢٨٢ ج ١ .
(٢٢) يوسف أحمد - « المحمل والحج » - ص ٢٣٦ ج ١ .
(٢٣) إبراهيم رفعت باشا - « مرآة الحرمين » - ص ٢٨٢ ج ١ .
(٢٤) يوسف أحمد - « المحمل والحج » - ص ٢٨٢ ج ١ .
(٢٥) الأزدى - « أخبار مكة » - ص ٢٥٥ ج ١ .
(٢٦) جورجى زيدان - « تاريخ التمدن الإسلامى » - ص ٣٥ ج ٢ - دار الهلال بالقاهرة - بدون تاريخ .

(٢٧) المقرئى - « خطط المقرئى » - ص ٢٣٨ ج ١ - كتاب التحرير من أغسطس ١٩٦٧ حتى يوليو ١٩٦٨ .

(٢٨) النويرى - « نهاية الأرب فى فنون الأدب » - ص ١١٢ ج ٢٢ تحقيق د . محمد جابر عبدالعال الحينى - الهيئة المصرية للعلماء للكتاب والمجلس الأعلى للثقافة ١٩٨٤ .
(٢٩) المقرئى - مرجع - سابق - ص ٢٣٨ ، وتنيس هي جزيرة قريبة من دمياط اشتهرت بصناعة الملابس المصرية ، وكانت تصنع بها كسوة الكعبة المشرفة ، وكذلك قريقتى تونة وشطا .

(٣٠) المرجع السابق - ص ٢٣٩ ج ١ .
(٣١) المرجع السابق - ص ٤٢٢ ج ١ .
(٣٢) المرجع السابق - ص ٢٣٨ ج ١ .
(٣٣) محمد صالح الشيبى - « إعلام الأنعام ... » - ص ١٩٩ .
(٣٤) المرجع السابق - ص ١٩٩ .
(٣٥) النويرى - « نهاية الأرب » - ص ١٩٧ ج ٢٢ .
(٣٦) المقرئى - « خطط المقرئى » - ص ٢٣٨ ج ١ .
(٣٧) يوسف أحمد - « المحمل والحج » - ص ٢٤٠ ج ١ .
(٣٨) ابن جبير - « رحلة ابن جبير » - ص ٧٣ - دار الكتاب اللبنانى - مكتبة المدرسة - بدون تاريخ .

(٣٩) المرجع السابق - ص ٧٨ .
(٤٠) المرجع السابق - ص ١٢٣ .
(٤١) ابن خلدون - « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » - ص ٢٤٠ ج ١ ق ٢ - الهيئة المصرية للعلماء للكتاب ١٩٨٢ .

(٤٢) بدائنا التاريخ لأول كسوة للكعبة للدولة الفاطمية كما هو ثابت تاريخيا فى عهد الخليفة الفاطمى الثانى (العزيز بالله) ، وهناك آراء متضاربة حول قيام الخليفة الفاطمى الأول (المعز لدين الله) بكساء الكعبة ، والسبب فى هذا التضارب آراء المفسرين والشراح لبعض حوادث التاريخ ، والتي تختص بكساء الكعبة وما يكتنف ذلك من خلط وتناويل .

فقد ذكر الدكتور (علي حسنى الخربوطلى) فى كتابه (الكعبة على مر العصور) فى صفحة ١١٢ أن : « الخليفة الفاطمى (المعز لدين الله) أمر بعد فتحه مصر سنة ٣٦٢ هجرية (٩٧٢ ميلادية) بعمل كسوة للكعبة لينافس خلفاء بغداد العباسيين .. »

وجاء فى كتاب « الفاطميون فى مصر » لمؤلفه (حسن ابراهيم حسن) تحت عنوان « الكسوة التى عملها المعز للكعبة » ما نصه : « ويتبين لنا مدى ثروة مصر فى ذلك الوقت من وصف الكسوة التى أمر المعز بعملها للكعبة ، كما يبين لنا هذا أيضا كيف نافست مصر بغداد ، بل كيف تفوقت عليها وعلى غيرها من المراكز الاسلامية . ففى يوم عرفة أمر المعز بنصب الكسوة التى اتخذها للكعبة على الإيوان الذى جعله لعقد الجلسات الرسمية . »

وجاء فى نفس الكتاب تفسير ل تلك « الشمسية » التى عملها المعز بأنها كسوة الكعبة ! ونحن نرى أن هذا التفسير غير صحيح لأنه غير مقنع . فهناك فرق كبير بين الشمسية التى عملت للكعبة وكسوة الكعبة نفسها .

ولكى ندرك هذا الفرق بين الشمسية والكسوة يجب أن نعود إلى بعض المؤرخين الذين تناولوا أحداث تلك الفترة فى كتاباتهم مثل (ابن زولاق) و (المقرئى) و (الجوهري) . فقد قال (ابن زولاق) ما ملخصه : وصل المعز لدين الله إلى قصره بمصر فى رمضان من سنة ٣٦٢ هجرية . وعندما استقر وقبل الأعيان ، وقبل هداياهم ، نصب فى يوم عرفة الشمسية التى عملها للكعبة على إيوان قصره ، وسعتها ١٢ شبرا فى ١٢ شبرا ، وأرضها ديباج أحمر ، وبورها ١٢ هلال ذهب ، فى كل هلال اترجة ذهب مشبك ، جوف كل اترجة ٥٠ درة كبار كبيض الحمام ، وفيها الياقوت الأحمر والأصفر والأزرق ، وفى بورها كتابة آيات الحج بزمرد أخضر قد فسر ، وحشو الكتابة در كبير لم يُر مثله ، وحشو الشمسية المسك المسجوق ، فأراها الناس فى القصر ، ومن خارجها لعلو موضعها ، ونصبها عدة فراشين وجروها لنقل وزنها . »

وقد نقل (المقرئى) عن (ابن زولاق) ، وأضاف (المقرئى) فى كتابه (اتعاظ الحنفا) بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء) فقرة توضح ماهية هذه الشمسية ، فقال : « وأول من عمل الشمسية للكعبة أمير المؤمنين (جعفر المتوكل على الله) ، فبعث بسلسلة من ذهب كانت تعلق مع الياقوت التى بعثها المأمون ، وصارت تعلق كل سنة فى وجه الكعبة ، وكان يؤتى بهذه السلسلة فى كل موسم وفيها شمسية مكللة بالدر والياقوت والجوهر قيمتها شئ كثير فتقدم بها قائد يبعث به من العراق ، فتدفع إلى حجة الكعبة ، وتشهد عليهم بقيدها ، فيعلقونها يوم سانس الثمان ، فتكون على الكعبة ، ثم تنزع يوم الترويه . » (اتعاظ الحنفا ص ١٩٢ - دار الفكر العربى - ١٩٤٨) فهذه الشمسية - كما يقول (المقرئى) تعلق من سلسلة ذهب ، وتوضع فى وجه الكعبة ، فإين كل هذا من كسوة الكعبة المشرفة ؟ !

هل تعلق كسوة الكعبة المشرفة بسلسلة ؟ .. هل توضع هذه الكسوة المشرفة فى وجه الكعبة أم عليها ؟

إننا لو عدنا إلى ما كتبه (المقرئى) فى مكان آخر فسنجد ضمن ما كتب مؤرخا لأحداث شهر رجب سنة ٧٨٥ هجرية ، حيث يقول : « وفيه دار المحمل بالقاهرة ومصر على العادة فى كل سنة ، واستجد له ثوب حرير أصفر بشمسك زركش ، فيها اسم السلطان ، وعملت له رصافيات فضة ، مطلية بذهب ، فجاء أحسن ما عهد قبل ذلك . وفيه عرضت كسوة الكعبة ، وقد استجد فيها أيضا أن عمل طرازها الدائر بأعلامها من نصب . »

(كتاب السلوك للمقرئى - ص ٣٢ - ٣٣ ق ٢) .

ونلاحظ أن نفس العبارات قد جاءت عند (الخطيب الجوهري) مع اختلاف بسيط فى لفظة

(شمسات) ، حيث استبدلت بلفظة (برمت) مكانها . (نزهة النفوس والأبدان في تواريف
الزمان - ص ٧٤-١) .

والذى يستطيع ان يدقق في تعبير (المقريزى) سيجد ان استخدامه لكلمة (شمسات)
مركزية في وصفه كسوة المحمل ذاتها ، وهى كسوة الهودج الذى يتصدر قافلة الحج ، وهى
مجموعة دوائر او مربعات كان يكتب فيها اسم السلطان . اما كسوة الكعبة المشرفة فقد
استخدم (المقريزى) اسمها صريحا ، وقد استجد فيها (ايضا) اشياء غير التى استجدت في
زركشة كسوة المحمل ، ولعل كلمة (ايضا) عند (المقريزى) تفصح ان هناك في هذا الاحتفال
شيئين مختلفين ، هما كسوة المحمل بشمساتها المزركشة ، وكسوة الكعبة بزخارفها المخصصة .
هذا فضلا عن ان ابعاد ومقاسات تلك الشمسة التى تنسب للخليفة الفاطمى (المعز لدين الله)
التي مقاسها ١٢ شبرا طولا وعرضا لا تتناسب على الاطلاق مع ابعاد الكعبة المشرفة !!
(٤٣) القلقشندي - « صبح الاعشى » - ص ٢٨١ ح ٤ ، عبدالقادر الانصارى الجزيرى -
« درر الفوائد المنظمة » - ص ٢٤٧ .

(٤٤) المقريزى - « خطط المقريزى » - ص ٣٣٨ ح ١ .

(٤٥) ابن ايس - « بدائع الزهور » - ص ٢٠٥ ح ١ .

(٤٦) صفحة ٢٢٤ ح ٢ .

(٤٧) ابن تغرى بردى - « النجوم الزاهرة » - ص ٢٧٦ ح ٤ - المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ١٩٣٥ ، الحافظ ابى الطيب تقي الدين احمد الفاسى -
« شفاء الغرام » - ص ٢٢٥ ح ٢ .

(٤٨) يوسف احمد - « المحمل والحج » - ص ٢٤١ .

(٤٩) ابن تغرى بردى - « النجوم الزاهرة » - ص ٩٥ ح ٥ ، المقريزى - « الذهب المسبوك
في ذكر من حج من الخلفاء والملوك » - ص ٦٦ - مكتبة الخانجي بالقاهرة ١٩٥٥ .

(٥٠) ابن تغرى بردى - « النجوم الزاهرة » - ص ٩٥ ح ٥ .

(٥١) اللواء ابراهيم رفعت باشا - « مراة الحرمين » - ص ٢٨٣ ح ١ .

(٥٢) النويرى - « نهاية الارب » - ص ٢٨٤ ح ٢٣ - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٠ .

(٥٣) عبدالقادر الانصارى الجزيرى - « درر الفوائد المنظمة » - ص ٢٧٧ ، المقريزى -
« الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك » - ص ٨٠ - مكتبة الخانجي ١٩٥٥ .

(٥٤) المرجع السابق - ص ٢٨٠ .

(٥٥) لم يذكر المؤرخون لاحد من سلاطين الدولة الايوبية - وهى الدولة التى قلت عصر
الفاطميين ، وسبقت عصر سلاطين المماليك - انه قام بكساء بيت الله الحرام .

وقد يقال ان الدولة الايوبية انشغلت بامور معاركها التى كانت من اجل تطهير الاراضى
الاسلامية من برائن الاسلام من غزاة الصليبيين عن هذه المهمة الجليلة ، التى تخص كساء
كعبة الاسلام المقدسة . ولكننا نشك في ذلك ، وفي رايانا ان الذى انصرف عن ذلك هم المؤرخون
انفسهم ، حيث كانت درامية الاحداث التاريخية المخضبة بالدماء وقتها لها ما لها من العنف ،
بحيث انستهم ان يرصدوا ويدونوا شيئا في كتبهم عن إرسال كسوة الكعبة المشرفة في العصر
الايوبى .

وفي التاريخ نجد ما يشبه الشواهد الظنية على قيام بعض سلاطين العصر الايوبى بكساء
بيت الله الحرام .

من ذلك ما رواه (ابن ايس) عن قيام السلطان (الناصر صلاح الدين) الايوبى بإيقافه
بلدتين في صعيد مصر هما (نقادة) و (قبالة) ، وذلك للانفاق من ريعهما على الحرمين

الشريفين . وكان شيخ الحرم المدني حينما يأتى إلى أحد من سلاطين الدولة الأيوبية يقومون له ويجلسونه إلى جانبهم ، احتراماً وتقديراً وتقديراً له ، بل كان هؤلاء السلاطين - على حد قول (ابن ايلس) - « يتبركون به ، لقرب عهده من تلك الأماكن الشريفة ، واستمر ذلك إلى أيام السلطان الأشرف « برسباي » - راجع (ابن ايلس) في كتابه « بدائع الزهور » - ص ٢٤٣ - ١ ق ١ .

(٥٦) العصامي المكي - « سبط النجوم العوالي » - ص ٢٢٢ - ٤ - المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٨٤هـ .

(٥٧) اللواء ابراهيم رفعت باشا - « مرآة الحرمين » - ص ٢٨٣ - ١

(٥٨) ابن ايلس - « بدائع الزهور » - ص ٥٣٧ - ١ ق ١ .

(٥٩) عبدالقادر الانصارى الجزيرى - « درر الفرائد المنتظمة » - ص ٣١٢ - المطبعة السلفية بالقاهرة - بدون تاريخ .

(٦٠) المقرئى - « كتاب السلوك » - ص ١٩٠ - ٢ ق ١ - مطبعة لجنة التأليف والترجمة ١٩٧٠ .

(٦١) ابن ايلس - « بدائع الزهور » - ص ٨٨ - ٣ .

(٦٢) المرجع السابق - ص ٩٠ - ٣ .

(٦٣) المرجع السابق - ص ١٥٨ - ٢ .

(٦٤) المرجع السابق - ص ١٥٨ - ٢ .

(٦٥) المرجع السابق - ص ١٦٠ - ٢ .

(٦٦) المرجع السابق - ص ٢٤٤ - ٢ .

(٦٧) المرجع السابق - ص ٢٤٥ - ٢ .

(٦٨) المرجع السابق - ص ٢٩٦ - ٢ ، عبدالقادر الانصارى الجزيرى - « درر الفرائد المنتظمة » - ص ٣٣٢ .

(٦٩) عبدالقادر الانصارى الجزيرى - « درر الفرائد المنتظمة » - ص ٢٨٠ .

(٧٠) المقرئى - « الذهب المسبوك » - ص ٩١ .

(٧١) الجبرتى - « عجائب الآثار » - ص ٣٠ - ١ - دار الجيل ببيروت - بدون تاريخ .

(٧٢) عبدالقادر الانصارى الجزيرى - « درر الفرائد المنتظمة » - ص ٢٨٣ .

(٧٣) ابن ايلس - « بدائع الزهور » - ص ٣٣٦ - ١ ق ٢

(٧٤) المقرئى - « كتاب السلوك » - ص ٧٠٦ - ١ ق ٣

(٧٥) ابن بطوطة - « رحلة ابن بطوطة » - ص ٩٢ - ٣ - كتاب التحرير رقم ١٦٨ - دار التحرير للطباعة والنشر بالقاهرة .

(٧٦) المرجع السابق - ص ١١٥

(٧٧) يوسف احمد - « المحمل والحج » - ص ٢٤٤ - ١

(٧٨) عبدالقادر الانصارى الجزيرى - « درر الفرائد المنتظمة » - ص ٣٠٧ .

(٧٩) ابن ايلس - « بدائع الزهور » - ص ٥٠٥ - ١ ق ١ .

(٨٠) اللواء ابراهيم رفعت باشا - « مرآة الحرمين » - ص ٢٨٤ - ١ .

(٨١) يوسف احمد - « المحمل والحج » - ص ٢٤٥ - ١ .

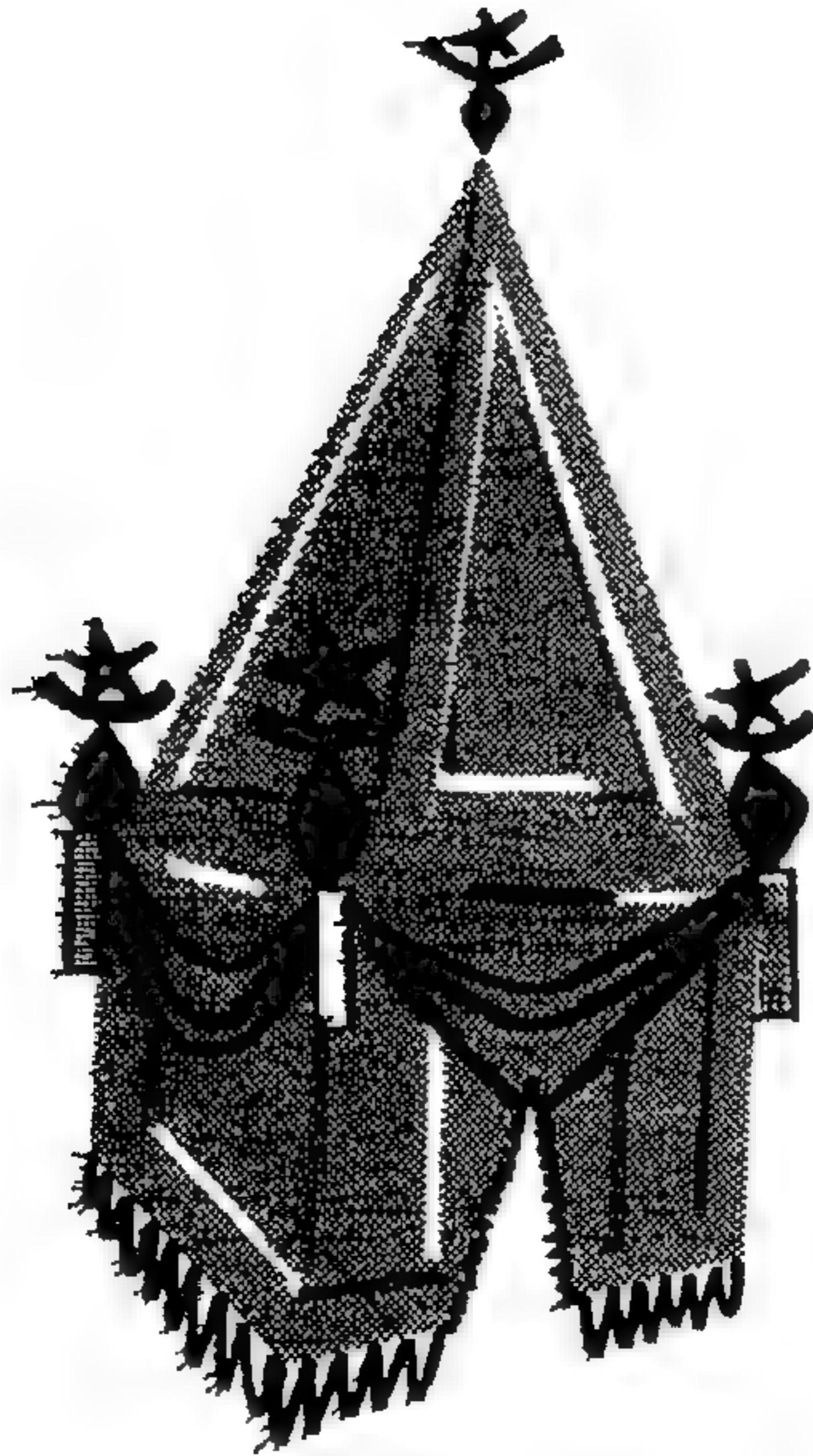
(٨٢) عبدالقادر الانصارى الجزيرى - « درر الفرائد المنتظمة » - ص ٣١٨ .

(٨٣) يوسف احمد - « المحمل والحج » - ص ٢٤٧ - ١ .

- (٨٤) المقرئى - « كتاب السلوك » - ص ٦١٤ - ٤ ق ٢ .
- (٨٥) عبدالقادر الانصارى الجزيرى - « درر الفرائد المنظمة » - ص ٢٣٤ .
- (٨٦) المرجع السابق - ص ٢٣٤ .
- (٨٧) عبدالرحمن محمود عبدالنواب - « قايىباى المحمودى » - ص ٢٠٧ .
- سلسلة الاعلام رقم (٢٠) - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٨ .
- (٨٨) يمكن رصد تلك المواقف على النحو الآتى :
- سنة ٩٠٨ هجرية من كتاب « بدائع الزهور » لابن ايس ص ٤٤٩ - ٤ ، سنة ٩١٠ هجرية ص ٧٢ - ٤ ، سنة ٩١١ هجرية ص ٨٩ - ٤ ، سنة ٩١٥ هجرية .
- ص ١٢٧ - ٤ ، سنة ٩١٨ هجرية من ٧٨٧ - ٤ ، سنة ٩١٩ هجرية من ٢٤٢ - ٤ ، سنة ٩٢٢ هجرية ص ١١٥ - ٥ ، وقد اوردها هنا لمن يشاء الرجوع إليها .
- (٨٩) ابن ايس - « بدائع الزهور » - ص ١١٥ - ٥ .
- (٩٠) المرجع السابق - ص ٢١٢ - ٥ ، وقد تكرر ذلك ايضا فى عامى ٩٢٤ و ٩٢٥ هجرية - انظر (ابن ايس) فى « بدائع الزهور » - ص ٢٧٨ - ٥ ، ٣١٦ - ٥ .
- (٩١) المرجع السابق - ص ٢١٢ - ٥ .
- (٩٢) يوسف احمد - « المحمل والحج » - ص ٢٥٣ - ١ .
- (٩٣) العاصمى الكنى - « صحت النجوم العوالى » - ص ٣٥٦ - ٤ .
- (٩٤) المرجع السابق - ص ٤٢٨ - ٤ .
- (٩٥) محمد صالح الشيبى - « إعلام الانام » - ص ١٦٨ .
- (٩٦) يوسف احمد - « المحمل والحج » - ص ٢٥١ - ١ .
- (٩٧) المرجع السابق - ص ٢٥١ .
- (٩٨) الجبرتى - « مظهر التقيس » - هامش ص ١٦٦ - ١ - الهيئة العامة لشئون المطابع الاميرية ١٩٦١ .
- (٩٩) الجبرتى - « عجائب الآثار » - ص ٢٥٠ - ٢ .
- (١٠٠) الجبرتى - المرجع السابق - ص ٤٠٥ - ٢ .
- (١٠١) المرجع السابق - ص ٤٠٦ - ٢ .
- (١٠٢) المرجع السابق - ص ٤٠٨ - ٢ .
- (١٠٣) المرجع السابق - ص ٥٠٢ - ٢ .
- (١٠٤) علماء الحملة الفرنسية - « وصف مصر » - ص ٢٣٦ - ٥ .
- (١٠٥) يوسف احمد - « المحمل والحج » - ص ٢٦٠ - ١ ، نقلا عن هامش ص ١٧٢ تاريخ مكة الأزرقى .
- (١٠٦) يوسف احمد - « المحمل والحج » - ص ٢٦١ - ١ .
- (١٠٧) الجبرتى - « عجائب الآثار » - ص ٩٩ - ٣ .
- (١٠٨) المرجع السابق - ص ٩٩ - ٣ .
- (١٠٩) المرجع السابق - ص ١٤٠ - ٣ .
- (١١٠) المرجع السابق - ص ٤٠٨ - ٣ .
- (١١١) المرجع السابق - ص ٤٦٧ - ٣ .
- (١١٢) انوار وليم لين - « المصريون المحدثون » - ص ٤٠٦ .
- (١١٣) المرجع السابق - ص ٤٠٦ .
- (١١٤) المرجع السابق - ص ٤٠٧ .

- (١١٥) المرجع السابق - ص ٤٠٨ .
 (١١٦) هذه التي ذكرها ليست معلومة غير دقيقة ، فلم تكن الملكة (شجر الدر ، هي اول من ارسل ستارة باب الكعبة المشرفة والمسماة باسم (البرقع) ، وإنما كان عام ٨١٠ هجرية هو عام إدخال ستارة باب الكعبة الحقيقي ، ولا يمكن بالطبع التأريخ بما جاء على لسان العامة في عصر (محمد علي) ، ارجع الى مجلة الفيصل العدد (١٢٦) ، ذو الحجة ١٤٠٧ هجرية الموافق اغسطس ١٩٨٧ - ص ٦٢ .
 (١١٧) انوارد وليم لين - « المصريون الحديثون » - ص ٤٠٩ .
 (١١٨) من نص وثيقة الاشهاد الشرعي لكسوة عام ١٢٨٠ هجرية الموافق ١٨٦٤ ميلادية ، وهي منشورة في كتاب « اعلام الأتام بتاريخ بيت الله الحرام » للشيخ محمد صالح الشيباني - ص ٢٩٨ .
 (١١٩) عبدالله النديم - الأعداد الكاملة - مجلة الاستاذ - ص ٨٩٣ - ج ٢ - كتب خاتمة .
 (١٢٠) من لرشيف دار كسوة الكعبة الشريفة .

□ □ □





ديار عمل كسوة الكعبة المشرفة وموظفوها

تقع الآن (دار كسوة الكعبة الشريفة) في حي
الخرنفش بالقاهرة ، عند قرب التقاء شارع بين السورين
وميدان باب الشعرية .

صحيح إن الدار الآن أصبحت هدنة الحركة والعمل
إلا أنها كانت ذات مجد عريق في عمل كسوة الكعبة
المشرفة منذ زمن بعيد .

وفي تاريخ عمل كسوة الكعبة المشرفة أماكن كثيرة صنعت بها ، مثل دمياط
والقلعة ودور الأمراء ، ودار الخرنفش ودار الاسكندرية ومكة المكرمة .
فقد كانت (تنيس) بالقرب من دمياط ذات شهرة كبيرة في عمل كسوة الكعبة
المشرفة ، ومعها (شطا) و (تونه) منذ أوائل العصر العباسي كما ذكرنا من
قبل ، نقلا عن (المقریزی) في خطه .

وانتقل عمل كسوة الكعبة المشرفة إلى مشهد الإمام (الحسين) - رضى الله عنه
بالقاهرة في العصر المملوكي ، فالقلقشندي - المتوفى سنة ٨٢١ هجرية - يقول
عنها : « ... وهذه الكسوة تنسج بالقاهرة المحروسة بمشهد الحسين من الحرير
الأسود ، مطرزة بكتابة بيضاء في نفس النسيج ، فيها : « إن أول بيت وضع
للناس - الآية » (١)

ولم يكن المشهد الحسيني هو المكان الوحيد الذي تُنسج فيه وتُعمل كسوة
الكعبة المشرفة ، بل كانت هناك (دار الطراز بئر الاسكندرية) وعن هذه الدار
قال (القلقشندي) ضمن ما سجل عن عام ٧٤١ هجرية :

« فليباشر هذه الوظيفة التي كانت في سالف الزمان إلى الحكام تضاف ،
وللعلماء الاعلام عليها نظر وإشراف ، ومنها يسدل على امليائنا لباس الإنعام ،
وترسل اجناس الاتحاف ، وتسربل الكعبة البيت الحرام في كل عام بجلبابها
المحكم النسج المعلم الاطراف ، وليصن ذهبها عند صرفه وقبضه ، وليزن خرّها
بتقريب مشوبة وتحريز محصنة ، وليبين عن حسن التدبير في إبرام حريرها
ونقصه ، وليستجلب رجالها وصنّاعها ، وليجنب احوالها ضياعها ، وليستجد
اصنافها وانواعها ، وليتفقد اكنافها وبقاعها : حتى يظهر في اعمالها آثار
الصلاح ، وتشكر مباشرته التي هي محمودة الانتفاء مسعودة الافتتاح ، والله
يقرن رجاءه بالارباح ، ويؤذن له حيث سلك بإصابة الصواب والفلاح ، بمنه
وكرمه . » (٢)

ولقد أكد لنا وجود دار لعمل كسوة الكعبة المشرفة في ثغر الإسكندرية ما ذكره (المقرئى) من أن السلطان المملوكى (الناصر محمد بن قلاوون) إبان الفترة الثالثة لسلطنته في عام ٧١٩ هجرية عندما تجهز للحج أمر ناظر الخاص (كريم الدين بن عبد الله بن السيد) بتجهيزه والسفر إلى الإسكندرية لعمل ثياب أطلس برسم الكعبة .^(٣)

من هنا نستطيع أن نقف وقفة مع هذه الوظيفة المملوكية ، وهى وظيفة (ناظر الخاص) ، التى كانت تضطلع بمهمة عمل كسوة الكعبة الشريفة إلى جوار الكسوى المملوكية الأخرى والخاصة بثياب السلطان والأمراء والمباشرين ، وأشياء أخرى كثيرة لكنها محددة .

لقد برزت هذه الوظيفة على سطح الأحداث لأول مرة في عام ٧١٤ هجرية في عهد السلطان المملوكى (الناصر محمد بن قلاوون) ، إبان سلطنته الثالثة .

قال (ابن إيس) في ذلك : ... أطلع السلطان على كاتبه القاضى (كريم الدين عبد الكريم بن عبد الله بن السيد) ، واستقر به ناظر الخاص : وهو أول من تلقب بـ ناظر الخاص ، وأول من ولى هذه الوظيفة ، وهى محدثة ، فرع من الوزارة : وموضوع هذه الوظيفة ، أن يكون مباشرها متحدثاً فيما هو خاص من أمور المملكة وعام ، وأقربت إليه النفقات ، والكسوى ، وخلع الأمراء والجند ، والأضحية ، وخلع عيد الفطر ، وكسوى حرم السلطان ، وما يجرى مجرى ذلك .^(٤)

فلما تولى هذه الوظيفة القاضى (كريم الدين بن السيد) ، عظم أمره ، فكان - كما ذكر (ابن إيس) - يركب في خدمته الأمراء وأعيان الناس عندما كان ينزل من القلعة إلى بيته ، وصار له من الشأن ما أباح له حرية التصرف في خزائن بيت المال بعد أن فوضه السلطان بذلك ، وقال فيه الشعراء شعراً ذا مديح . وقد حجّ القاضى (كريم الدين بن السيد) مرتين : أولهما مع السلطان نفسه عام ٧١٨ هجرية ، وثانيتهما عام ٧٢١ هجرية مع محمل السلطنة (خوند طغاي) زوجة السلطان (الناصر محمد بن قلاوون) .^(٥)

ظل ناظر الخاص القاضى (كريم الدين بن السيد) يشغل وظيفته ، وعمل كسوة الكعبة المشرفة في الإسكندرية عام ٧١٩ هجرية كما سبق ذكر ذلك (المقرئى) ، إلى أن عزله السلطان في عام ٧٢٢ هجرية ، وعين القاضى (تاج الدين بن عبد الوهاب) بدلا منه .^(٦)

وفي عهد السلطان (الظاهر برقوق) حوّل السلطان لمن يشغل وظيفة الاستادار المشاركة في تجهيز كسوة الكعبة ، فكان اختصاص الاستادار كاختصاص الوزير وناظر الخاص جميعاً^(٧)

ولذلك ضرب السلطان (الظاهر برقوق) استاداره (جمال الدين محمود) ، علة صعبة ، - كتعبير (ابن إيس) - بسبب تأخر الكسوة في عام ٧١٧ هجرية عن عهدها .^(٨)

قد يتبادر إلى ذهن أحد أن هذه (العلقه الصعبة) كانت بسبب تأخر (الكسوة) أى كسوة السلطان أو الأمراء والأتباع ، إذ أن المعنى يشمل ذلك ، لكننا نلمح في الأحداث في شهر صفر من السنة التى تليها وبعد ثلاثة شهور فقط تغييراً جديداً ، وتعيين (علاء الدين على بن الطبلأوى) استدار خاص الخاص ، وناظر كسوة الكعبة ، عوضاً عن (نجم الدين محمد الطنبدى) وكيل بيت المال .^(٩)

وفي عام ٨٢٤ هجرية عين السلطان المملوكى (الظاهر ططر) في وظيفة « ناظر الخزانة والكسوة الشريفة » المملوك (شرف الدين بن قاج الدين بن نصر الله)^(١٠)

وقد مدح (المقرئى) هذا الناظر لما بذله في عمل كسوة الكعبة الشريفة في عام ٨٢٥ هجرية . قال يصف دوران الحمل المصرى وقتها : « أدير محمل الحاج بالقاهرة ومصر على ما جرت به العادة . وقد كثر الاعتناء بأمره ، وعملت كسوة الكعبة في غاية الحسن ، بحيث لم يعمل مثلاً فيما أتركناه . وولى عملها (شرف الدين أبو الطيب محمد بن قاج الدين عبد الوهاب بن نصر الله) ناظر الكسوة ، لحسن مباشرته وعفته . »^(١١)

أما في عصر السلطان المملوكى (الأشرف إينال) فقد أصبح لمنصب ناظر الخاص أهمية كبيرة يقدرها ولاة الأمر وسائر الناس من العامة . وفى شوال سنة ٨٥٩ أمر السلطان المملوكى (الأشرف إينال) بعمل كسوة للحجرة الشريفة ، فلما انتهى العمل منها عرضها ناظر الخاص (الجمال يوسف) على السلطان ، فما كان من السلطان إلا أن أهده خُلعاً هي « كملية حافظة »^(١٢) لم يكن ظفر ناظر الخاص (الجمال يوسف) بكسوة من السلطان أو بخُلع منه يرتديها في مناسبة من المناسبات بذات قيمة تذكر بجوار حب الناس له بسبب براعته في عمله . وليس أدل على ذلك من يوم أن مرض (الجمال يوسف) فحُفقت له مشاعر الناس .

قال (ابن إياس) في حوادث شهر شوال سنة ٨٦٠ هجرية : « وفيه حصل للقاضى ناظر الخاص (يوسف) توعد في جسده ، فانقطع عن طلوع القلعة أياماً ، ثم شفى بعد ذلك وطلع إلى القلعة ، فاخلع عليه السلطان كملية حافظة ، ونزل من القلعة في موكب حافل وقُدَّامه أرباب الدولة وأعيان الناس ، وزينت له القاهرة من داره إلى القلعة . وقعدت له جوق المغنى على الدكاكين ، وتخلقت الناس بالزعران ، ووقدوا له الشموع على الدكاكين ، وكان له يوم مشهود ، وفيه يقول الشهاب المنصورى :^(١٣)

يا جواهر الفرد الذى عن جسمه زال العرض
أجفان من أحبيته تحملت عنك المرض
وفي عام ٩٠٨ هجرية أيام سلطنة (الغورى) عين السلطان ناظراً للكسوة

الشريفة هو القاضي (محيي الدين عبد القادر القسروى) . وكان يشغل قبل ذلك وظيفة ناظر الجيش .^(١٤)

واحتفى السلطان (الفورى) بناظر الكسوة هذا فى كل مناسبة خاصة بعمل الكسوة الشريفة . وفى يوم الاثنين تاسع عشر من شهر رمضان سنة ٩١٢ هجرية ذكر (ابن إياس) أنه : « عرضت كسوة الكعبة على السلطان ، وهى مزفوفة على رعوس الحمالين ، وشقوا بها القاهرة . وكان يوماً مشهوداً . وفى يوم الخميس تاسع عشرينه عرض ناظر الخاص خلع العيد على السلطان وهى مزفوفة ، فالبسه السلطان خلعة لكونه ثار فى هذه السنة بالسداد » .^(١٥)

وبالطبع شمل هذا السداد ما ناطه به السلطان وكلفه من عمل كسوة الكعبة المشرفة ولوازمها .

كان يعد هذا الاحتفال يوم عيد يفرح به الخاصة والعامة . وكان من أبرز الشخصيات فرحا بذلك ناظر الكسوة الشريفة ، الذى كان هذا اليوم بالنسبة له كيوم عرسه .

ففى يوم الخميس ثامن شوال : « عرضت كسوة الكعبة على السلطان ومقام (إبراهيم) - عليه السلام - وقد شقوا من القاهرة وهى على رعوس الحمالين مزفوفة ، فلبس القاضي ناظر الجيش (عبد القادر القسروى) فى ذلك اليوم خلعة كونه كان ناظر الكسوة أيضاً . »^(١٦)

وفى يوم رابع عشر شوال سنة ٩١٩ هجرية ذكر (ابن إياس) خبر وفاة أحد نظار الكسوة الشريفة ، والذى شغل هذا المنصب أيام السلطان المملوكى (الأشرف قايتباى) ، والذى يعنينا هنا فى هذا الخبر وصف ما كان يتمتع به هذا الناظر من مميزات وما كان له من مكانة طيبة بين علىه الناس . قال عنه : « كان أصله من الصعيد ، وخدم الأشرف (قايتباى) حين كان خاصكياً إلى أن بقى سلطاناً ، ورأى فى أيامه من العز والعظمة ما لا رآه غيره ممن سبقه ، وكان بيده مهتر الطشتخانة الشريفة ونظر الكسوة الشريفة والتحدث على جهات السلطان ، وكان غالب السعى لأرباب الدولة من بابه . ويقال كان متحصله فى كل يوم نحواً من أربعين ديناراً . »^(١٧)

وحينما جاء العصر العثمانى وغزت الدولة العثمانية مصر اختار السلطان العثمانى (سليم الأول) أبرز رجل فى مصر فى ذلك الوقت ليكون مشرفاً على شئون الدولة وهو ملك الأمراء (خاير بك) ، وأبقى (خاير بك) هذا القاضي (علاى الدين بن الإمام) فى نظارة الخاص ، مضافاً لما بيده من وظائف عديدة ، وقيل إنه قرر فى نظر الكسوة الشريفة أيضاً وجعله أمير ركب المحمل أيضاً ، وصار بيده خمس وظائف .^(١٨)

كل هذا الاهتمام بعمل كسوة الكعبة المشرفة فى العصرين المملوكى والعثمانى ، من ناحية الاهتمام بصناعتها والقائمين عليها يثير لدينا تساؤلاً . وهو أين كانت

تصنع كسوة الكعبة المشرفة خلال هذين العصرين ؟
في الحقيقة لقد تأكد لدينا أن دار صناعة وعمل كسوة الكعبة المشرفة كانت في
العصر المملوكي بالقلعة .

وقيل إنها عملت بداخل القلعة في (القصر الأبلق) الذي أنشاه السلطان
المملوكي (الناصر محمد بن قلاوون) سنة ٧١٣ هجرية .^(١٩)
لقد ذكر (المقرئى) عن هذا القصر في خطه أنه كان به رسوم وعوايد ، تغير
كثير منها وبطل معظمها ، وبقيت إلى الآن بقايا من شعار المملكة ، ورسوم
السلطنة .

وربما كانت حياكة وتطريز كسوة الكعبة المشرفة من العوايد التي أشار إليها
(المقرئى) بالبقاء في القلعة في داخل هذا القصر .

لقد كان هذا القصر مكان جلوس السلطان (الناصر محمد بن قلاوون) لشئون
الحكم ، وبه عدة قصور داخلية سماها (المقرئى) في خطه « قصور جوانية »
- أى داخلية - ويعبر إليها خاصته من أرباب الوظائف في الأشغال المتعلقة به على
ما تدعو الحاجة إليه ، ويقال لها خدمة القصر .

لقد وصف (المقرئى) هذا القصر الأبلق وصفا دقيقا ، من حيث مكوناته
واقسامه وزخارفه ، فقال : « وفي هذا القصر تجاه باب رحبة يسلك إليها من
الرحبة التي تجاه الأيوان . فيجلس بالرحبة التي على باب القصر خواص الأمراء
قبل دخولهم إلى خدمة القصر . ويمشي من باب القصر في دهاليز مفروشة بالرخام ،
قد فرش فوقه أنواع البسط ، إلى قصر عظيم البناء شاهق في الهواء بأيوافين :
اعظمها الشمالى ، يطل منه على الاسطبلات السلطانية ، ويعتد النظر إلى سوق
الخيول والقاهرة وظواهرها إلى نحو النيل ، وما يليه من بلاد الجيزة وقراها . وفي
الأيوان الثانى القبلى باب خاص لخروج السلطان وخواصه منه إلى الأيوان الكبير
أيام الموكب ، ويدخل من هذا القصر إلى ثلاثة قصور جوانية : منها واحد مسامت
لأرض هذا القصر ، واثنان يصعد إليهما بدرج ، في جميعها شبابيك حديد تشرف
على مثل منظرة القصر الكبير . وفي هذه القصور كلها مجارى الماء مرغوعا من النيل
بدواليب تديرها الأبقار من مقره إلى موضع ثم إلى آخر ، حتى ينتهى الماء إلى
القلعة ، ويدخل إلى القصور السلطانية وإلى دور الأمراء الخواص المجاورين
للسلطان ، فيجرى الماء في دورهم ، وتدور به حماماتهم . وهو من عجائب الأعمال
لرفعته من الأرض إلى السماء . وهذه القصور جميعها من ظاهرها مبنية بالحجر
الأسود والحجر الأصفر ، موزرة من داخلها بالرخام والفصوص المذهبة المشجرة
بالصدف والمعجون وأنواع الملونات ، وسقفها كلها مذهبة قد موهت بالآزورد ،
والنور يخرق في جدرانها بطلاقات من الزجاجات القبرسى الملون كقطع الجواهر
المؤلفة في العقود . وجميع الأراضي قد قرشت بالرخام المنقول إليها من أقطار
الأرض ، مما لا يوجد مثله . »^(٢٠)

ولقد عقرنا على مكان عمل وزركشة . كسوة الكعبة المشرفة في العصر العثماني أثناء ولاية (علي باشا) على مصر من خلال كتابة أحد الرخالة الشوام خلال زيارته لها في عام ١١٠٥ هجرية الموافقة ١٥٩٦ ميلادية .

هذا الرخالة هو العالم الفاضل (عبدالغنى بن إسماعيل النابلسي ، المولود في عام ١٠٥٠ هجرية والمتوفى عام ١١٤٣ هجرية

لقد ذهب في يوم سادس عشر من جمادى الأولى سنة ١١٠٥ هجرية للتفرج على قلعة الجبل ، وبعد أن شاهد أبراجها قال : « ثم دخلنا إلى محل قصر يوسف عليه السلام ورأينا المكان الذي يعملون فيه ثوب الكعبة هناك ، فيحيكونه بسداوات من الحرير ، بعضها فوق بعض ، وناس قاعدون فوق ذلك على دفوف مرتفعة ، وناس قاعدون تحت على كراسي ، فإذا حاكوا حصة من ذلك ظهرت الكتابة فيه ، ورأينا هناك قالبا من الأخشاب المنحوتة كبيرا بمقدار الكعبة ، يفككونه ويشبكونه ببعضه بعضا ، يقيسون عليه كسوة الكعبة على مقدار الكعبة ، دائما يشتغلون في ذلك من السنة إلى السنة . ورأيناهم يحيكون أيضا ثوبا للقبر الذي في داخل حجر إبراهيم - عليه السلام - بقرب الكعبة . ودخلنا إلى مكان آخر ، فرأينا أناسا يحيكون البسط المستطيلة التي تشبه السجادات المتصل بعضها ببعض ، ذات المحاريب الملونة لبسطها في مسجد المدينة وغيره ، فلما وجدنا ذلك تفائلنا بحصول الحج الشريف لنا إن شاء الله تعالى . » (٢١)

ويقول (كازانوف) : إن بيت (قصر) يوسف ليس شيئا آخر سوى القصر الأبلق الذي أنشاه السلطان (الناصر محمد بن قلاوون) في شعبان سنة ٧١٣ هجرية . (٢٢)

وخلال الفترة التي عاشها (الجبرتي) شهد بنفسه نزول كسوة الكعبة من القلعة والاحتفال بها أمام الناس ، ففي حوادث شهر شوال سنة ١٢٠٠ هجرية ، قال : « وفي يوم السبت ، نزلت الكسوة من القلعة على العدة إلى المشهد الحسيني ، وركب (إبراهيم بك) الكبير و (إبراهيم بك) أمير الحاج إلى قراميدان ، ونزل الباشا كذلك ، وأكد على أمير الحاج في التشهيل ، فاعتذر إليه بتعطيل الأسباب ، فوعده بالمساعدة . » (٢٣)

كما ذكر ذلك في حوادث شهر شوال سنة ١٢٠٢ هجرية ، حيث قال : « وفي يوم السبت ثامنه نزلوا بكسوة الكعبة من القلعة إلى المشهد الحسيني على العدة . » (٢٤)

وفي عام ١٢١٣ هجرية ابتدا عمل كسوة الكعبة المشرفة يأخذ له مكانا آخر غير قلعة الجبل ، قلب ومركز نظام الحكم في مصر ، وانتقل إلى ديار بعض كبار رجال مصر المبرزين ، وكان أولى بذلك أكبر اسم في القاهرة ، وهو الذي يشغل منصب يعادل حاكم القاهرة أو محافظها ، أو ما يسمى باسم الكتخدا .

قال (الجبرتي) في حوادث شهر شوال من هذا العام : « ... وكان نسج

الكسوة بدار (مصطفى كتحدا / المذكورة ، وهو على خلاف العادة من نسجها بالقلعة . (٢٥)

وبخروج عمل وركشة كسوة الكعبة المشرفة من القلعة إلى ديار كبار رجال مصر أعطى هذا اتباعهم الحق في أن يكونوا هم تظار الكسوة الشريفة بالطبع ، لأنهم كانوا المشرفين على تنفيذها وركشتها ، وكان يحق لهم الظهور في احتفال الكسوة الشريفة وهم تحفهم كل مظاهر الأبهة والفخامة ، برفقة موسيقية وحفل استعراضى كبير كالعتك . وهذا ما حدث في احتفال عام ١٢١٣ هجرية .

ولأن هذا العام كان عام الغزو الفرنسى بقيادة (نابليون بونابرت) على مصر ، ولأن (مصطفى كتحدا) هذا قد عُيِّن أميراً للمحمل المصرى ، وفر من وجه جنود الحملة الفرنسية ، فقد ذكر (الجبرتى) أنه في يوم الأحد الرابع والعشرين من شوال أرسل جنود الحملة إلى داره عسكرياً فقبضوا على رب بيته الذى كان فاضلاً على الكسوة ومعه اتباعه في الدار ، وأرسلوهم من الدار إلى القار ، أى إلى سجن الجيزة . (٢٦)

وعلى ما يبدو إن كسوة الكعبة المشرفة هذه لم تكن كاملة لو جاهزة للسفر إلى الأراضى الحجازية مع قلعة حجاج سنتها ، لذا رُوى تعيين السيد (إسماعيل الوهيبى) المعروف باسم (الخشاب) للنظر في أتمامها ، فانتقلت إلى بيت (أيوب جلويش) بجوار مشهد السيدة زينب ، وتموها هناك كما ذكر الجبرتى . (٢٧)

وبيت (أيوب جلويش) هذا هو حوش (أيوب بك) الذى كان موجوداً بعد المسجد الزينبى في اتجاه شارع زين العابدين بالسيدة زينب ، ونقل موجوداً حتى أوائل الستينات من هذا القرن ، ثم هدم ، وكان ذو فناء واسع نصفه مسقف والنصف الآخر مكشوف ، ومداخله معقود بالحجر ويحتوى على قاعات مسيحة ذات بوابين شاهداها بانفسنا وقتها ، وكان يشغله تجار الروبليكي والادوات القديمة المهمة .

ويذكر لنا (الجبرتى) في حواش شهر رجب سنة ١٢١٩ هجرية أن عمل وركشة كسوة الكعبة المشرفة انتقل إلى بيت آخر .

قال : « وفي هذا الشهر ، شرعوا في عمل كسوة الكعبة بيد السيد (احمد المحرقى) فقيد بها وكيله بذلك ، وشرعوا في عملها في بيت الملا بحارة المقاصيص . (٢٨)

وهذا البيت وصفه كل من (على باشا مبارك) و (المقرئى) ، فقال الاول : إنها دار دخلت في وقف الملا ، وعرفت في وقت (على باشا مبارك) باسم (دار الملا) ، وهذه الدار باقية على أصلها تجاه من يسلك من ناحية باب سر المرسى المنصوري طلباً سوق الصيارفة أو المقاصيص ، لأنها قاصلة بين السوقين ، فالخارج منها يصير بين ثلاثة مسالك : واحد عن يمينه يتوصل منه إلى المقاصيص والخردجية ، والثانى عن يساره يسلك منه إلى ما بين دلكين الصيارف وإلى حارة

اليهود والثالث امامه يسلك منه إلى المارستان المنصوري ، ويوجد بهذه الدار إلى اليوم مقعد عظيم جدا ، وقاعة أرضية كبيرة ذات إيوانين بينهما درقاعة ، ولها مدخل كبير ، وسقفها مرتفع إلى الغاية ، ويوجد بها أيضا جملة مداخل ومخازن . (٢٩)

اما (المقرئى) فقد ذكرها في خطته في موضعين : الأول تحت عنوان (رجة بيبرس الحاجب) ، والثاني تحت عنوان (دار بيبرس الحاجب) . فقال عن (رجة بيبرس الحاجب) : هذه الرجة بخط حارة العدوية عند باب سر الصاغة . عُرفت بالأمير بيبرس الحاجب لأن داره بها . وبيبرس هذا هو الذى ينسب إليه غيط الحاجب بجوار قنطرة الحاجب . وبهذه الرجة الآن فندق الأمير الطواشى ، زمام الدور السلطانية ، (زين الدين مقل) . وبه صار الآن هذا الخط يعرف بخط فندق الزمام بعد ما كنا نعرفه يعرف بخط رجة بيبرس الحاجب . (٣٠) ثم قال عن (دار بيبرس الحاجب) : هذه الدار بخط حارة العدوية ، وهى الآن من خط باب سر المارستان : عرفت بالأمير بيبرس الحاجب صاحب غيط الحاجب فيما بين جسر بركة الرطلى والجرف . (٣١)

وقال : إن هذه الدار كانت من أبهج دور القاهرة وأعظمها ، وانتقلت ملكيتها من أولاد (فضل الله) إلى الأمير (تغرى بردى) الذى صادرها لحسابه ، ولم تستطع ابنة صاحب الدار أن ترجعها إلى ملكيتها بسبب مخصصات بينها وبين ورثة الأمير (تغرى بردى) هذا .

دار كسوة الكعبة الشريفة بالخرنقش :

بعدما تولى (محمد على) الحكم فى مصر عام ١٢٢٠ هجرية الموافق ١٨٠٥ ميلادية انتقل عمل وزرطنة كسوة الكعبة المشرفة إلى القلعة مرة أخرى بحكم رجوع مركز الحكم إلى هناك ، وظل الأمر مستمرا كذلك إلى أن أنشأ دار الخرنقش فى عام ١٢٣٣ هجرية .

ولقد ذكر (الجبرتى) فى أحداث شهر ذى الحجة من هذه السنة أحداثا كثيرة ، « ومنها ، العمارة التى أمر بإنشائها الباشا المشار إليه بين السوريين وحارة النصارى المعروفة بخميس العدس ، المتوصل منها إلى جهة الخرنقش ، وذلك بإشارة اكبر نصارى الفرنج وغيرهم ، وهى عمارة عظيمة ابتدؤا فيها من العام الماضى ، واستمروا مدة فى صناعة الآلات الاصولية ، التى يصطنع بها اللوازم ، مثل السندالات ، والمخارط للحديد ، والقواديم ، والمناشير ، والتزجات ، ونحو ذلك ، وأقروا لكل حرفة وصناعة مكانا وصناعا يحتوى المكان على الأنوال والدواليب والآلات الغربية الوضع والتركيب ، لصناعة القطن وأنواع الحرير والأقمشة المقصبات . »

وبعد أن تم تجهيز هذه الورشة بالآلات والمعدات بقى تدريب الأيدى العاملة

على تشغيلها . وفي هذا الغرض قال (الجبرتي) أيضا : « وفي أواخر هذا العام ، جمعوا مشايخ الحارات والزموم بجمع أربعة آلاف غلام من أولاد البلد : ليشغلوا تحت أيدي الصناع ، ويتعلموا ، ويأخذوا أجره يومية ، ويرجعوا لأهاليهم أواخر النهار ، فمنهم من يكون له القرش والقرشان والثلاثة بحسب الصناعة وما يناسبها ، وربما احتيج إلى نحو العشرة آلاف غلام بعد اتمامها والمحتاج إليه في هذا الوقت القدر المذكور ، وهي كرخانة عظيمة صرف عليها مقادير عظيمة من الأموال . » (٣٢)

ومما أشار (الجبرتي) نرى أن تشغيل هذه الدار كان بغرض صناعة الأقمشة المختلفة ، وضمن هذا عمل كسوة الكعبة المشرفة بها ، إذ أنها من المقصبات التي أشار إليها .

ودار كسوة الكعبة المشرفة ذكرها (علي باشا مبارك) في خططه تحت عنوان (ورشة الخرنفش) ، ويفهم من كلامه عنها أنها كانت داراً لأحد الأمراء المصريين - وإن لم يذكر لنا من هو - ثم جعلها (محمد علي) ورشة للأغراض السابق ذكرها ، ثم يقول : « ... وهذه الورشة موجودة إلى الآن على ذمة الميرى ، لكنها بطلت كما بطل غيرها من الورش ، وهي اليوم معدة لتشغيل كسوة الكعبة الشريفة ، أدام الله تعظيمها . » (٣٣)

وقد سمي (كلوت بك) هذه الدار باسم (فاوريقة) وهو ما نعرفه الآن باسم فابريكا أو مصنع ، وقال عن محتوياتها أنها كانت مائتي عجلة ، عشر منها للغزل الخليط والباقي للغزل الدقيق . وتحمل المائة الأولى مائة مغزل وثمانية مغازل على خط واحد والمائة الثانية مائتين وستة عشر . » (٣٤)

ويضيف (عبد الرحمن الرافعي) نقلاً عن (مانجان) واصفاً المحتويات : « وفي الفابريكة سبعون ماكينة ، وعدد يوازيها من العدد الأخرى لتجهيز القطن قبل غزله ، وعدا دواليب الغزل ومغازله كان يوجد بالفابريكة قسم للنسيج به ثلثمائة نول تنسج من خيوط القطن أقمشة مختلفة أنواعها كالباقة والموسلين واليصمة والشاش والباتست . والأقمشة التي تنسج في هذه الفابريكة كانت ترسل لتبييضها في المبيضة التي أنشئت لهذه الغاية على شاطئ النيل بين بولاق وشبرا ، ثم تعاد إلى مخازن الخرنفش لتباع لمن يطلبها ، ويوجد بالفابريكة ورش للحدادين والسباكين والخراطين والنجارين لإصلاح الآلات التي يصيها العطب . » (٣٥)

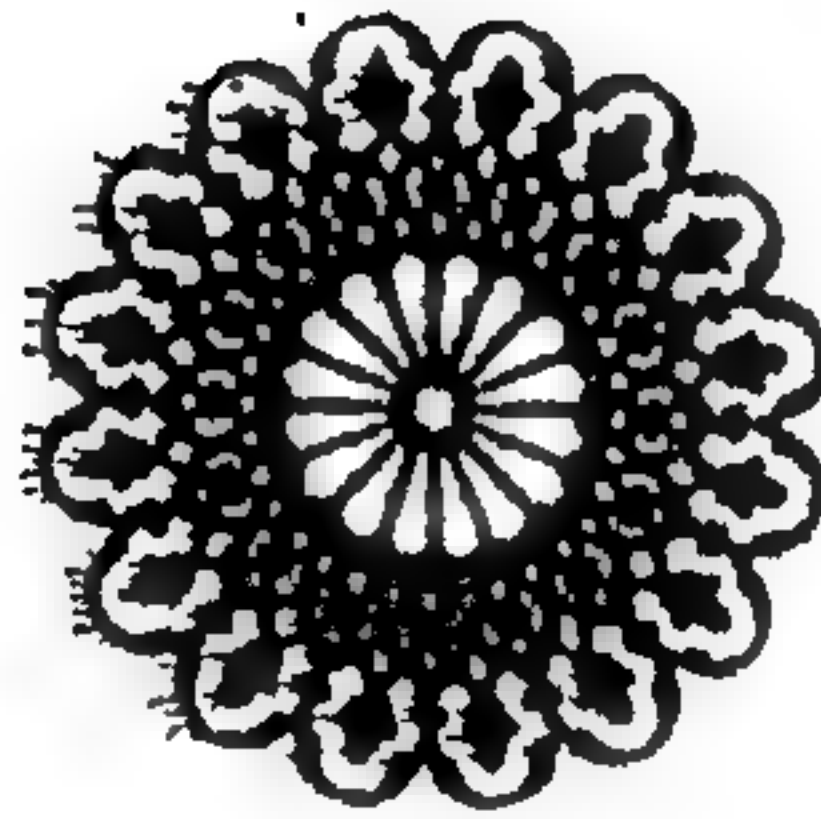
إذا فدار كسوة الكعبة الشريفة الموجودة الآن هي وريثة تراث عريق ، وهذا التراث تنقل هنا وهناك ، عبر بعض المدن والقرى المصرية التي اشتهرت بها إلى أن استقر في دار كسوة الكعبة الشريفة بالخرنفش .

كان صنّاع الكسوة المشرفة وعمال زركشتها من تقاليدهم المرعية أن لا يقوموا بالعمل فيها إلا إذا كانوا جميعاً في تمام الموضوع .

، وفي بداية عملهم اليومى يقومون بترديد جماعى لفاتحة القرآن الكريم - على غرار طريقة إلقاء طلاب الكتاتيب - بصوت جهورى يرج ، ليس فقط أرجاء دار الكسوة الشريفة وحدها بل أرجاء شارع الخرنفش كله من أوله إلى آخره ، ثم يطلقون من حولهم البخور ، وبعد ذلك يرددون الآية القرآنية الكريمة : « بسم الله الرحمن الرحيم . إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما » (٣٦)

ولقد كانت دار الكسوة الشريفة عامرة بعمالها وزاخرة بفنييها ممن كانوا يقومون بالزركشة ، ومن واقع كشف بأسماء أسطوات هذه الحرفة نستطيع أن نحدد لهم على النحو الآتى :

□ □ □



١. بيان تواريخ الاحتفال بميلاد الزكريا، الزكريا، وفتحهم مع مسجلة الكنيسة الشرقية سنة ١٨٨٢ ميلادية الموافق ١٣٠٨ هجرية . وهو أقدم كشف يمكن العثور عليه

ملاحظات	تاريخ انقضاءه	تاريخ تسدده	الاسم	مسجل
١٩٢٦-١٩٢٥	سنة ١٩٢٣-١٩٢٤	سنة ١٨٨٣	محمد سالم	١
١٩٢٦-١٩٢٥	سنة ١٩٢٣-١٩٢٤	سنة ١٨٨٣	أحمد حافظ	٢
١٩٢٦-١٩٢٥	سنة ١٩٢٣-١٩٢٤	سنة ١٨٨٣	مصطفى اللبني	٣
١٩٢٦-١٩٢٥	سنة ١٩١١-١٩١٢	سنة ١٨٨٣	حسن أحمد	٤
١٩٢٦-١٩٢٥	سنة ١٩٢٣-١٩٢٤	سنة ١٨٨٣	مصطفى درويش	٥
١٩٢٦-١٩٢٥	سنة ١٩٢٣-١٩٢٤	سنة ١٨٨٣	محمد مسالح	٦
١٩٢٦-١٩٢٥	سنة ١٩٢٣-١٩٢٤	سنة ١٨٨٤	محمد السنباطي	٧
١٩٢٦-١٩٢٥	سنة ١٩٢٣-١٩٢٤	سنة ١٨٨٤	محمد حسن السيناك	٨
١٩٢٦-١٩٢٥	سنة ١٩١١	سنة ١٨٨٤	علي حسن	٩
١٩٢٦-١٩٢٥	سنة ١٩٢٣-١٩٢٤	سنة ١٨٩٠	حافظ محرم	١٠
١٩٢٦-١٩٢٥	سنة ١٩٢٣-١٩٢٤	سنة ١٨٩٠	محمد أحمد المطار	١١
١٩٢٦-١٩٢٥	سنة ١٩٢٣-١٩٢٤	سنة ١٨٩٠	أحمد أحمد الحلو	١٢
١٩٢٦-١٩٢٥	سنة ١٩٢٣-١٩٢٤	سنة ١٨٩٠	حسين محمد اللبني	١٣
١٩٢٦-١٩٢٥	سنة ١٩٢٣-١٩٢٤	سنة ١٨٩٠	محمد محمد الدجوي	١٤
١٩٢٦-١٩٢٥	سنة ١٩١٢-١٩١٣	سنة ١٨٩٢	محمد مرزوق	١٥
١٩٢٦-١٩٢٥	سنة ١٩٢٣-١٩٢٤	سنة ١٨٩٢	محمد مصطفى ربيع	١٦
١٩٢٦-١٩٢٥	سنة ١٩٢٣-١٩٢٤	سنة ١٨٩٢	إبراهيم الحجراتي	١٧
١٩٢٦-١٩٢٥	سنة ١٩٢٣-١٩٢٤	سنة ١٨٩٢	يوسف حسن	١٨
١٩٢٦-١٩٢٥	سنة ١٩٢٣-١٩٢٤	سنة ١٨٩٧	محمد حلي المزيحي	١٩
١٩٢٦-١٩٢٥	سنة ١٩٢٣-١٩٢٤	سنة ١٨٩٨	أحمد علي	٢٠

ملاحظات	تاريخ التغطية	تاريخ انتهاء	الاسم	مستلم
عاد الى العمل مع المتعهد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٦-١٩٢٥	سنة ١٩٢٤-١٩٢٣	سنة ١٩١٨	حسن عزت	٢١
عاد الى العمل مع المتعهد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٦-١٩٢٥	سنة ١٩٢٤-١٩٢٣	سنة ١٩١٨	محمد ربيع	٢٢
عاد الى العمل مع المتعهد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٦-١٩٢٥	سنة ١٩٢٤-١٩٢٣	سنة ١٩١٨	محمد فتوح	٢٣
عاد الى العمل مع المتعهد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٦-١٩٢٥	سنة ١٩٢٤-١٩٢٣	سنة ١٩١٨	محمد حسن ندا	٢٤
عاد الى العمل مع المتعهد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٦-١٩٢٥	سنة ١٩٢٤-١٩٢٣	سنة ١٩١٨	محمد زكي النجاري	٢٥
عاد الى العمل مع المتعهد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٦-١٩٢٥	سنة ١٩٢٤-١٩٢٣	سنة ١٩١٨	أحمد ندا	٢٦
عاد الى العمل مع المتعهد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٦-١٩٢٥	سنة ١٩٢٤-١٩٢٣	سنة ١٩١٨	حسن مصطفى	٢٧
عاد الى العمل مع المتعهد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٦-١٩٢٥	سنة ١٩٢٤-١٩٢٣	سنة ١٩١٨	محمد خلف	٢٨
عاد الى العمل مع المتعهد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٦-١٩٢٥	سنة ١٩٢٤-١٩٢٣	سنة ١٩١٨	محمد حسن ندا	٢٩
عاد الى العمل مع المتعهد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٦-١٩٢٥	سنة ١٩٢٤-١٩٢٣	سنة ١٩١٨	محمد فاهر	٣٠
عاد الى العمل مع المتعهد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٦-١٩٢٥	سنة ١٩٢٤-١٩٢٣	سنة ١٩١٨	حسن محمد المطار	٣١
عاد الى العمل مع المتعهد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٦-١٩٢٥	سنة ١٩٢٤-١٩٢٣	سنة ١٩١٨	مصطفى سادى	٣٢
عاد الى العمل مع المتعهد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٦-١٩٢٥	سنة ١٩٢٤-١٩٢٣	سنة ١٩١٨	عبد الحليم محمد	٣٣
عاد الى العمل مع المتعهد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٦-١٩٢٥	سنة ١٩٢٤-١٩٢٣	سنة ١٩١٨	على محترم	٣٤
عاد الى العمل مع المتعهد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٦-١٩٢٥	سنة ١٩٢٤-١٩٢٣	سنة ١٩١٨	محمد حسين الليثي	٣٥
عاد الى العمل مع المتعهد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٦-١٩٢٥	سنة ١٩٢٤-١٩٢٣	سنة ١٩١٨	على درويش	٣٦
عاد الى العمل مع المتعهد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٦-١٩٢٥	سنة ١٩٢٤-١٩٢٣	سنة ١٩١٨	محمود حسن محرم	٣٧
عاد الى العمل مع المتعهد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٦-١٩٢٥	سنة ١٩٢٤-١٩٢٣	سنة ١٩١٨	عبد السلام أحمد العلو	٣٨
عاد الى العمل مع المتعهد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٦-١٩٢٥	سنة ١٩٢٤-١٩٢٣	سنة ١٩١٨	محمود علي	٣٩
عاد الى العمل مع المتعهد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٦-١٩٢٥	سنة ١٩٢٤-١٩٢٣	سنة ١٩١٨	عبد السلام محرم	٤٠
عاد الى العمل مع المتعهد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٦-١٩٢٥	سنة ١٩٢٤-١٩٢٣	سنة ١٩١٨	على موزوق	٤١
عاد الى العمل مع المتعهد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٦-١٩٢٥	سنة ١٩٢٤-١٩٢٣	سنة ١٩١٨	عبد المجيد حافظ	٤٢
عاد الى العمل مع المتعهد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٦-١٩٢٥	سنة ١٩٢٤-١٩٢٣	سنة ١٩١٨		٤٣

ملاحظات	الاسم	تاريخ تسميته	تاريخ انطلاجه	عاد الى العمل مع المعهد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٦-١٩٢٥
٤٤	اسماعيل احمد	سنة ١٩٢٠	سنة ١٩٢٣-١٩٢٤	
٤٥	حسن عيسى	١٩٢٥-١٩٢٤	سنة ١٩٢٥-١٩٢٦	السنة الاولى مع المعهد والثانية مع المصلحة
٤٦	مل مختار المرحش	١٩٢٥-١٩٢٤	سنة ١٩٢٦-١٩٢٥	السنة الاولى مع المعهد والثانية مع المصلحة
٤٧	أحمد عبد القيس	١٩٢٥-١٩٢٤	سنة ١٩٢٣-١٩٢٥	السنة الاولى مع المعهد والثانية مع المصلحة
٤٨	عبد الرزاق محمد	١٩٢٥-١٩٢٤	سنة ١٩٢٦-١٩٢٥	السنة الاولى مع المعهد والثانية مع المصلحة
٤٩	سعيد أحمد أمين	١٩٢٥-١٩٢٤	سنة ١٩٢٦-١٩٢٥	السنة الاولى مع المعهد والثانية مع المصلحة
٥٠	يوسف اسماعيل أصيل	١٩٢٥-١٩٢٤	سنة ١٩٢٦-١٩٢٥	السنة الاولى مع المعهد والثانية مع المصلحة
٥١	عبد الحبيب محمد الجبر ككي	١٩٢٥-١٩٢٤	سنة ١٩٢٦-١٩٢٥	السنة الاولى مع المعهد والثانية مع المصلحة
٥٢	سعيد أحمد عبد الرحاب	١٩٢٥-١٩٢٤	سنة ١٩٢٦-١٩٢٥	السنة الاولى مع المعهد والثانية مع المصلحة
٥٣	عنان عبد الحبيب	١٩٢٥-١٩٢٤	سنة ١٩٢٦-١٩٢٥	السنة الاولى مع المعهد والثانية مع المصلحة
٥٤	بنوي محمود	١٩٢٥-١٩٢٤	سنة ١٩٢٦-١٩٢٥	السنة الاولى مع المعهد والثانية مع المصلحة
٥٥	محمد أحمد عابدين	١٩٢٥-١٩٢٤	سنة ١٩٢٦-١٩٢٥	السنة الاولى مع المعهد والثانية مع المصلحة
٥٦	أبراهيم سسلانية	١٩٢٥-١٩٢٤	سنة ١٩٢٦-١٩٢٥	السنة الاولى مع المعهد والثانية مع المصلحة
٥٧	مسيد عاشور	١٩٢٥-١٩٢٤	سنة ١٩٢٦-١٩٢٥	السنة الاولى مع المعهد والثانية مع المصلحة
٥٨	محمد رطاعي	١٩٢٥-١٩٢٤	سنة ١٩٢٦-١٩٢٥	السنة الاولى مع المعهد والثانية مع المصلحة
٥٩	محمد لؤاد	١٩٢٥-١٩٢٤	سنة ١٩٢٦-١٩٢٥	السنة الاولى مع المعهد والثانية مع المصلحة
٦٥	اسماعيل أحمد	١٩٢٠	سنة ١٩٢٣-١٩٢٤	عاد الى العمل مع المعهد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٦-١٩٢٥

ولقد برز في عهد الخديو (إسماعيل) من موظفي تشغيل وزركشة كسوة الكعبة الشريفة في عام ١٢٨٠ هجرية الموافق ١٨٦٤ ميلادية كل من :

١ - حسين فخرى جعفر : وكان يشغل منصب مأمور تشغيل الكسوة الشريفة ، وحصل على رتبة البكوية ، وهو ابن رئيس مجلس مدينة طنطا - أي طنطا - وهو الحاصل على رتبة الباشوية .

٢ - حسن محمد الهجين : متعهد تشغيل الكسوة الشريفة .

٣ - محمد محمد الشيخه : رئيس تشغيل الكسوة الشريفة .

٤ - علي محمد الهجين : فني زركشة .

٥ - مصطفى عبد اللطيف : فني زركشة .

٦ - سيد أحمد الخيمي : عامل .

وقد حضروا جميعاً وقائع تسليم كسوة الكعبة المشرفة في هذا العام إلى المحمل الحاج (أحمد مصطفى) كما هو ثابت بإشهاد الكسوة الشريفة .^(٣٧)

وعمرت دار كسوة الكعبة الشريفة بعمالها وفنييها في الزركشة ، وكان يكتب لها الخطوط كبار أئمة الخط في مصر ، وقد عُرف من هؤلاء :

١ - عبد الله زهدى : اشتهر بكتابة كساوى عديدة للكعبة المشرفة إلى جوار كتابة الحرمين وسبيل أم عباس بالصليبة بالقاهرة وتوفي عام ١٨٨٠ ميلادية الموافقة ١٢٩٦ هجرية .^(٣٨)

٢ - مصطفى الحريري : وتلمذ على يد (عبد الله زهدى) وكتب عدة كساوى للكعبة المشرفة .^(٣٩)

٣ - مصطفى غزلان : كان رئيس قسم التوقيع بديوان الملك (فؤاد الأول) وكتب عدة كساوى منها كسوة عام ١٣٥٥ هجرية .^(٤٠)

٤ - حسين أفتدى محمد الليثي : عمل رساما بدار الكسوة الشريفة ، وقام بعمل بعض الزخارف لها .^(٤١)

ومع مطلع القرن العشرين وحتى أواخره ظهرت أسماء عدة في إدارة دار كسوة الكعبة الشريفة بالخرنفس ، منها :

١ - عبد الله فائق إسماعيل إبراهيم : وكان يسكن في منطقة المحجر بالقلعة وظهر في احتفال الكسوة الشريفة في عام ١٩٠١ ميلادية الموافق ١٣١٨ هجرية ببدلة تشريفة كاملة ، وهى الزى الرسمي ، وأمتطى جواداً وعلى يديه المبسوطتين كان كيس مفتاح الكعبة المعظمة .^(٤٢)

وقام في هذا الحفل بقيادة جمل المحمل وقدم مقوده إلى الخديو ثم قاضى القضاة وبعض الحضور ليقبلوه جميعاً .^(٤٣)

ثم قام بتسليم زمام المحمل إلى الخديو الذى سلمه هو الآخر لأمير الحج .^(٤٤) وبقي (عبد الله فائق) مديراً للكسوة حتى ١٣٢٧ هجرية الموافق ١٩١٠ ميلادية . وقد وفد على دار الكسوة الشريفة مديرون عديدون أمثال (عبد الله بك)

قبل عام ١٩٤٨ ، و (محمد شلبي طوبار) سنة ١٩٤٨ ، و (محمد إبراهيم صالح) سنة ١٩٥٤ ، و (محمد مصطفى ناجي) سنة ١٩٦٥ ، و (سيد مصيلحي) سنة ١٩٨٥ . والذي مازال مديرها حتى وقت صدور هذا الكتاب في مايو ١٩٩١ ميلادية .

وبدار كسوة الكعبة المشرفة بالخرنقش نلمح على جدران حجرة مدير إدارتها الأستاذ (سيد مصيلحي) بعض شهادات تقديرية حصلت عليها الدار في عدة مهرجانات محلية وعالمية شهدت لها بالتفوق والالتقان والإبداع في أيام عزها الغابر .. !

ففي مارس سنة ١٩٢٦ حصلت دار الكسوة الشريفة من الجمعية الزراعية الملكية على شهادة تقدير والميدالية الذهبية للمعرض الزراعي والصناعي . وفي عام ١٩٣٠ حصلت على دبلوم التفوق من بلجيكا ، كما حصلت في عام ١٩٣١ على الجائزة الأولى من الجمعية الزراعية الملكية للمرة الثانية ، وفي عام ١٩٣٧ حصلت دار الكسوة الشريفة على شهادة تقديرية من فرنسا لاشتراكها في معرضها هناك . كل هذه الشهادات التقديرية ما هي إلا أصابع تشير إلى عظمة مجد دار الكسوة الشريفة الغابر ، والتي لو شاء لها القدر أن تشير مرة أخرى إلى حطها اليوم لارتفعت صوب السماء قائلة : « إنا لله وإنا إليه راجعون » .. !!

فلم يعد بالدار أحد ممن نسج مجدها ، وهجرها من أراد أن يتعلم هذه الحرفة ، وساعت وسائل الحفظ بها ، وبقيت الكسوة الوحيدة الأخيرة بها صريعة أنياب ومخالب الفئران التي ترعى فيها منذ عام ١٩٦١ كما يقول بذلك عم (محمد عودة) أمين مخزن الدار .

ولم يبق بدار الكسوة الشريفة سوى (كامل يوسف أصيل) ، البالغ من العمر ٥٣ سنة ، ينحني فوق المنسج ، وببيديه يمسك بخيوط المخيش فوق أقمشة كساوى بعض أضرحة الأولياء ، وبالطبع شتان ما بين عمل كسوة ضريح لولي وكسوة للكعبة المشرفة .. !!

في عام ١٩٨٨ كان بدار الكسوة الشريفة من عمال زركشتها كل من :

- ١ - أحمد سعيد عرقى - ٦٣ سنة
- ٢ - محمد سعيد عرقى - ٦٥ سنة
- ٣ - عبد المنعم يوسف أصيل - ٥٩ سنة
- ٤ - كامل يوسف أصيل - ٥٠ سنة

وكان قد سبقهم إلى المعاش (أحمد سعيد عبد الوهاب) ، ورجل (عبدالعزيز ندا) عن عالمنا إلى ربه ، كما رحل في عام ١٩٨٧ شيخ وأستاذ فن زركشة كسوة الكعبة المشرفة (محمد محمد سليمان خلف) ، والذي وصل به العمر إلى سن المائة ، أعطى خلال حياته كل خبرته للفن الذي عشقه وتعلمه من والده وجدته وهو فن زركشة كسوة الكعبة المشرفة ، وعلى الرغم من أنه لم يعلم أحداً من أولاده هذه المهنة ، إذ أنه لم يرزق سوى بابنة وحيدة إلا أن الجيل الأخير من

عمال زركشة كسوة الكعبة المشرفة يدينون له بالفضل لتعلمهم أصول فنهم على يديه ، كما علّم أجيالا سابقة لهم أيضا ، وقل حتى النفس الأخير محتفظا بالإبرة والكستبان والمقص وخيوط المخيش الفضية والمذهبة في منزله بمدينة نصر . وكان من الطبيعي ونحن نلم شتات هذا الفن العريق من أفواه من عاصروه أن نجلس إلى بعضهم ، ومنهم الحاج (محمد محمد سليمان خلف) ونستمع إليه عدة ساعات ، ولكن لأن مشيئة الله سبقت كل مشيئة فقد رحل هذا الأستاذ الفنان دون أن نأخذ منه ما يروى الظما إلا القليل النادر .

وعلى الرغم من تكرار زيارتنا لدار كسوة الكعبة الشريفة بالخرنفش على مدار سنوات عديدة للبحث والتنقيب بين أثارها وفنييها ، فلم نجد من الجيل الذي كان يقوم بعمل وزركشة كسوة الكعبة المشرفة سوى فرد واحد هو آخر الرجال المحترفين لزركشتها .. !

آخر الرجال المحترفين :

يعد الحاج (كامل محمد حسن أمين ندا) آخر الرجال المحترفين في عمل وزركشة كسوة الكعبة المشرفة . ويبلغ من العمر ٦٢ سنة ، وهو الآن بالمعاش ، غير أنه لم يترك خيوط المخيش حتى هذه اللحظة من يده ، حيث مازالت أصول الحرفة تلازمه ، وينصب في بيته بالإمام الشافعي منسجا ، يزركش عليه اللوحات القرآنية ، التي لا زال يطلبها منه عشاق هذا الفن والأثر الإسلامي العريق . كان والده يعمل بنفس الحرفة ، عامل زركشة بدار الكسوة الشريفة بالخرنفش ، وهذا الوالد ورث المهنة عن أبيه كذلك ، حيث كانت عائلة (ندا) من العائلات المشهورة في عمل وزركشة كسوة الكعبة الشريفة منذ أجيال وأجيال . وللحقيقة ، لم يكن الحاج (كامل) عندما كان صبيا في عام ١٩٤٧ يريد أن يعمل في مهنة أبيه التي ورثها عن الجدود ، فقد بهرته الوظيفة (الميرى) في سلاح المهمات مثل باقي أصحابه ممن كانوا في مثل سنه ، غير أن الحاج والده ونصحه له جعله يمثل في النهاية ويرضخ ، ويقبل العمل بدار الكسوة الشريفة على مضض ، لأن والده كان يعتقد أن العمل في زركشة كسوة الكعبة المشرفة يعد بركة لاتعدلها بركة ، وقد كان .

دخل الصبي الصغير (كامل) دار الكسوة الشريفة بالخرنفش في عام ١٩٤٧ ، فوجدها عامرة بالأسطوانات من كبار السن الذين برعوا في عمل الزركشة ، وكان بها نحو ستين من الفنيين وعمال الزركشة لقد وجد وقتها منهم : -

١ - الحاج / محمد محمد سليمان خلف - ٦٠ سنة

٢ - علي محرم - ٥٥ سنة

٣ - زكي الجابى - ٦٠ سنة

٤ - يوسف أصيل - ٤٠ سنة

٥ - أحمد ندا (عمه) - ٦٠ سنة



■ الحاج كامل محمد حسن أمين ندا آخر الرجال
المحترفين حينما كان يعمل بدار الكسوة في
السعودية عام ١٩٧٥ ميلادية ■

- ٦ - عبدالعزيز احمد ندا (ابن عمه) - ٣٥ سنة
- ٧ - عثمان القصبي - ٥٠ سنة
- ٨ - الأسطى باشا / محمد علي الملحي - ٦٠ سنة (٤٥)
- ٩ - محمد مرزوق - ٦٥ سنة
- ١٠ - مصطفى سامي - ٤٠ سنة
- ١١ - ماهر علي حسن - ٦٠ سنة
- ١٢ - عبد السلام محرم - ٤٠ سنة
- ١٣ - عبد الحليم احمد علي - ٥٠ سنة
- ١٤ - عبدالرازق محمود الجمركي - ٦٠ سنة
- ١٥ - عبدالحميد الجمركي - ٧٠ سنة
- ١٦ - سعيد عبدالوهاب - ٤٠ سنة
- ١٧ - احمد علي - ٦٠ سنة
- ١٨ - سعيد امين - ٤٢ سنة
- ١٩ - الحاج / حسن امين ندا (والده) - ٥٠ سنة
- ٢٠ - امين ندا - ٦٠ سنة
- ٢١ - محمد الدجوي - ٦٠ سنة
- ٢٢ - عبد السلام الحلو - ٥٠ سنة
- ٢٣ - اسماعيل الحلو - ٦٠ سنة
- ٢٤ - عبد المجيد حافظ - ٤٠ سنة
- ٢٥ - فؤاد عبد المجيد - ٤٠ سنة
- ٢٦ - ابراهيم سلامة - ٥٠ سنة

اكتسب الحاج (كامل) اصول الصنعة بالصبر والمثابرة إلى أن أصبح ممن يتميزون بالدقة والمهارة في عمل كسوى الكعبة الشريفة التي عملت وزكشت بالدار مع قدوم كل عام .

ذات يوم من أيام عام ١٩٧٤ ، أراد أن يؤدي فريضة الحج ، فذهب إلى الأراضي الحجازية لتأدية الفريضة على نفقة رئاسة الجمهورية ، واثناء طوافه ببیت الله الحرام لم ينس مهنته في عمل زركشة كسوة الكعبة الشريفة ، فقد لاحظ أن الكسوة الشريفة التي قامت بصنعها الملكة العربية السعودية بها أخطاء فنية لا ترضيه كاسطى متمرس في مهنة زركشة الكسوة المشرفة ، فعلى حد تعبيره لاحظ أن (الشغل راكب فوق بعضه) ، بحيث تبدو الآيات غير مصفوفة كما كانت اصول الحرفة تقتضيها ، ولم يملك من الأمر شيئاً وقتها سوى أن يعود إلى مصر بعد أن أدى فريضة الحج ، ويلوذ بالصمت ..

في مصر أخذ الحاج (كامل) يفكر في كيفية تصحيح هذا الخطا الفني ، فتقدم لأداء العمرة على نفقته الخاصة ، وسافر إلى الأراضي الحجازية ، وهناك قابل المسؤولين عن دار الكسوة السعودية ، وشرح لهم وجهة نظره ، ولم يقف الأمر

عند حدود النقد للكشف والتبصير بالعيوب في الكسوة التي رآها ، بل أراهم بعض نماذج من غسل الكسوة التي كان قد اصطحبها معه ويحتفظ بها ، وأراهم كذلك بعض نماذج من لوحاته الفنية التي كان قد اشتغلها بخيوط المخيش الذهبية والفضية ، وجلس الحاج (كامل) قبلاً كبار الفنانين السعوديين ، يسألونه وهو يجيب ، مراراً وتكراراً ، ثم قرروا في النهاية التعاقد معه نظير مبلغ ٢٥٠٠ ريالاً سعودياً شهرياً ، وتسلم الحاج (كامل) العمل هناك ليعلم ٤٠ فرداً سعودياً أصول المهنة بيديه ، ثم شارك بيديه في عمل كسوتين للكعبة المشرفة في دار الكسوة الشريفة بالسعودية في عامي ١٩٧٥ و ١٩٧٦ ميلادية ، وهما العامان اللذان عمل فيهما هناك .

عمل الحاج (كامل) وهو في السعودية لوحات « يا حي يا قيوم » و « يارحمن يارحيم » التي توضع في أركان كسوة الكعبة المشرفة ، وكذلك لفظ الجلالة ، وكان يبيع للتجار ولعمل دار الكسوة السعودية أنفسهم نتائج عمل يديه . وكان ربحه من هذا النتاج وفيراً ، وصدق معه نصيح والده الذي أسداه إليه في بداية حياته ، في أن العمل في زركشة الكسوة الشريفة بركة لا تعدلها بركة لاي شيء آخر .

لم يتعلم أحد من أولاد الحاج (كامل) مهنته لصعوبتها ، وحدث أن عين في معهد طرة الصناعي سنة ١٩٧٠ ميلادية لتدريب مجموعة من الصبية على عمل زركشة الكسوة الشريفة ، واستمر أربع سنوات قام خلالها بتدريب أحد عشر صبياً ، ولكن - للأسف - لم يستمروا في هذه المهنة لعدم امكانية تعيينهم عمال زركشة بوزارة الأوقاف .. !

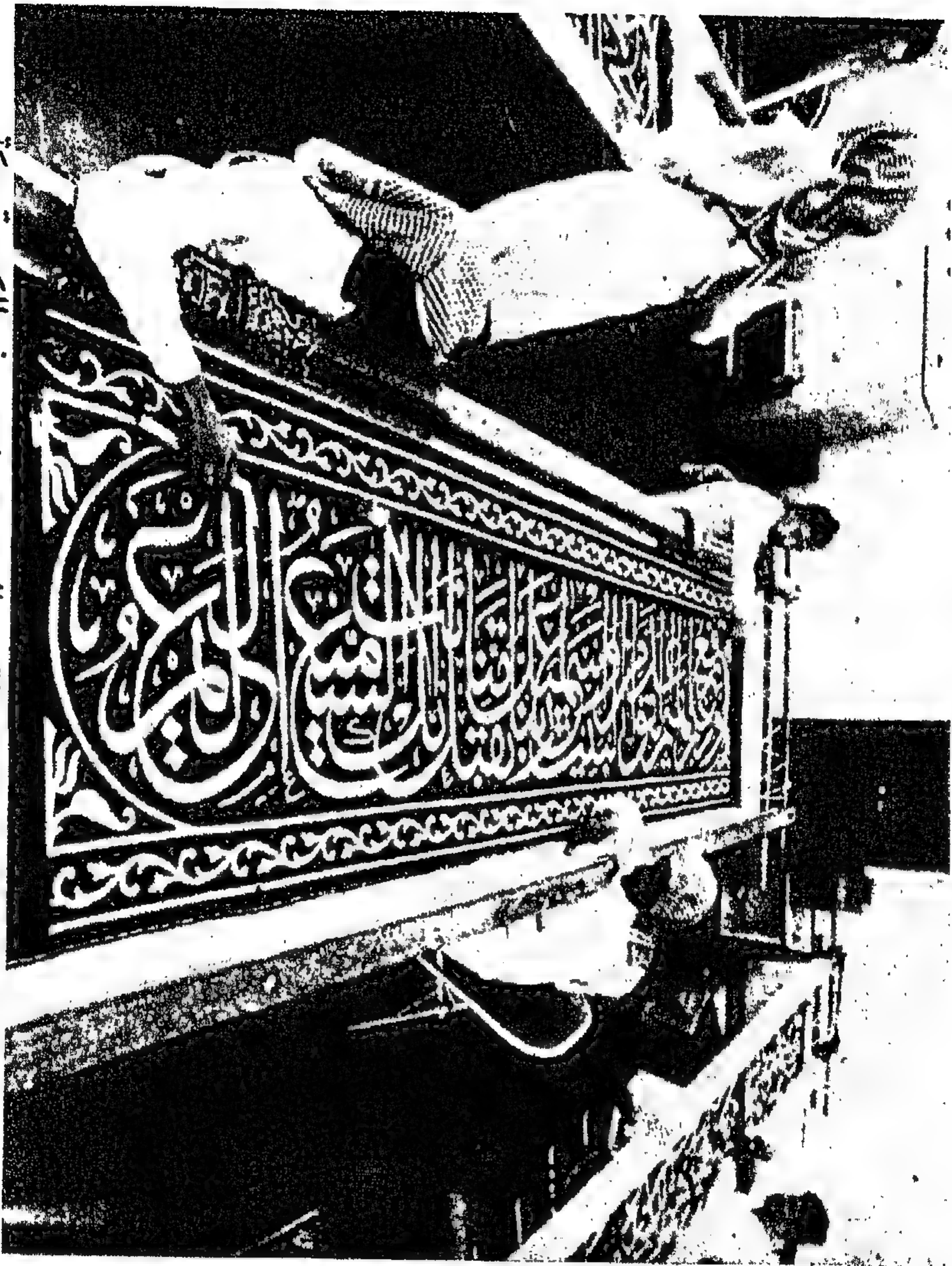
وعلى الرغم من ذلك ، ويرغم ضياع حملة هذا التراث الإسلامي العريق ، فإن الحاج (كامل محمد حسن أمين ندا) لم يفقد كل الأمل ، ويبحث حالياً أسرار هذه المهنة المباركة لحفيده الصغير (كامل حسن كامل محمد حسن أمين ندا) ذي السنوات الأربع عشرة ، وهو الطالب المتفوق الآن في مدرسته الإعدادية ، لعل هذا الفن الإسلامي العريق والأصيل تظل جذوته متقدة ، ولا ينطفئ له مشعل مضى أبداً .. !

دار كسوة الكعبة المشرفة بأجياد بالسعودية :

حينما اشتدت الخلافات السياسية بين مصر والمملكة العربية السعودية ، وتكررت مراراً وتكراراً عدت الحكومة السعودية إلى إنشاء دار لكسوة الكعبة المشرفة بها . ولقد وصل أمر هذه الخلافات إلى حد كبير ، حتى عام ١٣٨٠ هجرية الموافق ١٩٦١ ميلادية ، فكان هذا العلم شاهداً على آخر كسوة للكعبة المشرفة أرسلتها مصر ، وقد عادت إلى القاهرة دون أن تقوم مصر بكساء بيت الله الحرام . ولأن الخلافات بين مصر وحكومة المملكة العربية السعودية تكررت فيما قبل كثيراً فقد فكر المسئولون السعوديون في عمل دار لكسوة الكعبة الشريفة



الحاج محمد حسن أمين ندا يعمل الرزكشة بدار كسوة الكعبة الشريفة بالخزنفش
بالقاهرة عام ١٩٤٧



■ فنيو زركشة كسوة الكعبة المشرفة من السعوديين بصنع الكسوة بمكة
■ المعرّمة ■

بالسعودية ، حتى لا يتعرض بيت الله الحرام لأهواء الساسة ، ويكون حينئذ
مصير كسوته رهين بالوفلق أو الخلاف فيما بينهم .

قام الملك (عبدالعزیز آل سعود) بإصدار أوامره في أوائل المحرم سنة
١٣٤٦ هجرية الموافقة ١٩٢٧ ميلادية إلى الشيخ (عبدالله السليمان) وزير
المالية ، وأمر ابنه (فيصل) أن يشرف هو بنفسه مع وزير المالية على إنشاء
مصنع لعمل وزركشة كسوة الكعبة المشرفة ، فاختاراً مكاناً له يقع أمام مبنى وزارة
المالية بحى جيد مساحته ١٥٠٠ متراً ، وجهازه بالأدوات اللازمة ، والعمال
الهنود ، وجعلاً (عبدالرحمن مظهر) رئيس مطوئى حجاج الهند يشغل منصب
مدير مصنع الكسوة المشرفة ، وأضيف إليهم بضعة عشر من العمال
السعوديين .^(٤٦)

بعد أن قام الشيخ (عبدالرحمن مظهر) بإدارة المصنع استقال سنة
١٣٤٧ هجرية ، فأسندت الإدارة إلى الحاج (محمد خان) حتى سنة
١٣٥٢ هجرية ، حيث غادر المصنع الهنود وتولى السعوديون أمر المصنع تحت
إدارة الشيخ (احمد سالم الجوهرى) ، وفى هذه السنة كسيت الكعبة المشرفة
بأول كسوة صنعتها الأيدى السعودية فى مكة المكرمة .

كان يكتب خطوط الكسوة فى السعودية الأستاذ (محمد أديب) ، وبعد وفاته
صار الشيخ السعودى (عبدالرحيم بخارى) هو الذى يتولى أمور الخط
والزخرفة والفنون الأخرى .

دار كسوة الكعبة المشرفة بإم الجود بمكة :

أنشأت حكومة المملكة العربية السعودية بمنطقة (أم الجود) بمكة مصنعا
جديداً فى يوم السبت السابع من ربيع الآخر سنة ١٣٩٧ هجرية الموافق ٢٦ مارس
سنة ١٩٧٧ ، رغبة فى التطوير ومسيرة التقدم فى الوسائل والأدوات
الحديثة .^(٤٧)

وعلى الرغم من أسلوب الميكنة الحديث رأى عدم الاستغناء عن أسلوب الإنتاج
اليدوى لما له من قيمة فنية عالية .

ويضم هذا المصنع قسماً للنسيج اليدوى وآخر للنسيج الآلى ، وقسم للتصميم
لدراسة الزخارف والخطوط فى الفن الإسلامى والاستفادة منها فى وضع تصميمات
مدروسة . ويوجد قسم للطباعة مزود بالناسج والشبلونات أو الشاشات
الحريرية ، وبالمصنع قسم للصبغة ، حيث تصبغ الأقمشة فيه باللون الأسود
لكسوة الكعبة الخارجية وباللون الأخضر الداخلى ، والأحمر الداكن بالنسبة
لحزام الغرفة النبوية الشريفة ، كما تصبغ الخيوط القطنية المستخدمة كحشو أو
كتطريز مبدئى باللون الأصفر .^(٤٨)

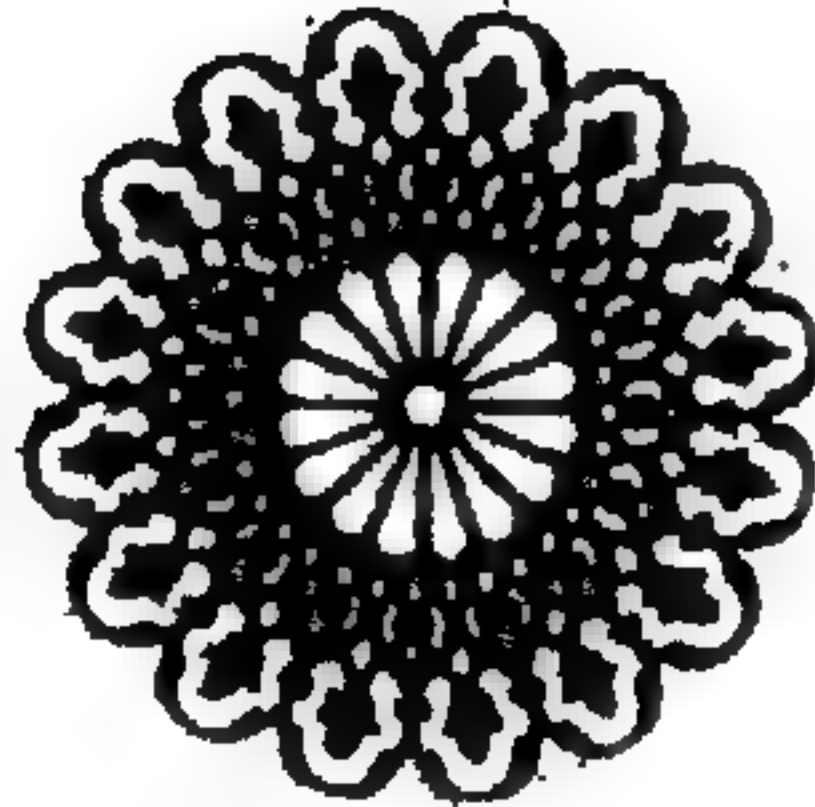
وبالمصنع قسم كبير للزركشة اليدوية وبه مجموعة كبيرة من العمال
السعوديين .

الهوامش والمراجع

- (١) القلقشندى - « صبح الأعشى » - ص ٥٧ ج ٤
- (٢) المرجع السابق - ص ٤٢٥ ج ١١
- (٣) المقرئى - « كتاب السلوك » - ص ١٩٥ ج ٢ ق ١
- (٤) ابن إيس - « بدائع الزهور » - ص ٤٤٤ ج ١ ق ١
- (٥) المرجع السابق - ص ٤٥٠ ج ١ ق ١ ، ص ٤٥٢ ج ١ ق ١
- (٦) المرجع السابق - ص ٤٥٣ ج ١ ق ١
- (٧) د. أحمد السعيد سليمان - « تاصيل ماورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل » - ص ١٥
- (٨) ابن إيس - « بدائع الزهور » - ص ٤٧٤ ج ١ ق ٢
- (٩) المرجع السابق - ص ٤٤٧ ج ١ ق ٢
- (١٠) المرجع السابق - ص ٧٤ ج ٢
- (١١) المقرئى - « كتاب السلوك » - ص ٦١٤ ج ٤ ق ٢
- (١٢) ابن إيس - « بدائع الزهور » - ص ٣٣٠ ج ٢
- (١٣) المرجع السابق - ص ٣٣٥ ج ٢
- (١٤) المرجع السابق - ص ٣٥ ج ٤
- (١٥) المرجع السابق - ص ١٠٤ ج ٤
- (١٦) المرجع السابق - ص ١٢٧ ج ٤
- (١٧) المرجع السابق - ص ٣٤٣ ج ٤
- (١٨) المرجع السابق - ص ٢٠٩ ج ٥
- (١٩) يوسف أحمد - « المحمل والحج » - ص ٢٧٧ ج ١
- (٢٠) المقرئى - « خطط المقرئى » - ص ٤٢ ج ٣
- (٢١) عبد الغنى النابلسى - « الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز » - ص ٢٤٩ - الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٦
- (٢٢) أيمن فؤاد سيد - « وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل » لجومار - هامش ص ٢٣١ - مكتبة الخانجي بـ القاهرة ١٩٨٨
- (٢٣) الجبرتي - « عجائب الآثار » - ص ٦٢٤ ج ١
- (٢٤) المرجع السابق - ص ٥٦ ج ٢
- (٢٥) المرجع السابق - ص ٢٥٩ ج ٢
- (٢٦) المرجع السابق - ص ٢٦٦ ج ٢
- (٢٧) المرجع السابق - ص ٢٦٨ ج ٢
- (٢٨) المرجع السابق - ص ٣٣ ج ٣
- (٢٩) علي باشا مبارك - « الخطط التوفيقية » - ص ١٠٦ ج ٢ - الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٢
- (٣٠) المقرئى - « خطط المقرئى » - ص ٣٧٥ ج ٢
- (٣١) المرجع السابق - ص ٣٨٧ ج ٢
- (٣٢) الجبرتي - « عجائب الآثار » - ص ٥٨٣ ج ٣

- (٣٣) على باشا مبارك - « الخطط التوفيقية » - ص ١٣٨ ج ٣
- (٣٤) كلوت بك - « لحة عامة إلى مصر » - ص ٣٤ ج ٤ - ترجمة محمود مسعود - « دار الموقف العربي » - بدون تاريخ .
- (٣٥) عبدالرحمن الرافعي - « عصر محمد علي » - ص ٤٩٩ - دار المعارف ١٩٨٢
- (٣٦) روى لنا ذلك الحاج (كامل حسن ندا) ، أحد عمال زركشة كسوة الكعبة المشرفة بمنزله بالإمام الشافعي بالقاهرة في يوم الثلاثاء ١٢ / ٧ / ١٩٨٨ .
- (٣٧) محمد صالح الشيببي - « إعلام الأنام بتاريخ بيت الله الحرام » - ص ٢٩٨
- (٣٨) يوسف أحمد - « المحمل والحج » - ص ٨٠ ، ٨١ ، ٨٤ ، ١٥٧ ج ١
- (٣٩) المرجع السابق - ص ٨٠ ، ٢٦٩ ج ١
- (٤٠) المرجع السابق - ص ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٣ ج ١
- (٤١) المرجع السابق - هاشم ص ٢٦٥ ج ١
- (٤٢) اللواء / إبراهيم رفعت باشا - « مرآة الحرمين » - ص ١٠ ج ١
- (٤٣) المرجع السابق - ص ١١ ج ١
- (٤٤) المرجع السابق - ص ١٢ ج ١
- (٤٥) الأسطى باشا : هو رئيس عمال زركشة كسوة الكعبة المشرفة ، وكان يمثل شيخ الصنعة بالنسبة لهم ، ومن هؤلاء الذين شغلوا هذا المنصب في الزمن القديم كان (علي حسن) في عام ١٨٨٤ ميلادية ، ومن قبله كان (محمد محمد الشيخة) في عام ١٨٦٤ ميلادية .
- (٤٦) أحمد عبد الغفور عطار - « الكعبة والكسوة منذ أربعة آلاف سنة حتى اليوم » - ص ١٧١ - مطابع مكة المكرمة ١٩٧٧ ، يوسف أحمد - « المحمل والحج » - ص ٢٦٣ ج ١
- (٤٧) المرجع السابق - ص ١٨٧
- (٤٨) مجلة الفيصل - بدون اسم - ص ٦٤ - العدد ١٢٦ - ذو الحجة ١٤٠٧ هجرية (أغسطس ١٩٨٧) - دار الفيصل الثقافية بالرياض .

□ □ □





كسوة الكعبة المشرفة

بين بركتها وسرقتها !

التعلق بأستار الكعبة المشرفة :

منذ وضع اللبنة الأولى لبناء الكعبة المشرفة ، وهي تحظى بقداسة خاصة داخل قلوب خاشعة تهاب عندها الحضرة الالهية ، وتنهل من معين نورها الوضاء قبسا يضيء جنبات طريق الحياة ، بنفحة علوية طاهرة زكية ، يتلهفها الطائفون حولها والعاكفون والركع السجود في رحابها النورانية ، وكذلك من بعدت بهم عنها المسافات .

وعبر الأزمان ، كان من اسلموا زمام أمورهم الى الله تهوى قلوبهم الى أستار الكعبة المشرفة يدعون ويتمنون ، ويطلبون ، ويرتجون مغفرة ورحمة واثابة وفضلا من عند من عنده حسن الثواب .

قيل : ان (لقمان بن عاد) تعلق بأستار الكعبة المشرفة وتمنى . وكانت أميته صعبة المنال وابتهاالاته بالغة الحرارة . قال : « اللهم يا رب البحار الخضراء والأرض ذات النبت بعد القطر امتحنى عمرا فوق كل العمر »^(١) . وعاش (لقمان) حياة سبعة تسور ، والنسر يعيش عادة حوالي الثمانين عاما ، فيصبح عمر (لقمان) ٥٦٠ عاما ، وقيل خمسمائة عام ، وقيل ألف عام ، وقيل ثلاثة آلاف عام^(٢) .

ورغم الاختلاف في تحديد عدد السنين التي عاشها (لقمان) الحكيم إلا ان هناك اتفاقا عاما بان دعاء (لقمان) الحكيم عند تعلقه بأستار الكعبة كان من نتاجه فوزه بالعمر المديد .

وعندما اشرق نور الاسلام على الانسانية ، وجاء (محمد بن عبدالله) الرسول المصطفى بخاتم الرسالات السماوية وجاهد في سبيلها ، وهاجر ، وعاد فأتاحا أم القرى (مكة) كان من شروط الصلح بينه واهل مكة ان من تعلق بأستار الكعبة فهو آمن^(٣) .

وفي العصر الأموي شاعت قصة مجنون ليلى (قيس بن الملوّح) وتشبيهه وهيامه بليلى ، وعندما زوجها أبوها باخر جئ وزال عقله جملة ، فقيل لأبيه : لحجج به الى مكة وادع الله عز وجل له ، ومُره ان يتعلق بأستار الكعبة ، فحجج به أبوه ، ثم قال له : تعلق بأستار الكعبة واسأل الله ان يعافيك من حب ليلى ، فتعلق بأستار الكعبة وقال : اللهم زدنى ليلي حبا وبها كلفا ولا تنسنى ذكرها أبدا . فهام حينئذ واختلط عقله فلم يشف من حبها^(٤) .

وفي سنة ١٠٨ هجرية ، أيام خلافة الخليفة العباسي (أبي جعفر المنصور) أرسل طائفة من جنوده يقال لهم الخشاب لصلب (سفيان الثوري) وتعليقه على الأخشاب التي يتصبونها لذلك بالمسجد الحرام ، قبل دخول الخليفة العباسي الى مكة ليمر من تحته وهو مصلوب ، في طريقه بالركب للحج ، فلما جاءوا ، ونصبوا الخشب لتعليقه نودي يا سفيان ان امير المؤمنين امر بقتلك وتعليقك ، فإذا راسه في حجر (الفضيل بن عياض) ورجلاه في حجر (سفيان ابن عيينه) ، فقالوا له : يا ابا عبدالله ، اتق الله فينا ولا تشمت بنا الأعداء ، فقام رضى الله عنه ، وتقدم الى استار الكعبة وتعلق بها ، وقال : برئت منك ، ان دخلك ابو جعفر ، فاستجاب الله تعالى دعاه ، ولم يدخلها ، ومات (ابو جعفر المنصور) قبل دخوله مكة بمكان يقال له بئر (ميمون) ، حيث كبابه فرسة فوق وقع ومات لساعته وحمل ميتا إلى مكة ودفن بالمعلاة .^(٥)

ومن الرحالة العرب الجوالين الذين قاموا بالتعلق باستار الكعبة عند قيامهم بتأدية فريضة الحج (ابن جبير) و (ابن بطوطة) وذلك في موضع محدد وقف فيه كليهما ، على الرغم من الفاصل الزمني الكبير الذي فصل بينهما ، إذ ادى الاول فريضة الحج في عام ٥٧٩ هجرية ، في حين اداها الآخر في عام ٧٢٤ هجرية . قال (ابن جبير) يصف ذلك : « .. فطفنا طواف القدوم ، ثم صلينا بالمقام الكريم ، وتعلقنا باستار الكعبة عند الملتزم - وهو بين الحجر الاسود والباب ، وهو موضع استجابة الدعوة »^(٦)

وتفس الفعل فعله (ابن بطوطة) حيث قال : « وطفنا بها طواف القدوم ، واستلمنا الحجر الكريم ، وصلينا ركعتين بمقام ابراهيم ، وتعلقنا باستار الكعبة عند الملتزم ، بين الباب والحجر الاسود ، حيث يستجاب الدعاء »^(٧) وفي العصر الحديث روى اللواء / ابراهيم رفعت باشا في اثناء تأديته لفريضة الحج عام ١٣١٨ هجرية الموافق ١٩٠١ ميلادية انه قال بعد طوافه : « اتينا الملتزم ، وهو ما بين باب الكعبة والحجر الاسود في الجهة الشرقية ، ووضعنا عليه صدورنا وتعلقنا باستار الكعبة وابتهلنا الى الله ان يعافينا في ديننا ودنيانا ، وقلنا ما خطر بنفوسنا من الرغبات الصالحة والأمانى المشروعة »^(٨)

ومن خلال جملة ما استعرضناه من حوادث تاريخية يتضح لنا اهمية التعلق باستار الكعبة المشرفة عند المسلمين ، بل خصص مكان محدد عند استار الكعبة ، وهو عند الملتزم ، على حد قول (ابن جبير) و (ابن بطوطة) في حجيتهما لاستجابة دعاء الداعين .

وعلى النقيض من ذلك سل البعض سيوفه ليحصد رقاب المتعلقين باستار الكعبة المشرفة في الهجمة البربرية للقرامطة على بيت الله الحرام وعلى حجاجه فعن (ابي بكر عمر بن علي بن القاسم الذهبي) ، عن (عبيد البكري) في كتابه « المسالك والممالك » - انه قال : ان (ابا طاهر القرمطي) وافي مكة يوم الاثنين

لسبع خلون من ذى الحجة سنة ٧١٠ هجرية رجل من أصحابه فقتل في المسجد الحرام نحو ١٧٠٠ من الرجال والنساء وهم متعلقون باستار الكعبة (٩) وأعاد القرامطة فعلتهم مرة ثانية في عام ٣١٧ هجرية بقيادة كبيرهم (أبي طاهر القرمطي) وقتلوا ممن تعلقوا باستار الكعبة نحو ألف وسبعمائة آخرين ، وقيل ثلاثة عشر ألفا من الرجال والنساء وهم متعلقون باستار الكعبة (١٠)

سرقة كسوة الكعبة المشرفة :

تعرضت كسوة الكعبة المشرفة الى سرقات عديدة على مدار الزمن ، وطمع فيها الطامعون فاستباحوا حرمتها وسرقوها .

من ذلك ما حدث في عام ٢٠٠ هجرية أيام الدولة العباسية في خلافة الخليفة (المأمون بن هارون الرشيد) حيث قطع (العقيلي) وجنده بتحريض من والي اليمن الطريق على قافلة الحجيج ومعهم كسوة الكعبة المشرفة وطيبها ، فأخذوا أموال التجار والكسوة والطيب . وقدم الحجاج مكة عراة منهوبين ، غير أن أمير الحج ستر خلفهم من يطاردهم ويرد ما سلبوه منهم ليعودوا مكملين بالخزى الى اليمن (١١)

ولقد كان من نتائج الهجمة البربرية للقرامطة في عام ٣١٧ هجرية أن سرقوا الحجر الأسود وكسوة الكعبة المشرفة وباب البيت الحرام وقد أعيد الحجر الأسود بعد ثمانى عشرة سنة ولم تعد كسوة الكعبة المشرفة بعد أن فرقها (أبو طاهر القرمطي) بين أصحابه قطعا من قطع الغنائم !!..

وفي عام ٣٨٧ هجرية أيام خلافة (الحاكم بأمر الله) الفاطمي نهب جماعة من العربان كسوة الكعبة المشرفة وهي في الطريق اليها ، ويقول (ابن آيس) معقبا على ذلك : « فكسيت الكعبة في تلك السنة الشنفاص الأبيض ، وهذا من الغرائب ، فإن الكعبة ما كسيت شنفاص قط إلا في زمن الحاكم » (١٢)

ومما رواه (عبدالقادر الانصارى الجزيرى) أثناء رحلته الى الأراضى الحجازية عام ٩٦٠ هجرية لتأدية فريضة الحج أن حدث ازدحام شديد عند نقب عقبة أيلة بسيناء نتج عنه ضياع جمل بحمله من كسوة الكعبة المشرفة ، وأخذته عربان بنى عطية سرقة واختلاسا ولم يشعر به أحد من ركب قافلة الحجيج ، قال وهو يروى هذه الواقعة : « .. وشرعنا في الفحص عنه بين عربان الدرك ، الى أن يسر الله تعالى بوجوده بعد أن ظنه عربان بنى عطية أنه من جنس الخيام فدفنوه في الرمل ، ولما أحضروه وجدنا ضمنه شقتين بطرازهما المذهب المخايش ، ولم يحصل فيهما أدنى ضرر ، فحمدنا الله على وجوده » (١٣)

ونلاحظ أن هذه النماذج البشرية التي تطاولت وسطت بالزور والبهتان على كساء بيت الله الحرام ، عبر تاريخه الحافل ، ما هي إلا أنماط من مخالب وأنياب

حاقدة أو مونتورة أو زمرة جهلاء عاشوا على هامش الزمن وخارج دائرة الإدراك والوعى ، يدبون على رمال الصحراء كما تدب بعيرهم سواء بسواء بلا أدنى تفرقة .

التبرك بكسوة الكعبة المشرفة :

يتبرك العديد من المسلمين في جميع مشارق الأرض ومغاربها بكسوة الكعبة المشرفة ، وبعضهم يحتفظ بقطع منها كاملة أو بعض جزازات صغيرة ، في منازلهم كاعز ما يملكون من مقتنيات مقدسة ومحبة إلى نفوسهم . ومسألة التبرك بقطع من كسوة الكعبة المشرفة ليس وليدة العصور الحديثة أو القريية العهد منا ، بل هي قديمة منذ عهد الفاروق (عمر بن الخطاب) - رضى الله عنه - فكان ينزع كسوة الكعبة المشرفة كل سنة ، ويستبدل بها أخرى جديدة ، ويقسم الأولى بين الحجاج .^(١٤)

وقد قام (شيبه بن عثمان) سادن الكعبة أيام خلافة (معاوية بن أبى سفيان) بتقسيم كسوات الكعبة المشرفة القديمة بين أهل مكة ، بعد لباسها ما جهزه لها الخليفة الأموى الأول من كساء جديد .

ومن ثم أصبحت عادة أن يتم تفريق كساء الكعبة المشرفة القديم بين الحجاج . وقيل أن أم المؤمنين (عائشة بنت أبى بكر) - رضى الله عنها - أفتت ببيعها والتصرف فيها وجواز لبسها للحائض والجنب ، حيث قالت : « دخل على شيبه الحجبى فقال : يا أم المؤمنين . إن ثياب الكعبة تجتمع عندنا فتكثر ، فننزعها ونحفر بئرا فتعمقها ، وندفنها لكى لا تلبسها الحائض والجنب ، قالت : « بئس ما صنعت ، ولكن بعها ، فاجعل ثمنها فى سبيل الله وفى المساكين ، فإنها إذا نزعنا عنها لم يضر من لبسها من حائض أو جنب » فكان (شيبه) يبعث بها إلى اليمن فتباع له فيضعها حيث أمرته .^(١٥)

وأجاز (ابن عباس) - رضى الله عنهما - بيع كسوة الكعبة المشرفة .^(١٦) وقد اختلف العلماء فى الحكم على ذلك ، فأجاز بعضهم لولاة الأمر بيع ما خلف من الكسوة ليستعينوا به فى أمر الكعبة المشرفة .

وقال البعض الآخر : « إن كان شئ له ثمن لا يجوز أخذه ، وإن لم يكن فلا بأس » .

وقال (نجم الدين الطرسوسى) شعرا فى ذلك :

وما على الكعبة من لباس إن رث جاز بيعه للناس
ولا يجوز أخذه بلا شرا للأغنيا ولا للفقراء

وقال (ابن فضل الله) فى كتابه « مسالك الأبصار » : وفى سنة ٧٣٨ توليت خلع الكسوة العتيقة ، وحملت إلى السلطان بمصر ، لتجهز إلى السلطان (أبى الحسن المرينى) ملك الغرب ، مع ما يجهز عوض هدية بعثها فى هذه السنة صحبة

« مريم » زوجة أبيه ، وجماعة من اكابر دولته ، وعوض بنو شيبه والاشراف عنها من بيت المال بمصر .^(١٧)

ونذكر لنا (جيراردى نرفال) الرحالة الفرنسى فى عهد (محمد على) ان الباشا - محمد على - تلقى واسرته كسوة الكعبة المشرفة ، وماء بئر زمزم وبعض اشياء تتعلق بالحج عند عودة المحمل المصرى من الاراضى الحجازية ، وقد عرض هذه الكسوة على الشعب على باب مسجد صغير يقع خلف القصر الخاص به فى القلعة .^(١٨)

اما الرحالة الانجليزى (ادوارد وليم لين) فقد لاحظ فى النصف الاول من القرن التاسع عشر ، ايام حكم (محمد على) ان الحجاج المصريين العائدين كان بعضهم حريصا على اجتلاب قطع من كسوة الكعبة المشرفة للتبرك بها مع اشياء اخرى جلبت معها .

وذهب (لين) الى مسجد سيدنا الحسين لفحص كسوة الكعبة المشرفة التى جلبها المحمل المصرى ، وسُمِّحَ له بمسكها بيده حسب رغبته ، وقال : « وقد اعطيت هدية صغيرة لهذا الامتياز ، ومقابل قطعة زائدة من الكسوة طولها شبر وعرضها كذلك تقريبا ، كنت قد طلبتها » .^(١٩)

ولم تكن هذه القطعة هى الوحيدة التى اقتناها (لين) بل حصل على قطعة اخرى ، قال عنها : « وقد امكنتنى فيما بعد ان ازيد ما عندى من تحف عن مكة ، ومن ذلك قطعة من ستار الكعبة احضرها الشيخ (ابراهيم بوركهارت) من مكة واعطانى اياها وريثه عثمان » .^(٢٠)

وفى اوائل هذا القرن العشرين سجّل اللواء (ابراهيم رفعت باشا) مقدار شغف المصريين بتبركهم بكسوة الكعبة المشرفة ، وذلك عام ١٢٢٥ هجرية الموافق ١٩٠٨ ميلادية ، وكانت هذه الكسوة جديدة ، وفى انتظار ارسالها مع قافلة الحجاج الى بيت الله الحرام ، قال تحت عنوان (الكسوة بالمسجد الحسينى) اثناء تجهيزها : « تبقى الكسوة بالمسجد حوالى نصف شهر فى خلاله يخاط بعض قطعها ببعض ، لأنها تصنع قطعاً كثيرة ، ويحضر كثير من سكان القاهرة ليتبركوا بها ، ويرى نفسه سعيداً من يخط جزءاً منها ، ويتسابق الناس فى تقديم النذور والعطايا الى المنوطين بخياطتها ، وقد سمعت انه لا يسمح لبعض المتبركين بمسّ الكسوة إلا نظير جعل يدفعونه » .^(٢١)

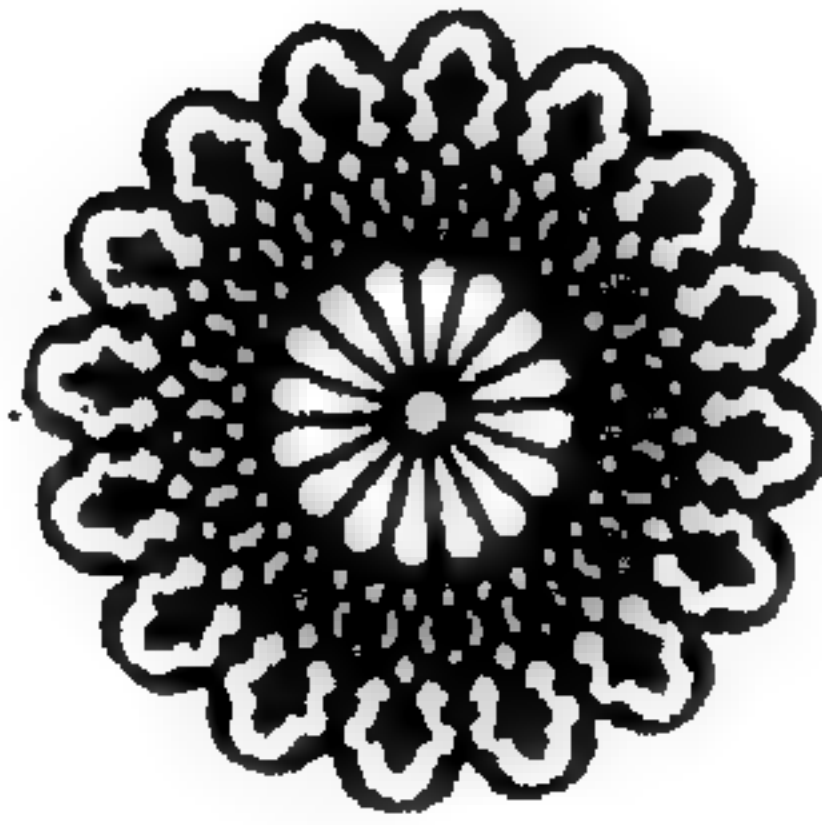
اما التبرك بمقام الخليل (ابراهيم) - عليه السلام - والذى يحوى اثر القدمين ، فإن اللواء (ابراهيم رفعت باشا) قومندان حرس المحمل المصرى فى عام ١٣١٨ هجرية الموافق ١٩٠١ ميلادية ، وأمير الحج ثلاث مرات فى سنوات اخرى يروى عن نفسه حادثة التبرك فيقول : « .. ودخلت الى المقصورة مع المطوف ، فوضع من ماء زمزم على اثر القدمين ، وشربنا منه فى حجتنا هذه سنة ١٣١٨ هجرية . وكان خليفابى وبالمطوف ان نتجنب التبرك بالآثار ، والشرب من

مواظيء الأقدام ، وإن ندع هذه البدعة جانبا ولا نفعل عند هذا الأثر سوى ما فعله رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الصلاة عنده امتثالاً لأمر الله تعالى (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) ، ولكنى كنت فى هذا الوقت لم تنضج معلوماتى الدينية فى الحج ومشاعره ، ولم أكن وقفت تماماً على تأثير البدع السيئة فى الدين ، وقد دعانى الاتصال الى ذكر الواقع ، ودعانى البصر بالدين الى انكار ما حصل .(٢٢)

ولم تكن هذه البدعة وليدة العصور الحديثة فقط ، وإنما كانت موروثاً من الموروثات الشعبية ، جاءت إلينا عبر مئات السنين ، فقبل ذلك الوقت فعل نفس الفعل الرحالة الأندلسى (ابن جبير) فى عام ٥٧٩ هجرية .

وبالطبع لم يكن (ابن جبير) هو أول من فعل ذلك . فقد ذكر فى حواشي عام ١٦٠ هجرية أيام خلافة (المهدي بن عبدالله بن أبى جعفر المنصور) وأثناء تاديته فريضة الحج ، فقل أن (المهدي) نزل بدار الندوة ، وجاء (عبدالله ابن عثمان بن إبراهيم) الحاجب بالمقام - مقام سيدنا إبراهيم - فى ساعة خالية نصف النهار مشتمل عليه ، فقال للحاجب : ائذن لى على أمير المؤمنين فإن معى ما لم أدخل به على أحد قبله ، وهو يسر أمير المؤمنين ، فأدخله إليه ، فكشف عن المقام ، فسرى بذلك ، وتمسح به ، وسكب فيه ماء ، ثم شربه ، وقال له : أخرج ، وارسل الى بعض أهله ، فشربوا منه ، وتمسحوا به ، ثم أدخل واحتمله ورده مكانه وأمر له بجوائز عظيمة .(٢٣)

□ □ □



الهوامش والمراجع

- (١) د . محمد المنسى قنديل « المغرور ببقاء النصور » - مقالة بمجلة العربي - ص ٩٣ - العدد ٣٠٢ يناير ١٩٨٤ - وزارة الاعلام بالكويت .
- (٢) فاروق خورشيد « عالم الادب الشعبي العجيب » ص ٢٠١ - كتاب الهلال - العدد ٤٤٧ - مارس ١٩٨٨ - دار الهلال .
- (٣) . عبدالغنى بن اسماعيل النابلسي « الحقيقة والمجاز » ص ٤٤٦ .
- (٤) ابو الفرج الاصفهاني « الاغانى » - ص ٢٠ ، ٢١ ، ح ٢ - اشراف محمد ابو الفضل . ابراهيم - الهيئة المصرية العامة للكتاب والنشر ١٩٧٠ .
- (٥) الشيخ احمد الرشيدى « حسن الصفا والابتهاج بذكر من وثى إمارة الحاج » - ص ٩٧ - تحقيق د . ليلى عبداللطيف احمد - مكتبة الخانجي بمصر ١٩٨٠ .
- (٦) ابن جبير « رحلة ابن جبير » - ص ٧١ .
- (٧) ابن بطوطة « رحلة ابن بطوطة » - ص ٨٩ ح ٣ .
- (٨) اللواء / ابراهيم رفعت باشا « مرآة الحرمين » ص ٣٤ ح ١ .
- (٩) الحافظ ابو الطيب الغاسي « شفاء الغرام » ص ٢١٨ ح ٢ .
- (١٠) عبدالقادر الانصارى الجزيرى « درر الفرائد المنظمة » ص ٢٣٥ .
- (١١) النويرى « نهاية الارب » - ص ١٩٦ ح ٢٢ .
- (١٢) ابن ايلس « بدائع الزهور » ص ٢٠٥ ح ١ ق ١ .
- (١٣) عبدالقادر الانصارى الجزيرى « درر الفرائد المنظمة » ص ١٣٨ .
- (١٤) يوسف احمد « المحمل والحج » ص ٢٨٢ ح ١ .
- (١٥) محمد صالح الشيبى « اعلام الانام » ٢٠٩ .
- (١٦) يوسف احمد « المحمل والحج » ص ٢٨٣ ح ١ .
- (١٧) المرجع السابق - ص ٢٨٥ ح ١ .
- (١٨) جيار دى نرفال « رحلة الى الشرق » - ص ٢٢٧ ح ١ .
- (١٩) ادوارد وليم لين - ص ٤٠٩ فى الهامش .
- (٢٠) المرجع السابق - ص ٢٢٤ .
- (٢١) اللواء ابراهيم رفعت باشا « مرآة الحرمين » - ص ١٥٢ ح ٢ .
- (٢٢) المرجع السابق - ص ٢٤٦ ح ١ .
- (٢٣) عبدالقادر الانصارى الجزيرى « الفرائد المنظمة » - ص ٢١٥ .

□ □ □



فنون المحامل العربية وقوافل الحج من البلاد الإسلامية

في سرعة مذهلة خاطفة ، وعلى مقعد وثير في طائرة
أو في باخرة أو في سيارة ، أصبح الحاج الآن يعبر حدود
وطنه إلى الأراضى الحجازية المقدسة دونما عناء
أو مشقة تذكر .

أما فيما مضى من زمن ، فقد كانت رحلة الحج - بالرغم
من جهدها الجهد - لها مذاقها الخاص ، والذي يستشعر
فيه الإنسان المقبل على أداء فريضة الحج لذة التطهر ، منذ اللحظة الأولى التي
يطأ فيها بقدميه تراب الطريق ، ذلك الطريق الذي يغد في السير ، ويشق فيه
صعوباته مع الرفاق الناشدين للغفران ، وتضمهم رحلة المحمل للحج ، في شهور
عدة ، سواء أكان ذلك من فوق ظهر جمل - إن كن الحاج ثريا وميسور الحال ،
أو بالسير على الأقدام ، إن كان ذا عسرة وخاوى الوفاض .. !

كانت المحامل العربية وقوافل الحج من البلاد الإسلامية تأتي إلى البيت العتيق
من كل فج عميق ومن كل أنحاء طريق ، وكانت أم القرى مكة - في فترة من الفترات
التاريخية التي بها الإنسانية - كأنما تمثل على الأرض قرص الشمس المتوهج
الوضاء ، في حين كانت تلك المحامل العربية والقادمة من البلاد الإسلامية تمثل
مسار الأشعة التي تخرج منها وإليها تعود .. !

وبصرف النظر عن مدى صحة هذه الظاهرة التاريخية الخاصة بالمحامل
العربية وموافقتها أو مخالفتها للشرع والدين ، فهي أصبحت الآن تمثل جزءاً
هاماً من تاريخنا في عصور السلف الرابضة في أوراق صفراء ، بل ومشت من قريب
تاريخاً ربما مازال يحيا في داخل البعض منا ، ولو بنبضة واحدة لعرق واحد
مازال يختلج في الذاكرة إلى الآن .. !

ولأن التاريخ دائماً ليس فيه انتقاء أو اختيار ، بحيث نحفظ ونزهو بأوراق
منه ، وننزع عنه صفحات لا نألف معها ، فحتماً علينا أن ندرس ظاهرة المحامل
العربية بوعى حقيقى ، دونما الوقوع في دائرة سحرها ، بحيث لا يكون الهدف من
ذلك هو أن نصفق لها ونحن وقوف معها نباركها ، أو يأخذنا الشنآن فنقف ضدها
لرجمها بقطع من الحجارة ، ونهيل عليها التراب ، ثم يظل من بعد ذلك وجهنا
مسوداً وهو كظيم .. !

وقد جاء في كتاب الكنز المدفون (للسيوطى) : « إن أول من أحدث المحامل في
طريق مكة - شرفها الله - (الحجاج بن يوسف الثقفى) ،^(١)
ونحن نشك في صحة ما قرره (السيوطى) في كنزه المدفون لأسباب عدة ،

١ - إن المحمل قديم جدًا وربما كان من قبل الإسلام ، وكان يطلق على الجمل الذي يحمل الهدايا إلى البيت المعظم ، وقد سَير رسول الله - صلى الله عليه وسلم - محملاً إلى مكة بهداياه إلى الكعبة المشرفة .^(١)

٢ - إن شخصية (الحجاج بن يوسف الثقفي) لا يستقيم معها أن تكون ذات نوازع دينية تدفعه إلى تسيير محمل إلى بيت الله الحرام ، وإن كان أحد من المؤرخين قد ذكر أنه حج ثلاث مرات خلال أعوام ٧٢ ، و ٧٣ ، و ٧٤ هجرية فإذا صح ذلك ولم يكن من ادعاء اتباعه ، فإن هذه الحجات الثلاث كانت بغرض دخول مكة ومحاربة المنشقين على ملك بني أمية .

وليس من المعقول أن يكون أول من فعل الحرام في الشهر الحرام يرمى الكعبة المشرفة بالمنجنيق عام ٧٢ هجرية ، في حربه ضد (الزبير بن العوام) ، وهو ابن ذات النطاقين (أسماء بنت أبي بكر الصديق) ، هو أول من سَير المحامل إلى بيت الله الحرام .

ولا يدخل في عقل إنسان أن يكون أول من سب أهل المدينة المنورة ، وعاملهم معاملة كلها الذل هو أول من سَير المحامل إلى بيت الله الحرام . وهل يستوى أن يجتمع في رجل واحد تسييره المحامل إلى بيت الله الحرام وسب الصحابي الجليل (انس بن مالك) عياناً بيانا ؟

إن في سيرة (الحجاج بن يوسف الثقفي) مثالب كثيرة تنقص من قدر شخصيته إذا وزنت بميزان دقيق ، حتى لقد وصفه (عمر بن عبدالعزيز) قائلاً : « لو جاءت كل أمة بخبيئها وجئنا بالحجاج لغلبناهم ! »

ووصفه (الحسن بن علي بن أبي طالب) بأنه « يحكم بحكم الجاهلية »^(٢) ومن العبث أن نبحث عن هو أول من سَير المحمل في تاريخ العرب ، لأن ذلك كان شيئاً مألوفاً لديهم منذ عهود سحيقة ، فالجمل العربي ملازم لهم دائماً في حلقهم وترحالهم ، وقديماً قال (القزويني) يصف الإبل بأنها : « من الحيوانات العجيبة ، وإن كان عجيبها سقط من أعين الناس لكثرة رؤيتهم إياها ، وهو أنه حيوان عظيم الجسم شديد الانقياد ، ينهض بالحمل الثقيل ويبرك به ، وتأخذ بزمامه فارة تقوده إلى حيث شاعت ، ويتخذ على ظهره بيت يقعد الإنسان فيه مع مأكوله ومشروبه وملبوسه وظروفها والوسادة والملحفة والنمرقة كما في بيته ، ويتخذ للبيت سقف . وهو يمشي بكل هذا . »^(٣)

خلاصة الأمر إن الجمل كان موجوداً في البداية العربية قبل الإسلام بمئات السنين ، والحج كذلك على الرغم من إنه أصبح فريضة إسلامية في السنة التاسعة من الهجرة ، وهي السنة التي أصبح فيها (أبو بكر الصديق) أول أمير للحج في الإسلام ، وأول وآخر من حج في الإسلام في شهر ذي القعدة كما جرت بذلك سنة العرب القدماء أن يكون الحج في أي شهر من شهور شوال وذو القعدة والعشر الأوائل من ذي الحجة ، إذ أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حج بعد ذلك

بعام في السنة العاشرة من الهجرة حجة الوداع في ذي الحجة ، ومن ثم أصبحت سنة إسلامية من بعده في هذا الميقات على طول السنين . وعلى طول السنين كذلك المسلمون من كل بقاع الأرض حجّوا ، وفرض الله أدوا - من استطاع إلى ذلك سبيلا ، مشيا على الأقدام ، وامتطاء للجمال في الركبان ، واتخاذا للمحامل عند إظهار الفرحة بالحج والإعلان .. !

وكان من أشهر تلك المحامل العربية وقوافل الحج من البلاد الإسلامية :
المحامل الآتية : -

١ - المحمل الشامي .

٢ - المحمل العراقي .

٣ - المحمل اليمني .

٤ - المحمل المغربي .

٥ - المحمل التكروري .

٦ - المحمل الرومي أو التركي .

٧ - المحمل المصري .

ولم تكن تلك المحمل هي كل ما كان يفد إلى الأراضي الحجازية لأداء فريضة الحج ، بل كان هناك أيضا محمل ابن الرشيد ، ومحمل ابن سعود ، ومحمل ابن دينار ، ومحمل النظام ملك حيدر آباد بالهند .^(٥)

ولكن هذه المحامل كانت ثانوية إلى جوار المحامل السبعة التي سبقتها ، وربما جاء هذا الدور الثانوي لها تبعا لمركز ثقل بلادها في توجيه وتسيار الأحداث فوق رمال شبه جزيرة العرب من أجل صناعة التاريخ .. !

أولا : المحمل الشامي :

على الرغم من أن بلاد الشام جميعها - وهي سورية ولبنان وفلسطين والأردن - ذات طبيعة ثقافية متقاربة - إن لم تكن متشابهة - إلا أنها كانت لها أربعة محامل مختلفة ، ولكل من هذه المحامل الأربعة اسم يختلف عن الآخر .

كانت هذه المحامل هي : المحمل الشامي ، والمحمل الحلبي ، والمحمل الكركي - نسبة إلى منطقة الكرك بشرق الأردن - والمحمل القدسي .

وكانت المحامل الثلاثة الأخيرة من النادر تجهيزها وقيامها بالحج سوى في الأزمنة الأخيرة من العصر المملوكي . أما المحمل الشامي فكان أسبقها من ناحية النشأة والبدائية ، والتي من المرجح أن تكون في عصر دولة بني أمية بالشام ، حيث كانت تفد منها قوافل الحج تباعا منذ استقرارها هناك .

واقدم أثر يدل على وجود المحمل الشامي - وهذا بالطبع غير مادونته الكتب عن الركب الشامي - لم يكن في كتب التاريخ ، بل كان في كتب الأدب العربي القديم ، وما نعينه بذلك واستطعنا العثور عليه هو مقامات الحريري ، والتي كتبت

فيما بين عامي ٤٩٥ و ٥٠٤ هجرية أيام خلافة (الأمر بأحكام الله) الفاطمي ، وهو سابع ملوك الدولة الفاطمية . قال (الحريري) في المقامة الحادية والثلاثين المسماة بالمقامة (الرملية) مايلي :

« ... واصعدت إلى ساحل الشام للتجارة ، فلما خيَّمت بالرمل [بلد بالشام قرب الساحل] ، والقيت بها عصا الرحلة ، صادفت بها ركاباً تُعدُّ للسُرى [المسير بالليل] ، ورحلاً تشدُّ إلى أم القرى ، فعصفت بي ريح الغرام ، واهتاج لي شوق إلى البيت الحرام ، فزمت ناقتي [وضعت زمامها فيها] ، ونبذت عُلقى وعلاقتي [مايتعلق بي] ،^(٦)

وفي هذه المقامة نلمح من (الحريري) تهكما على شكل المحمل الشامى ، إذ يقول على لسان (الحرث بن همام) بطل المقامة : « اتخالون أن الحج هو اختيار الرواحل ، وقطع المراحل ، واتخاذ المحامل ، وإيقار الزوامل [تثقيل حمل الإبل بالأحمال ؟] .

ولقد صور الفنان (الواسطى) منمنمتين تعبران عن هذه المقامة ضمن أخريات في عام ٦٣٤ هجرية ، تحمل بصمات مدرسة بغداد في الفن التشكيلي بأسلوبها المتميز .

والمنمنمة الأولى للمحمل الشامى في منطقة (الجُحفة) ، وهى ميقات أهل الشام بين مكة والمدينة ، وفيها يسخر (الحريري) من الضجيج والعجيج الذى يثيره المحمل الشامى دون معنى أو هدف أحياناً .

ويصف الدكتور (ثروت عكاشة) هذه المنمنمة قائلاً : « وعلى عادة الواسطى في إدراكه العميق لغزى النص وماعناه (الحريري) منه رسم منمنمته وقد غلب عليها طابع النرق والتهريج ، فالحركة فيها صخب واهتزاز ، والقوم مدَّعون هازلون ، والنوق متبخثرة تكاد تشي وجوهاها بالسخرية ، وقائد القافلة - وهو على ما يبدو الفارس لراكب الجواد - تكسو وجهه علامات الغباء . وصور ذيل الجمل الأسود حامل هودج النساء - كما نعتقد - ملتويًا كالأفعى منفوش الوبر . وبمعنى أشمل عمد المصور إلى تجريد رجال القافلة ودوابها من سمات القداسة والجدية المفروضة في مثل هذا الموكب الدينى الوقور . وهو إلى ذلك قد اختار ألواناً متناسقة وخطوطاً انسيابية عذبة ، وأطلق من مركز الصورة متوازيات تتمثل في عصي البيارق الطويلة الرشيقة تتدلى منها رايات مثلثة الشكل مهدبة ، وفي الأبواق القصيرة يطلقها الزامرون في حملس ، ولم ينس النبلات الزخرفية في أدنى اللوحة .^(٧)

أما المنمنمة الثانية للمحمل الشامى فهى بعد الوصول إلى مكة وإناخة الركائب ويصفها الدكتور (ثروت عكاشة) بقوله : « وتعبّر اللوحة اصدق تعبير عن القوم الذين انأخوا رواحلهم وحطّوا هودجهم وحقائبهم ، واعتلى (أبو زيد السروجى) - وهو أحد أبطال المقامة وسائر مقامات (الحريري) - الأكمة

ليخاطب فيهم وبدأت على وجوههم تعبيرات متباينة ، فهم بين مشدوه ومعجب ومنصت ومفزو بوجهه عنه ومشغول بالحديث مع آخر عنه .

ويثور سؤال هام هنا . هل قصد (الحريري) أن يوجه انتقادات مباشرة إلى المحمل الشامي أو أنه عمد بأسلوب غير مباشر إلى نقد المحمل العراقي في صورة المحمل الشامي خوفاً من بطش أحد ممن يهمه أن تظل المثالب المنتقدة باقية ؟ وعلى الرغم من أن هذا الأمر مأخوذ في الاعتبار ووارد إلا أننا مضطرون إلى التسليم بأن هذه الانتقادات موجهة إلى المحمل الشامي ، وفقاً للأماكن التي حدها (الحريري) للمحمل في مقامته ، برغم أن هذه المثالب منتشرة جميعها بين كافة المحامل العربية ولا يخلو واحد منها .

كان المحمل الشامى كثير التعرض للمشاق في رحلته إلى الأراضى الحجازية ففي أخبار سنة ٦٩٢ هـ . قال (ابن الجوزى) صاحب (مرآة الزمان) يصف هذا الموكب : « إن الذى حج في هذه السنة من الشام (بدر الدين بكتاش) المعروف بالطيار ، وسافر المحمل من دمشق في الحادى عشر من شهر شوال ، وحصل للركب الشامى مشقة كبيرة ، فكان في العشرة الأخيرة من المحرم انتههم رياح عظيمة وبرد ومطر ، وهلك الناس ، وتطايرت العمائم ، وحملت الريح بعض الجمال الواقعة ، واشتغل كل امرئ بنفسه ، وهلكت الأمتعة والثياب وحصلت لهم مشقة عظيمة . » (٨)

وفي سنة ٦٩٤ كان ركب المحمل الشامى ركباً كبيراً ، وضم محملاً آخر لعمه صاحب ماردين ، وكما يقول (الفاسى) : « وكان لها محمل كبير وسبيل كثير ، وتصدقت بمال كثير وانتفع بها الحاج وأهل الحرمين وأمراء مكة والمدينة . » (٩) وكان لكثرة الأعداد التى تصاحب المحمل الشامى أن بلغ هذا المحمل أربعة محامل كما حدث في عام ٧١١ هجرية ، فقد حج الشاميون وأميرهم (علاء الدين طنباغا) ومعهم أربعة محامل : المحمل السلطاني ، ومحمل أمير الحاج ، ومحمل البيت الأمير (سيف الدين كحكي ، ومحمل للأمير) عدى الدين أمير عقلة . » (١٠) ولم ينصب الاهتمام بالمحمل الشامى على عدده فقط ، بل اهتم هذا المحمل بكسوته ، من ناحية العناية بها وبزخرفتها على مدى سنين عديدة .

فحينما كان الأمير (شيخ الحمودى) نائباً للسلطان المملوكى على الشام - قبل أن يصبح سلطاناً على مصر والشام - أدار المحمل الشامى سنة ٨٠٦ هجرية بعد انقطاعه منذ سنة ٨٠٣ هجرية ، وعمل كسوة للمحمل الشامى ، وهى من الحرير الأصفر المذهب بلغت تكاليفها نحو خمسة وثلاثين ألف درهم فضة . (١١)

وكان من الطبيعى أن يهتم الولاة في العصر العثمانى بكسوة المحمل الشامى مثلما كان الاهتمام به في عصر المماليك . ففي عام ١١٤٤ هجرية عمل (عبد الله باشا الايدىنى) كسوة جديدة للمحمل الشامى ، كما جددت أخرى في عهد (عبدى باشا الجيته جى) بعد أن حج سنة ١١٧٢ هجرية ، وفي عام ١١٨٣ هجرية عمل

(عثمان باشا) والى دمشق كسوة جديدة للمحمل الشامى غير التى عملها (عبدى باشا الجيته جى) ، ويقال إن هذه الكسوة كانت أفضل وأكبر من كسوة عام ١١٧٢ هجرية .^(١٢)

وقد ارتبطت ولاية دمشق بإمارة محمل الحاج الشامى ، فكان والى دمشق دائماً هو أمير المحمل الشامى لسنوات عديدة خاصة فى العصر العثمانى حتى انفصلت الوظيفتان عن بعضهما فى عهد (عبداللطيف صبحى باشا) والى دمشق عام ١٢٨٨ هجرية .^(١٣)

وكان للمحمل الشامى قاض مثلما كان فى المحمل المصرى ، وقد وقفنا على اسم قاض المحمل الشامى فى عام ١٠٠٣ هجرية وهو (أحمد أفندى الشاهينى) ، ويبدو من اسمه أنه لم يكن من أرباب العمائم بعكس ما كان يحدث فى المحمل المصرى .^(١٤)

أما محمل حلب فكان فى بعض السنين يحل محل المحمل الشامى عندما كانت تحدث بعض القلاقل أو المناوشات بين الشوام وبعض الجيران الطامعين فى ملك دمشق ، وكانت بدايته فى أواخر القرن الثامن الهجرى .
قال صاحب (درر الفرائد) فى حوادث سنة ٧٨٧ هجرية : « وحج الحلبيون بمحمل على صفة المحامل لم يعهد ذلك قبلها » .^(١٥)

غير أن المحمل الحلبى لم يستمر كثيراً بديلاً عن المحمل الشامى فى الأوقات الحرجة ، إذ تلازم المحمل الحلبى مع المحمل الشامى البادىء رحلته من دمشق ، بحيث يمتزجا معاً فى ركب واحد بمحمليهما كما حدث فى عام ٨٩٢ هجرية .^(١٦)
ويبدو أن عام ٧٨٧ هجرية وعام ٨٩٢ هجرية لم يكونا هما العامين الذين برز فيهما المحمل الحلبى إلى الوجود . فبعد البداية بعشر سنوات وفى عام ٧٩٧ هـ فى عهد السلطان المملوكى (برقوق) قدم إلى مكة مع الحجاج الشامى محمل من حلب كما ذكر ذلك صاحب كتب « شفاء الغرام » وأكده .^(١٧)

وغير المحمل الحلبى كلن يوجد محمل أهل الكرك ، ذلك المحمل الذى وصفوه فى عام ٨٦٩ هجرية بأنه « محمل لطيف » .^(١٨)

ولكن واصفوه لم يقفوا على تفاصيله ، وربما كان فى غير الأبهة التى كانت معهودة فى المحمل الشامى من حيث العدد والعدة .

ولم يقف أحد على بداية تسير محمل أهل الكرك ، وإن كنا نظن أن بدايته كانت فى عام ٧٢٢ هجرية ، وهى السنة التى حج فيها السلطان المملوكى (الناصر محمد بن قلاون) من الكرك ذاتها ، إذ لم نقف على ذكر لهذا المحمل - فيما بين أيدينا من المصادر - سوى فى هذه السنة المذكورة وما بعدها ، أما ما قبلها فلا .

كانت حجة السلطان المملوكى (الناصر محمد بن قلاون) من هناك ومعه نحو أربعين أميراً وستة آلاف مملوك على الهجن ومائة فارس .^(١٩)

بعد أن كان يتولى رد كيد اعتداء القطار على الشام ، فلما حاربهم نائب حلب

(سودون الناصري) وانتصر عليهم قبل مجيء السلطان إليه بجنده ، توجه السلطان من غزة إلى حلب بعدما أرجع الجند إلى القاهرة ، وقصد زيارة بيت الله الحرام في موكب من الكرك .

ولم نقف على ذكر لمحمل الكرك مرة أخرى سوى في عام ٨٨٤ هجرية بإشارة عابرة دونما تفاصيل له ، وهي السنة التي حج فيها السلطان المملوكي (الأشرف قايتباي) في المحمل المصري .^(٢٠)

العادات والمعتقدات في طريق المحمل الشامي :

حمل حجّاج المحمل الشامي في طريق رحلتهم إلى الأراضى الحجازية العديد من عاداتهم ومعتقداتهم الشعبية ، وهذه العادات والمعتقدات لعبت دوراً كبيراً في سلوكهم وتصرفاتهم على مدار سنين كثيرة ذهب وعاد فيها ركب المحمل الشامي . وطريق المحمل الشامي كان يبدأ من دمشق ، ويتجه جنوباً إلى المدينة المنورة أولاً ، ثم من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة .

وبين دمشق والمدينة والمنورة كانت هناك محطات وقوف بلغت ٣٤ محطة وكان القدماء يسمونها « منازل الحاج » ، وهذه المنازل هي :^(٢١)

- ١ - الكسوة ٢ - دنون ٣ - غباغب ٤ - صمنين ٥ - الشيخ مسكين
- ٦ - الميزريب ٧ - درعا ٨ - المفرق ٩ - الزرقا ١٠ - خان الزبيب ١١ - البلقاء
- ١٢ - قطران ١٣ - الحسا ١٤ - عنيزة ١٥ - معان ١٦ - بطن الغول
- ١٧ - المدورة ١٨ - حالة عمار ١٩ - ذات حج ٢٠ - بئر ابن هرماس ٢١ - تبوك
- ٢٢ - وادي الأخضر ٢٣ - المعظم ٢٤ - الدار الحمراء ٢٥ - مبرك الناقة
- ٢٦ - الحجر ٢٧ - العلا ٢٨ - سهل المطران ٢٩ - البئر الجديد ٣٠ - هدية
- ٣١ - اصطبل عنتر ٣٢ - البوير ٣٣ - بئر نصيف ٣٤ - يواط .

والمسافة بين دمشق والمدينة المنورة تبلغ حوالي ١٣٠٢ كيلومتر ، ومع طول هذه المسافة تولدت لدى حجّاج المحمل الشامي عدة معتقدات وعادات توارثها الشوام من طرّاق درب الحجيج . وقد امتزجت في هذه المعتقدات والعادات غرائب وعجائب رسمتها لهم وحشة الطريق الممدود في الصحراء الواسعة بكل مخاوفها الحقيقية وغير الحقيقية .

نظر حجّاج المحمل الشامي إلى طول الطريق وما يصيبهم فيه من تعب ونصب وخطر فكانت جيظتهم اللازمة تجاه ذلك أن تخففوا من امتعتهم عند (المدورة) أو (جعيما) وهي عند نهاية بلاد الشام وقبل الولوج في أرض الحجاز .^(٢٢) ثم عند العودة يأخذون امتعتهم ويقفلون عائدين إلى بلادهم بالشام ويتزودوا من أزوادهم التي احتفظوا بها هناك .

وأما من كان ينفذ منه زاده فقد كان أهل الشام يرسلون (الجردة) ، وهي نوع من البقسماط أو الكعك إلى (معان) للحجّاج العائدين .^(٢٣)

كان هذا نوعاً من التحوط ، خوفاً من الاحتياج أو العوز ، غير أن الخوف من وعناء الطريق رسم في مخيلة العديد من حجاج المحمل الشامي تصورات خرافية رسخت في أذهانهم وتقوقعت وتدفرت بغلالات اصطبغت بصبغة دينية مما ساعدها على النفاذ إلى عمق كبير في دواخلهم .

من ذلك أن أطلق على جزء من طريق صحراوي قفر « داخلها مفقود وخارجها مولود » وهو الجزء الذي يقع بين عقبة (الصوان) و (ذات حج) ، وعقبة (الصوان) هذه كانت تلي (معان) عند نهاية حدود الشام وبداية حدود أرض الحجاز في زمن (ابن بطوطة) سنة ٧٢٤ هجرية .^(٢٤)

وعلى الرغم من بشاعة هذا الاسم الذي يرتجف لذكره القلب ، إذ يعنى مجرد الخوض فيه أنه هلاك محض ، فقد كان المحمل الشامي يعبره ، إذا لم يكن هناك خيار غيره .

وبين (تبوك) و (العلا) كانت هناك منطقة تُسمى (المغارة العظمى) ، وفي هذه المنطقة حرك العطش في داخل حجاج المحمل الشامي مشاعراً ملتهبة أرقه . وفي إحدى الرحلات وصفت المشاعر بعد ترك (عين تبوك) ، قائلة : « ثم إنا فارقنا نخلها الطوال ، وسرنا عن شماريخها العوال ، بعدما استعدنا للمغارة العظمى التي ذكرها يهول ، وخبرها يجوب الأفاق ويجول ، فملأنا القرب والروايا ، والخبايا التي في حنايا الزوايا . وسرنا على اسم الله والبركة ، وقلنا : اللهم أنزل السكون على هذه الحركة . ونزلنا دون رأس الوادي ، وحططنا بمنزلة لم يبدلنا مثلها في تلك البوادي ، وقيل إنها تعرف بالمغارة ، والمسافرون يخصونها بهذه الإشارة . ويزعمون أنه دخلها سبعة من القلندرية [الدراويش] وعجزوا عن اللحاق بالركب ، فماتوا بها صبرا ، فكانت لهم إلى يوم القيامة قبراً ، لأنهم هلكوا من الظما ، ووجدوا من عدم الماء الما . »^(٢٥)

وقد قال فيها الشاعر :

مغارم الركب أضحت مغانماً في المغارة
والناس من قبل كانوا وقودها والحجارة
فكانما كانت هي قطعة من جهنم التي وقودها الناس والحجارة ، معاذ الله .. !
ولأن رفيق الإنسان في رحلة المحمل الشامي إلى الأراضي الحجازية كان هو الجمل ، فلم يخلو الأمر من وجود بعض المعتقدات الشعبية دارت حول الجمل ، سواء كان ذلك الجمل من جمال المحمل الشامي نفسه أو من غيره .

ففي طريق المحمل الشامي ، وعند منطقة تسمى (مضمن الغزالة) في الطريق من المدينة إلى مكة حكى (عبد الغنى بن إسماعيل النابلسي) في رحلته عام ١١٠٥ هجرية فقال عنها : « وفي هذه الليلة تجفل الجمال ، بحيث يضطرب الحاج ، فيسقط بعض الأحمال ، وتذهب لهم امتعة في الأرض ، وبعضهم يسقط فيصاب بالشج والرّض ، فيقال إن الإبل تتراى لها هناك ملائكة أو شياطين أو أقوام من الجان فتفرعهم في ذلك الحين . »^(٢٦)

وعند منطقة (الجَجْر) أو ما يسمى باسم (أبار ثمود) أو (مداين صالح) لم ينس حجاج المحمل الشامي قصة ناقة صالح النبي التي وردت في القرآن . وعلى الرغم من البعد الزمني الكبير بين ما حدث من عمر ناقة هذا النبي الكريم - هذا إذا صح القول بأن ذلك حدث في منطقة (الحجر) السابقة - إلا أن كراهية الشرب من هذا المكان بحكم إنه كان مغضوبا على أهله في أزمته سحيقة يعد لغوا كبيرا في تشكيل عقول حجاج المحمل الشامي .^(٢٧)

وعند مكان كان يسمى (شق العجوز) زعمت العامة أن ناقة ثمود خرجت من إحدى قطعتي جبل هناك ، ويقال إنها القطعة اليمنى للملح ذاهبا بذلك الطريق ، وربما يرفع الناس أصواتهم إذا مروا في ذلك المكان ، فيزعمون أن ولد الناقة المعقورة باقى هناك (!) وله صوت ، فإذا مسّ شيء من الجمال ربما سمع صوته فيهلك ، فترفع الناس أصواتهم دفعا لسماع ذلك الصوت .^(٢٨)

إن معظم المعتقدات الشعبية التي رسخت في أذهان حجاج المحمل الشامي على مدار السنين تدثرت بثياب الدين ، وعلى الرغم من البعد الزمني الأخر بين غزوة (تبوك) أيام عهد الرسول الكريم - ص - إلا أن حجاج المحمل الشامي أقاموا لهم عادة في منطقة تبوك كما حكى لنا ذلك (ابن بطوطة) في رحلته عام ٧٢٤ هجرية .

قال (ابن بطوطة) : « ومن عادة حجاج الشام أنهم إذا وصلوا منزل تبوك ، أخذوا أسلحتهم ، وجردوا سيوفهم ، وحملوا على المنزل وضربوا النخيل بسيوفهم . ويقولون : هكذا دخلها رسول الله صلى الله عليه وسلم . »^(٢٩)

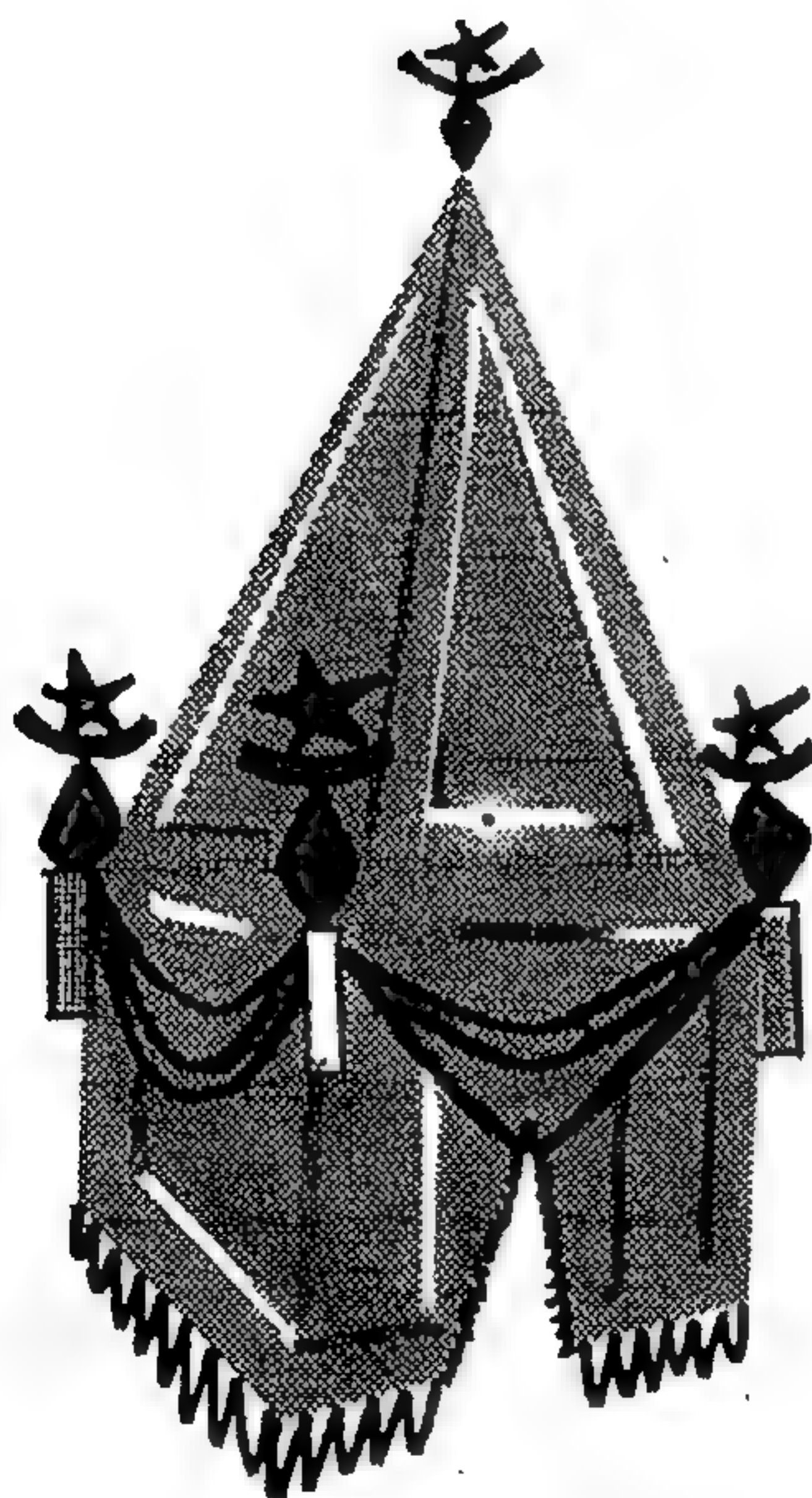
وأشهر ما اشتهر عن المحمل الشامي مسألة التبرك به ، وهو أمر لا ينفرد به وحده ، إذ أن محامل العرب كلها وكذلك محامل الدول الإسلامية لم تخلو من هذه الظاهرة من ذلك ما ذكره الرحالة الأندلسي (ابن جبير) أثناء حجّه في عام ٥٨٠ هجرية في عهد السلطان (الناصر صلاح الدين الأيوبي) . قال (ابن جبير) والدهشة تعلو وجهه من المعتقدات الشعبية التي صاحبت المحمل الشامي وحجّاجه ومستقبليه : « ومن عجيب أمرهم تعظيمهم للحاج ، على قرب مسافة الحجّ منهم ، وتيسير ذلك لهم ، واستطاعتهم لسبيله : فهم يتمسحون بهم عند صدورهم ، ويتهافتون عليهم تبركا بهم . ومن أغرب ما حدثناه من ذلك أن الحاج الدمشقي ، مع من انضاف إليهم من المغاربة ، عند صدورهم إلى دمشق في هذا العام الذي هو عام ثمانين ، خرج الناس لتلقيهم ، الجم الغفير نساء ورجالا ، يصافحونهم ويتمسحون بهم ، وأخرجوا الدراهم لفقرائهم يتلقونهم بها ، وأخرجوا إليهم الأطعمة . فأخبرني من أبصر كثيرا من النساء يتلقين الحاج ، ويناولنهم الخبز ، فإذا عضّ الحاج فيه اختطفته من أيديهم ، وتبادلن لأكله تبركا باكل الحاج له . ودفعن له عوضا منه دراهم ، إلى غير ذلك من الأمور العجيبة . »^(٣٠)

وكان من عادة ولاية دمشق عند عودة المحمل الشامي جالبا معه بعض قطع من

كسوة الكعبة المشرفة أن يكسو بها أضرحة الأولياء هناك ، مثلما حدث من وإلى دمشق (عبد الله باشا الأيدوني) وغيره ، والذي كانت ولايته بين عامي ١١٤٤ و ١١٤٦ هجرية ، فقل أنه : « جاب زنار الكعبة ، وحط بعضه على تابوت سيدنا (يحيى) ، وبعضه على تابوت سيدنا الشيخ (رسلان الدمشقي) ، وبعضه على تابوت سيدتنا (رقية) و (زينب) قدس الله روح الجميع . » (٣١)

لقد استمر المحمل الشامي بالعديد من معتقداته الشعبية وعاداته ، يتوارثها حجاج الشام ، من جيل إلى جيل حتى بعد استيلاء الأتراك على الشام ، ولم يتوقف إلا بقيام الحرب العالمية الأولى . (٣٢)

□ □ □



ثانيا : المحمل العراقي :

يعد عام ١٣٢ هجرية هو أول عام حج فيه بنو العباس بعدما آل أمر الخلافة الإسلامية إليها وأفل نجم دولة بنى أمية . وكان أمير الحج وقتها هو (أبو سليمان داود بن علي) وهو عم (أبي العباس السفاح) أول خليفة للدولة العباسية الفتية .

ولم يقف قلم التاريخ كثيرا عند حوادث تاريخ الركب العراقي قبل عام ٣١٨ هجرية ، اللهم إلا وقفات عابرة سريعة وخاطفة .

أما في عام ٣١٨ هجرية فقد حدثت مأساة مروعة بفعل القرامطة الخوارج صبغت بالدم المراق أشلاء أجساد آلاف من حجاج بيت الله الحرام ، في عهد الخليفة العباسي (القاهر بالله أبي منصور) ، وفي هذه الحادثة قال (ابن اياس) : « لما تغلبت على الخلافة طائفة من العربان يقال لهم (القرامطة) وكان أميرهم شخصا يسمى (أبو ظاهر القرمطي) خارجيا سفاكا للدماء جاهلا ، وكانت قبيلة هذه (القرامطة) يسكنون (بهجر) فلما خرج ركب الحاج من بغداد وكان أمير الركب يسمى (منصور الديلمي) فلما وصل بالحاج الى مكة وأقام بها الى يوم الصعود هجم عليهم (أبو ظاهر القرمطي) بمن معه من العربان ، فقتل (محارب) أمير مكة ، وقتل (منصور الديلمي) أمير الركب ، ونهب جميع الأموال التي بمكة ، وقتل الحجاج عن آخرهم ، وأسر النساء والصبيان الصغار ، فكان عدة من قتل في هذه الحركة نحو من خمسة وثلاثين ألف انسان ، وطرح غالب القتل ببيئرمزم حتى امتلأت بالقتلاء ، ثم دخل الى البيت الشريف ، وأخذ ما كان فيه من القناديل الذهب والفضة ، وقلع باب الكعبة الشريفة وقلع الحجر الأسود وعرى الكعبة ونزع الكسوة عنها ، وكانت هذه الحادثة من أجل المصائب وأعظمها ، ثم ان (أبا ظاهر القرمطي) نقل ما نهبه من الأموال وغيرها الى (هجر) واستمر الحج منقطعا من بغداد وغيرها من البلاد نحو من عشرين سنة لم يحج فيها الى البيت احدا ، (٣٣)

وحينما خمدت الفتنة القرمطية استأنف المحمل العراقي رحلاته الى الأراضي الحجازية ، وكان المحمل يضم أعدادا كبيرة من الحجاج ، من العرب ومن العجم ، حتى وصل بالأمر الى أن يضم المحمل العراقي محملين في آن واحد مثلما روى الرواة عن محمل سنة ٧٥٨ هجرية : واحد يأتي من (بغداد) في حين يأتي الآخر من (شيراز) ويسيران معا . (٣٤)

ولقد اهتم العراقيون بكسوة محملهم ، وبلغ هذا الاعتناء مداه في عهود كثيرة ، مثل ما فعل (أبو سعيد خرابنده) فيقال انه غشى المحمل العراقي بثوب من المخمل الحرير ورصعه بالذهب واللؤلؤ والياقوت وأنواع الجواهر ، وقد قدر ما على المحمل قبله مائتا وخمسين ألف دينار من الذهب المصري في عهده سنة عشرين وسبعمئة . (٣٥)

ولم يكن هذا المحمل هو المحمل العراقي الوحيد الذي كان مترفا وبذخا في تكاليفه ، فمن قبل كان محمل الأميرة (جميلة بنت ناصر الدولة أبي محمد الحسن ابن حمدان) سنة ٣٦٦ هجرية مضرب الأمثال في زينته وتجمله . قيل كان معها أربعمائة محمل لها لون واحد ، فلم يعلم أحد ممن رأى الموكب في أيها كانت ، وانفقت في هذه الحجة ألف ألف دينار ومائة وخمسين ألف دينار ، ويقال انها لما رجعت الى بغداد صادرها (عضد الدولة بن بويه) واستقصى أموالها .^(٣٦) وفي عام ٥٧٩ هجرية وقف الرخالة (ابن جبير) قاعرا فاه أمام بذخ المحمل العراقي ، خاصة ذلك المكان الذي كان يقيم به أمير المحمل ، فلقد رأى حوله سرادق كالسور من كتان ، كأنه حديقة ، وفي داخله القباب المضروبة بسوادها وبياضها والوانها ورقشها الذي يبعث على المهابة . وقد لاحظ (ابن جبير) أن ابواب هذا السرادق مرتفعة ارتفاعا غير عادي ، بحيث يدخل منها الفارس برايته دون أن يطأ طيء الرأس أو يحنى القامة . ولم تكون الحفاوة تحف أمير المحمل فقط ، بل سائر الأتباع .

ويصف (ابن جبير) الموكب قائلا : « ولهم أيضا في مراكبهم على الابل قباب تظلهم بديعة المنظر ، عجيبة الشكل ، قد نصبت على محامل من الأعواد يسمونها (القشاوات) وهي كالتوابيت المجوفة ، هي لركابها من الرجال والنساء كالأ مهددة للأطفال ، تملأ بالفرش الوفيرة ، ويقعد الراكب فيها مستريحا كأنه في مهاد لين فسيح ، وبازائه معادلة أو معادلته في مثل ذلك من الشقة الأخرى ، والقببة مضروبة عليهما ، فيسار بهما وهما نائمان لا يشعران أو كيف ما احبا . فعندما يصلان الى المرحلة التي يحيطان بها ضرب سرادقهما للحين ان كانا من اهل الترفه والتنعيم ، يدخل بهما الى السرادق وهما راكبان ، وينصب لهما كرسي ينزلان عليه ، فينتقلان من ظل قببة المحمل الى قببة المنزل دون واسطة هواء يلحقهما ، ولا خطفة شمس تصيبهما . وناهيك من هذا الترفيه ، فهؤلاء لا يلقون لسفرهم وان بعدت شقته نصبا ، ولا يجدون على طول الحل والترحال تعباً . »^(٣٧)

وسجل (ابن جبير) استقبال هذا المحمل العراقي في مدينة (الموصل) وسط حفاوة أهلها به ، فكان - على حد قوله - « من أحفل المشاهد الدينيوية » حيث « خرج الناس عن بكرة أبيهم ركباناً ومشاة ، وخرج النساء كذلك - وأكثرهن راكبات قد اجتمع منهن عسكر جرار - وخرج أمير البلد للقاء والدته مع زعماء دولته ، فدخل الحاج المواصله صحبة (خاتونهم) على احتفال وأبهة ، قد جللوا أعناق ابلهم بالحرير الملون ، وقلدوها القلائد المزوقة . »^(٣٨)

ولقد أخذ بذخ المحمل العراقي بلب (ابن جبير) فواصل وصفه قائلا : « ودخلت (خاتون المسعودية) تقود عسكر جواريتها ، وأمامها عسكر جواريتها ، وأمامها عسكر رجالها يطوفون بها ، وقد جللت قبتها كلها سبائك ذهب مصوغة أهلة ودنانير سعة الأكف ، وسلاسل وتمائيل بديعة الصفات ، فلا تكاد تبين من

القبة موضعا ، ومطيتهاها تزحفان بها زحفا ، وصخب ذلك الحلى يسد المسامع . ومطاياها مجللة الأعناق بالذهب ، ومراكب جواربها كذلك ، مجموع ذلك الذهب لا يحصى تقديره . وكان مشهد أبهت الأبصار ، وأحدث الاعتبار ، وكل مُلك يفنى إلا مُلك الواحد القهار لا شريك له .» (٣٩)

كان بذخ المحمل العراقي في أوجّه وقت أن كانت بغداد عاصمة للخلافة الإسلامية ، وكان هذا الاهتمام به لأنه كان يمثل عنوان الدولة ووسيلة للتعرف على مدى قوتها وقت اجتماع الخلق لتأدية مناسك الحج ، ولم نسمع أو نقف على ذكر لهذا البذخ عند ضعف الدولة العباسية وبزوغ نجم ممالك أخرى نافستها في هذا المضمار .

عجائب المحمل العراقي :

في عام ٥٧٩ هجرية أخذ العجب بلب الرحالة الأندلسي (ابن جبير) من أمر المحمل العراقي ، وقال واصفا احساسه هذا : « فمن لم يشاهد هذا السفر العراقي ، لم يشاهد من أعاجيب الزمان ما يحدث به ، ويتحف السامع بغرابته .» (٤٠)

ومن تلك الأعاجيب طريقة الاستدلال على من يضل من الحجاج بالركب وذلك بالطواف به والمناداة على اتباعه من فوق جمل وسط الجموع الهائلة من الحجيج ، فضلا عن دقة نظام الحل والترحال وفق نقرات محددة على كوسات معدنية . وقد يكون هذان الأمران غريبين في ذاك الزمان ، أو على الأقل لم يكن (ابن جبير) يعهد ذلك فيما رأى من محامل وسط أعداد غفيرة مختلطة ببعضها ، لكن التاريخ يحمل في أوراقه بعض الأعاجيب للمحمل العراقي ، سواء كانت قبل (ابن جبير) أو بعده .

ومن تلك الأعاجيب ما حدث في عام ٤٨٩ هجرية بشأن استطلاع رأى المنجمين في أمور غيبية ، معاذ الله .

قال (سبط بن الجوزي) صاحب (المرأة) عن هذه الحادثة : « فيها حكم المنجمون أن يكون طوفان كطوفان نوح عليه السلام ، وكان ببغداد (ابن عيشون) المنجم ، فقال : أخطأ المنجمون ، طوفان نوح قد اجتمع في برج الحوت الكواكب السبعة ، والآن قد اجتمع ستة وزحل لم يكن معها ، ولكني أقول أن بقعة من البقاع يجتمع فيها عالم من بلاد كثيرة فيغرقون ، فقليل : ما أكثر من بغداد فيجتمع فيها ما لا يجتمع في غيرها ، وربما كانت هي ، فقال (ابن عيشون) : لا أدري غير ما قلت ، فأمر الخليفة بإحكام المسنّيات وسد الفروج ، وكان الناس يتوقعون الغرق ، فوصل الخبر بأن الحاج قد نزلوا في واد عند (نخلة) فأتاهم سيل عظيم ، فاجتاح الجمال وأخذ الرجال والنساء ، وما نجا إلا من تعلق برعوس الجبال ، فخلع الخليفة على (ابن عيشون) وأجرى له جراية .» (٤١)

وهذه الحادثة تتعلق بعقائد أهل بغداد أنفسهم ، الذين ظنوا انهم لم يحتاطوا الاحتياط الواجب لمحملهم ، ولم يلتفتوا الى الطبيعة الجغرافية لأم القرى المحاطة بالجبال وتعرضها للسيول في مرات غير قليلة .

وان يذهب الحاج الى بيت الله الحرام على ظهر جمل فهذا شيء عادي ، وان يكون المحمل من فوق جمل فهذا شيء طبيعي ، لكن أن يكون في المحمل العراقي فيل فهذا شيء غير مألوف البتة !..

وهذا هو ما حدث من المحمل العراقي عام ٧٣٠ هجرية ، « فتطأيرت أهل مكة من ذلك » - على حد قول (ابن اياس) - وأدى أمير المحمل به المناسك كلها ، « وسار به الى المدينة النبوية ، فلما وصل الى العريش الصغير قبيل البيداء الذي ينزل منه الى ذى الحليفة توقف وتقهقر ، وصار كلما يقدم رجلاً يؤخر أخرى ، فضربوه ليسير وهو يابى ويرجع القهقري ، فصار كلما أكره أن يتقدم الى المدينة تأخر الى ورائه . هذا وهم يضربونه ويتأخر ، الى أن سقط ميتا في يوم الأحد الرابع عشر من ذى الحجة . ويقال ان المصروف عليه من حين خروجه من العراق الى أن هلك زيادة على ثلاثين ألف درهم ، ولم يعرف مقصد (أبى سعيد خربندة) - ملك العراقيين - في بعثة الفيل الى مكة المشرفة .» (٤٢)

موضع الغرابة في هذه الحادثة يكمن في أمرين :- أولهما : ان الفيل كحيوان ليس من الشائع ركوبه في بلاد العرب ، فالبلاد العربية ليست بلادا تركب الأفيال ، بل مطيتها الجمال لما لها من مقدرة على تحمل وعناء الطريق القفر ومشاقه وندرة الماء فيه . وثانيهما : ان الفيل مرتبط في الأذهان بحادثة عام الفيل ، قبل بعث المصطفى - صلى الله عليه وسلم - لذا كان (ابن اياس) صادقا في عبارته « فتطأيرت أهل مكة من ذلك » لأنه لم يدخل مكة - على امتداد تاريخها الطويل - فيل من قبل سوى فيل (أبرهة) الذي رام هدم بيت الله الحرام .

خلافاته مع المحامل الأخرى العربية :

في تاريخ المحامل العربية كلها مشاحنات لا حصر لها ، فلم يستطع أي منها ان يلقى خلف ظهره بخلافاته السياسية ، فاشتجرت بينهما الشواجر والخلافات وفترت أمورهما الأهواء والمطامع منذ أمد بعيدة وحتى عهد قريب !.. والمحمل العراقي كغيره من المحامل العربية حمل أدران تلك الخلافات ، بل كان هو أكثر المحامل العربية جمعاء نزاعا وشجارا مع غيره بحكم انتقال مركز السلطة من بغداد الى مراكز أخرى ، مثل القاهرة ودمشق .

وكان أول خلافات المحمل العراقي مع المصريين عام ٣٤٠ هجرية ، وقت أن كان يحكم مصر بنو الأخشيدي بعد أن استقل بحكمها الطولونيون بعيدا عن حكم بني العباس .

وعلى الرغم من نشوب القتال بين الطرفين - العراقي والمصري - في مكة ، فقد

تمت مناسك الحج ، وخطب الخطيب بعرفة وهو واقف فوق صناديق العامة من المصريين عوضا عن المنبر الذى سرق ..^(٤٣)

وفي اواخر العصر المملوكى كثرت خلافات المحمل العراقى مع المحمل المصرى ، وكانت لهذه الخلافات عدة اسباب جوهرية هامة ، كما كان لبعضها دوافع واهية وتافهة ..!

ومن تلك الدوافع الواهية والتافهة أن يسبق المحمل المصرى والمحمل الشامى فى أحد المرات المحمل العراقى ، فيحس الأخير بالاهانة ..! وهذا تمام ما حدث فى عام ٨٧٦ هجرية فى عصر السلطان (الأشرف قايتباى) المملوكى .^(٤٤) وفى العام التالى وقعت مشاحنات بين المحمل العراقى والمحمل المصرى ، يقول (عبدالقادر الجزيرى الأنصارى) واصفا تلك الواقعة : « كان أمير المحمل المصرى (برسباى الأشرفى المعلم) وحج العراقيون بمحمل على العادة ، فصددهم أمير الحاج المصرى عن دخول مكة ، وأمر أمير الحاج الشامى أن ينزل بجميع الشاميين بين الحجرتين ، لئلا يدخل الحاج العراقى ، فأقام الى السادس من ذى الحجة ، فلما كانت ليلة السابع أمروا جميع حجاج العراق بالدخول الى مكة ، وتركوا المحمل بقبر أم المؤمنين (ميمونة) - رضى الله عنها - (بسرف) ، واحتاطوا على أمير الحاج العراقى فمسكوه مع دواذره واعتقلوهما ، ودخلوا بهما مكة على راحلتين بهيئتهما ، ثم ذهب بهما أمير الحاج المصرى بصحبته الى القاهرة مع محملهما ..^(٤٥)

نفس الواقعة يصفها (ابن اياس) بطريقة أكثر تفصيلا وأكثر اقناعا مما سبق ذكره ، إذ لم يذكر فيما سبق الدوافع وراء هذا الشجار . يقول (ابن اياس) : « وصل مبشر الحاج وأخبر بأن لما وصل المحمل العراقى ، ودخل الى المدينة الشريفة ، كان أمير ركبهم شخصا يقال له (رستم) ، وصحبته قاض يقال له (احمد بن دحية) ، فضيقوا على قضاة المدينة وأمروهم بأن يخطبوا فى المدينة باسم الملك العادل (حسن الطويل) خادم الحرمين الشريفين - ملك العراق - ، فلما خرجوا من المدينة وقصدوا التوجه الى مكة ، فكاتبوا أهل المدينة أمير مكة بما وقع ، فخرج اليهم الشريف (محمد بن بركات) ولاقاهم من بطن مرو ، قبل أن يدخلوا الى مكة ، وقبض على (رستم) أمير ركب المحمل العراقى ، وقبض على القاضى الذى صحبته ، وعلى جماعة من أعيانهم ، وأودعهم فى الحديد ليبعث بهم الى السلطان ، ثم أطلق بقية من كان فى ركبهم من الحجاج ، ولم يتعرض لهم ..^(٤٦) ويذكر (ابن اياس) عند عودة المحمل المصرى هذا الى القاهرة أن كان معه من الغنائم كسوة للكعبة المشرفة أمر بعملها ملك العراق ..!

هنا يتضح لنا سبب هذا الشجار بين المحمل العراقى والمحمل المصرى . فقد كان العراقيون يريدون أن يُخطب باسم ملكهم فى المدينة المنورة وإعلان هيمنتهم على الأمور ، كما أرادوا أن يعلقوا كسوة للكعبة المشرفة صنعوها ، فى حين أن

مصر قد اختصت وانفردت وحدها بذلك الشرف الرفيع !
وانتهى هذا الخلاف بعد أن قدم ملك العراق اعتذارا عما حدث للسلطان
(الأشرف قايتباي) في رسالة مكتوبة بعثها اليه في شهر المحرم سنة
٨٧٩ هجرية ، بعد أن أقرج السلطان المملوكي عن المقبوض عليهم من العراقيين
في شهر ربيع الآخر سنة ٨٧٨ هجرية .
وكما كانت تحدث خلافات للمحمل العراقي مع الحجاج المصريين ومحملهم
كانت تحدث أيضا مع حجاج الشام .

وكان أبرز تلك الخلافات ما حدث في عهد الدولة الأيوبية عام ٥٨٢ هجرية .
ففي هذا العام ضرب أمير الحج الشامي كوساته وقت نفر من جبل عرفات ، ورفع
راية السلطان (صلاح الدين الأيوبي) ، وهم بالافاضة من عرفات ، غير أن هذا
الموقف لم يرق لأمير الحج العراقي ، ودارت معركة طاحنة بين الركبين سقط
بسببها عدد كبير من القتلى !..

وكانت هناك خلافات بين المحمل العراقي وأهل الحجاز في مرات عدة . فقد حدث
في عام ٧٢٨ هجرية أن أحضر العراقيون جثمان نائب ملك العراق ليدفن عند باب
الرحمة بالمدينة المنورة ، غير أن أمير المدينة لم يمكنه من ذلك إلا بعد استئذان
السلطان (الناصر محمد بن قلاوون) ، ووقفوا بالجثمان في تابوته على جبل
عرفات ، ودخلوا به مكة ليلا ، وطافوا به حول البيت الحرام ، ولم يعرف في
التاريخ أن كان قد تمكن العراقيون من دفنه في أرض الحجاز أم عادوا به أرض
العراق !!^(٤٧)

وكما دخل العراقيون بتابوت نائب ملكهم سرا إلى الأراضي الحجازية ، فقد
عمدوا سرا إلى قياس الكعبة المشرفة طولا وعرضا ، وعدوا عدد أعمدة وأبواب
المسجد الحرام بعد رحيل المحمل المصري سنة ٨٠٧ هجرية .^(٤٨)
كان هذا الفعل غريبا أمام أهل مكة ، ولما سأل أمير مكة (حسن بن عجلان)
عن سبب ذلك عرف أن ملك العراق كان ينوي إرسال جيش عدده عشرة آلاف فارس
صحبة المحمل العراقي ومعهم كسوة عراقية للكعبة المشرفة ، ويبدو أن هذا
العدد الكبير من الجيش كان لاجبار أمير مكة على قبول الكسوة العراقية ومنع
الكسوة المصرية ، ولكن الفكرة ماتت في مهدها ، ولم تخرج إلى حيز التنفيذ ،
ويبدو أن مكاتبة الشريف المكي لأخبار السلطان المملوكي (الناصر فرج
ابن برقوق) بما حدث كان الباعث الأساسي على قتل هذه الفكرة .

ثالثا : المحمل اليمني :

تضاربت الأقوال في تحديد فترة البداية الزمنية لنشأة المحمل اليمني . قال
(قطب الدين محمد بن النهرواني) أنه نشأ في عام ٩٦٣ هجرية بعد أن تولى (مصطفى
النفشار) ولاية اليمن ، والذي كان أمير الحاج المصري عام ٩٦٢ هجرية ، وجاءه الأمر
بترك عودة المحمل المصري للأمير (مراد بك) وذهابه من مكة إلى اليمن عن طريق البر
فورا .

وقال عن (مصطفى النشار) هذا عدة مآثر منها : « انه احدث لحجاج اليمن محملا مثل محمل الحاج المصري والشامي ، ورثب لهم أمير الحاج وقاضى المحمل وعرضة مثل عرضة أمير الحاج المصري والشامي ، فبيرز السيد الشريف صاحب مكة لملاقاة أمير الحاج اليمني بعسكره الى خارج مكة ، في بركة الماجن ، ويلبس الخلعة الشريفة السلطانية من يد أمير الحاج اليمني ، ويدخل معه الى مكة كما يفعل ذلك مع أمير الحاج المصري والشامي ، ويفارقه مولانا السيد الشريف عند المرور على دار السعادة ، ويتوجه أمير الحاج اليمني بمحملة الى ان يصل الى المعلاة ، فينزل عن يمين النازل الى المعلاة في سفح جبل عند البستان المعروف الآن ببستان المدفى بقى منه شجيرات سدر ، ويطلع المحمل مع جماعة المحامل يوم الصعود الى عرفات ، فينزل قبل الوصول الى محطة أهل مكة على يمين الصاعد الى عرفات ، ويحمل وقت الوقفة بعلمه وطبله وزمهره ، ويسير الى نحو جبل الرحمة ، فيقف بجبل عرفات بين يدي من يخطب خطبة عرفة ثلاث محامل : المصري واليمني ثم الشامي ، وافرد لذلك مالا يصرف عليه من الخزائن السلطانية التي تحصل في اليمن ، واستمر ذلك قلنونا جاريا الى الآن ، وكلن من قبل ذلك ياتون للحج من بلاد اليمن بدون أمير الحاج وبدون المحمل ، بل تاتى قافلة يكون لها شيخ من بنى مزروق السادة والمشايخ نفّع الله تعالى ببركتهم » .^(٤٩)

وحدد اللواء (ابراهيم رفعت باشا) في كتابه « مرآة الحرمين » نفس التاريخ وهو عام ٩٦٣ هجرية ، كبداية للمحمل اليمني ، وأضاف انه استمر مجيئه الى مكة حتى سنة ١٠٤٩ هجرية ثم انقطع لما جئ من الفتن .^(٥٠)

وورد في كتاب (درر الفرائد) ان (مصطفى باشا) المعروف باسم (النشار) اعد تجهيز المحمل اليمني بعد انقطاعه في عام ٩٤٩ هجرية .^(٥١) إذن فالمحمل اليمني كان موجودا قبل ذلك التاريخ ، ولم تكن بدايته الحقيقية على يد (مصطفى النشار) هذا المذكور .

وقد ذكر (الفاسى) في كتابه « شفاء الغرام » في حوادث سنة ٨٠٠ هجرية ان « حج محمل لصاحب اليمن الملك الأشرف مع طواشي من جهته ، وفي خدمته الشريف (محمد بن عجلان) وحج معه جماعة من اعيان التجار والفقهاء المكين وغيرهم ، وحصل للحجاج الذين كانوا مع المحمل اليمني عطش بقرب مكة مات فيه جماعة منهم رحمهم الله تعالى ، ووقف بعرفة مع المحامل » .^(٥٢)

بل وقبل ذلك التاريخ ، وفي حوادث عام ٧٨٠ هجرية ذكر صاحب كتاب « درر الفرائد » انه : « لما وصل الحاج الى مكة بلغهم قدوم محمل اليمن وكسوة الكعبة ، جهز ذلك صاحب اليمن (اسماعيل بن الافضل عيسى بن المجاهد) وكلن قد انقطع المحمل اليمني من دهر طويل يكون مقدار ثمانين سنة ، فمنع الأمير (قرة دمرداس الاحمدى) المحمل من الدخول وحجاج اليمن ، فلم يزل السيد (احمد بن عجلان) أمير مكة يتوسط بين المصري واليمني حتى دخل أهل اليمن بمحملهم ووقفوا بعرفات ، ولم تكن فتنة » .^(٥٣)

وإذا قرنا دقة التاريخ الذى حدده صاحب الدرر في كتابه يكون انقطاع المحمل اليمني في عام ٧٠٠ هجرية ، واستمر ذلك حتى عام ٧٨٠ هجرية ، واقدام قاريخ استطعنا الوصول اليه - فيما بين ايدينا من المصادر - للمحمل اليمني هو عام ٦٩٦ هجرية ، حيث ذكر ذلك صاحب كتاب « درر الفرائد » في اشارة سريعة اليه بغير تفاصيل ، فقد قل في حوادث هذه

السنّة : « كان أمير الحاج الشامي (عز الدين كرجي) ، وحج المحمل اليماني ، وعلم الملك المنصور صحبة القائد ابن زنكي » .^(٥٤)

وكان من السهل على حجاج اليمن أن يحجّوا بالبحر - على الرغم من مخاطره - حتى لا يتعرضوا لمخاطر العربان قطاع الطريق البري . وكان هذا الطريق البري ينقسم إلى مراحل ، حيث يبدأ من مدينة (تعز) ، ثم (البئر) ، ثم (وادي الحناء) ، ثم (وادي الموز) الذي يكثر فيه الموز والشراب المسكر ، ثم (زبيد) ، وهي دار الملك ، وبها يجتمع الحجاج اليمنيون ويتكاملون ، ثم (حديدة زبيد) ، ثم (المعازبة) ، ثم (غشال) ، ثم تتوالى المراحل : القحمة - جازان - بياضة - حرص - المحالب - حلي بني يعقوب - ترعة بني حازم - ملتقى الواديين - الحسنة - يللم - وهي ميقات أهل اليمن حيث يحرمون في هذا المكان ويهلون بالتلبية ، ثم يتجهون إلى (بئر علي) ثم إلى مكة المكرمة .^(٥٥)

خلافات المحمل اليماني :

ورث المحمل اليماني خلافات عديدة نشبت على أرض الحجاز ، فقد رأى اليمنيون أن الدولة العباسية أصبحت ضعيفة ، وأن الدولة الأيوبية في مصر انشغلت بحروبها الصليبية ، فتكرر من ملك اليمن منع أعلام الخليفة العباسي من طلوع جبل عرفات ، ومنع حجاج العراق من دخول مكة ، تحت تهديد السلاح . وقيل أنه في عام ٦١٩ هجرية لبس الملك اليماني (اقيس ابن الكامل) الملقب بالمسعود خلع الخليفة وهو في مكة^(٥٦) ويذكر التاريخ أن الملك (المجاهد) صاحب اليمن تحارب مع المحمل المصري فوق جبل عرفات في عام ٧٥١ هجرية ، ولما انهزم اقتادوه إلى القاهرة مكبلا في القيود ، وعندما تصالح والسلطان (الناصر حسن بن قلاوون) وافرج عنه ، أرسل معه زمرة من الجند لتوصيله إلى مكة ، غير أنه غدر بهم عند ينبع بالأراضي الحجازية ، فما كان منهم إلا أن قبضوا عليه ، وأعادوه في الأغلال مرة أخرى إلى القاهرة ، ومنها أرسل إلى سجن الاسكندرية .^(٥٧)

ورغم انقطاع المحمل اليماني ثمانين عاما عن الذهاب إلى الأراضي الحجازية ، إلا أن الخلافات لم تنقطع ولم تزل ، فحينما وصل حجاج المحمل المصري إلى مكة عام ٧٨٠ هجرية « بلغهم قدوم عسكر من اليمن ، وصحبتهم محمل وكسوة للكعبة ، فمنعهم من الدخول إلى مكة أمير الحاج الأمير (قرا دمرداش) فلم يزل الشريف (أحمد ابن عجلان) يتلطف بالأمير (قرا دمرداش) ، حتى أذن لهم في الدخول إلى مكة بمحملهم ، فدخلوا ووقفوا بعرفة ، ثم أن أمير الحاج كسى الكعبة ، وخرج من مكة في يوم عيد النحر ، وخشى من وقوع فتنة بينه وبين صاحب اليمن » .^(٥٨)

كانت المسألة مسألة كرامة حكم ووجاهته وسيادته ، ولأن قلب الحكم المملوكي وثقله الذي يؤثر مركزه في توجيه دفة الأحداث كان في القاهرة ، فكان من الصعب نفسيا أن تمر استفزازات المحمل اليماني مرور الكرام أمام أعين ولاة الأمور في القاهرة . وكان يزيد ذلك الأمر المرير مرارة أن يتخلف في سنة من السنين لسبب أو لآخر المحمل المصري عن الحج . قال (ابن أياس) في أحداث عام ٩١٢ هجرية : « جاءت الأخبار من مكة بأن حضر إلى مكة بسبب الحج جماعة كثيرة من اليمن والعراق ، وغير ذلك من البلاد ، ووقفوا بالجبل ، فتندد السلطان - الغوري - بسبب ذلك لعدم خروج المحمل من القاهرة ، ورأى ذلك في حقه

نقصا بين ملوك اليمن وغيرها .^(٥٩) وكثرت التقلبات السياسية والنزاعات باليمن في العصر العثماني ، ووجد المحمل اليمني كسيرا قد القوه بالقبة المبنية في محل سقاية العباس بالمسجد الحرام سنة ١٠٦٧ هجرية الموافق ١٦٥٦ ميلادية .^(٦٠)

رابعاً : المحمل المغربي :

كان المحمل المغربي يتقسم الى ثلاثة أقسام رئيسية وفق أماكن تجمعها ، وهي : محمل سلجماسه وتافيلاط ومحمل مراكش وفلس ومحمل تطوان وسلا . وكان الحملان الأولان من النوع البري ، بينما المحمل الثالث من النمط البحري .^(٦١)

كانت قوافل الحج المغربية تصب في القاهرة قبلما تصل الى الأراضي الحجازية حتى تأنس بصحبة المحمل المصري في الطريق ، في الذهاب وفي الإياب . وقد تميزت ظاهرة المحامل المغربية بعدة ظواهر ، كان أهمها :

١ - ان التقاء المحامل المغربية في الحواضر الشرقية في مسيرات تختلف بين الذهاب شرقا والإياب غربا - برا وبحرا - وبما يفيد بانتظام السفر بين المغرب والمشرق ذهابا وإيابا على مدار السنة تنقل المراسلات بل والزاد ، فكان هذا الالتقاء فرصة للرحالة المغربية للوقوف على أخبار بلدهم في قطاعاته المختلفة ، فضلا عن نقل أخبارهم الى ذويهم بشكل منظم ومن غير قلق من طول الرحلة في السفر او الإقامة . والملاحظ من الرحلة ان الإقامة بالشرق قد تنوعت بين هدف المجاورة في مكة وهدف التجارة في طرابلس ومصر .

٢ - ان تقابل المحامل المغربية مع غيرها من محامل الحج الجزائرية والتونسية والطرابلسية والمصرية ، بل ومصاحبة بعضها أحيانا ، ومثل هذا التقابل كان يعطى كل محمل الفرصة للوقوف على معالم الحياة في المحامل الأخرى والأخذ منها أو انتقادها أو الدخول في جدل حولها .

٣ - ان تنوع الجدل في هذه المحامل بين المعتقدات المحلية والعادات الشعبية ومظاهر الحكم وحياة الحواضر والبوادي يبرز نظرة المغرب العربي للشرق العثماني وما يدور من حوله .^(٦٢)

ولم يكن هؤلاء الحجاج المغاربة بمعزل عما يدور في مصر أو في غيرها ، ويكفي لإبراز وحدة الشعور القومي بين المغاربة والمصريين الذين تضافروا في ركب واحد على مدار السنين ان نذكر ما حدث في عام ١٢١٣ هجرية بعدما نزل بمصر وباء الحملة الفرنسية التي راحت تقتلع منها كل أخضر ويابس .

قال (الجبرتي) في أحداث شهر ذي القعدة من تلك السنة : « وفيه حضرت مغاربة حجاج الى بر الجيزة فتحدث الناس وكثر لغطهم وتقولوا بأنهم عشرون ألفا حضروا لينقذوا مصر من الفرنسيين ، فأرسل الفرنسيين للكشف عليهم فوجدتهم طائفة من خلایا وقرى فلس مثل الفلاحين ، فأذنوا لهم في تعدية بعض انفار منهم لقضاء أشغالهم ، فحضر شخص منهم الى الفرنسيين ووشى اليهم انهم قدموا لمحاربتهم والجهاد فيهم ، وانهم اشتروا خيلا وسلاحا وقصدهم اثرة فتنة .

فأرسل الفرنسيين اليهم جماعة ينظرون في أمرهم ، فذهبوا اليهم وتكلموا معهم ومع كبيزهم وعن الذي نقل عنهم ، فقالوا : انما جئنا بقصد الحج لا لغيره . ثم رجعوا وصحبتهم كبير للمغاربة فعملوا الديون في صباحها وأحضروهم ، وكذلك أحضروا الرجل

الذى وشى عليهم فتكلموا مع كبير المغاربة ، وسألوه ، وناقشوه ، فقال : إنا لم نأت إلا بقصد الحج . فقل له ولأى شئ تشترون الأسلحة والخيول ، فقال : نعم لازم لنا ذلك ضرورة ، فقل له : انه نقل عنكم انكم تريدون محاربة الفرنسية وتقولون الجهاد افضل من الحج ، فقال هذا كلام لا اصل له ، فقل له : ان الناقل لذلك رجل منكم ، فقال : ان هذا رجل حرامى امسكناه بالسرقة وضربناه ، فحملة الحق على ذلك ، وان هذه البلاد ليست لنا ولا لسلطاننا حتى نقاتل عليها ، ولا يصح ان نقاتلكم بهذه الشرذمة القليلة وليس معنا إلا نصف قنطار بارود . ثم اتفقوا معه على ان يجمعوا سلاحهم ويقيم كبيرهم عندهم رهينة حتى يعدى جماعته ويسافروا ويلحقهم بعد يومين بالسلاح ، فاجابهم الى ذلك ، فشكروه واهدوا له هدية . فلما كان يوم السبت خرجت عدة من العسكر الى بولاق ومعهم مدفعان ليقفوا للمغاربة حتى يعدوا البحر ويمشوا معهم الى العادلية ، فلما رأى الناس خروج العسكر والمدافع فرزعوا في المدينة وبولاق ورمحوا كعادتهم في كرشاتهم وصياحهم ، واشاعوا ان الفرنسيين خرجت لقتال المغاربة ، واغلقوا غالب الأسواق والدكاكين وامثال ذلك من تخيلاتهم ، فلم يعد المغاربة ذلك اليوم وعادوا في ثلثي يوم ، ومشى معهم عسكر الفرنسيين الى العادلية وهم يضربون الطبول وامامهم مدفع وخلفهم مدفع مع جملة من العساكر . (٦٣)

كان هناك نوعان من الحجاج المغاربة يرافقان المحمل المصرى في رحلته الى الاراضى الحجازية .

كان النوع الاول من الاصحاء القادرين على تحمل مشاق السفر برا او من يصنفهم (العيشى) - في رحلته الحجازية لاداء فريضة الحج خلال القرن السابع عشر في ١٠٦٤ هجرية ١٦٥٣ ميلادية ، باهل القوة الذين لهم شقف ومحامل وهوادج ينامون فيها بالليل على ظهور الابل ، ويصحون بالنهار كأنهم مقيمون . والنوع الثانى من الفقراء الذين لا يملكون تكاليف السفر والذين يصحبون القافلة ويعيشون على هامشها وقد وصفهم (العيشى) صاحب كتاب « ماء الموائد » بانهم من الذين « لا ايل لهم ولا امتعة يرافقون الوفد المصرى بالماء المبل فى اوقات من الليل ، وعند الرحيل نهرا مع ما ينالهم من اهل المروعة من التصديق بفضل الاطعمة ، إلا انهم يكابدون مشقة عظيمة فى المشى والسهريلا ، وفى النهار يشتغلون بالسعى على ما يفوتهم فلا يكادون ينامون إلا قليلا » . (٦٤)

كان البعض من المغاربة ممن تيسر له الحال يترك ركب المحمل المصرى عندما يقرب مسيره من السويس ، اما الفقراء فكانوا يواصلون معه السير . (٦٥)

لم تكن علاقة المغاربة بالمحمل المصرى هى وليدة العصر العثمانى وحسب ، بل امتدت هذه العلاقة الى ابعد من ذلك . فقد كان ولاية الامور فى المغرب العربى يصلون الى مصر عند قصدهم حج بيت الله الحرام ، ويلقون فيها من قادتها كل ترحاب وحفاوة وتقدير متبادل . وذكر (ابن اياس) فى حوادث سنة ٧٣٦ هجرية ان زوجة ملك المغرب اتت الى مصر عند توجهها الى الحجاز ، « وحضر صحبتها تقادم حفلة للسلطان ، ومن جملتها اعجوبة وهو ثور اصفر ، فاتح اللون ، كامل الخلقة ، وفى وسط ظهره من الجانب الايمن كتف طالع منه رعوس اضلاعه ، وذلك الكتف بمرفق وذراع ، وجاخر مفروق مثل حافر البقر ، فكان يطوف بالقاهرة ، ويُجبنى عليه كما يُفعل بالسباع ، وكان يطوف القاهرة ، وعليه جل من حرير اصفر » . (٦٦)

وبعد ذلك بعامين ، وفي سنة ٧٢٨ هجرية حجت أم السلطان (أبى الحسن على ابن عثمان المريسى) صاحب فلس ، وتصدرت ركب المحمل المصرى تكريما لها . (٦٧)
وفي حوادث شهر رمضان سنة ٨٠٣ هجرية ذكر (ابن اياس) ان حجاج المغرب عندما وصلوا كان على رأسهم رُسُلُ صاحب تونس بهدية ، منها ستة عشر قرسا ، قُدمت للسلطان ، وقدم معهم نحو ثلثمائة فرس للبيع . (٦٨)

وذكر (ابن اياس) كذلك في حوادث شهر رمضان سنة ٨٧٧ هجرية انه : « وصل ركب من المغاربة من تونس ، وكان صاحبهم الحُرّة زوجة صاحب تونس ، وحضر صاحبها قاضى الجماعة الشيخ (أبو عبدالله محمد بن عمر القلجاني) وكان من فضلاء علماء الملكية ، فأكرمه السلطان (قايتباى) والأمراء ، ورأى من العزّ والعظمة حظا وافرا » . (٦٩)
وفي عصر (محمد على) استمر هذا العرف قائما ، واستمرت العلاقات وطيدة بين القاهرة وأمراء المغرب العربى عند وفودهم اليها للحج .

قال (الجبرتي) في وقائع شهر ذى القعدة سنة ١٢٢٦ هجرية : « وفي سادسة ، حضر أيضا الركب الفلى وفيهم ابن سلطان المغرب مولاي (ابراهيم) ابن مولاي (سليمان) ، فاعتنى الباشا بشأنه ، وأرسل كتحدا بك لملاقاته ، وقدم له تقلام ، واعدوا له منزل (على كاشف) بالقرب من بيت (المحرقى) ، لينزل فيه ، وتقيد بخدمته الرئيس (حسن المحرقى) وجواشيهم لمطبخه وكلف طعامه ، فلما عدى طلع الى القلعة وقابل الباشا ، ونزل الى المنزل الذى اعد له وإمامه قواسة اترك وطرادون وأشخاص اترك يضربون على طبالات وإمامه جميع المغاربة مشاة ، ويأمرون الناس الجالسين بالحوانيت بالقيام له على اقدامهم . فاقام خمسة أيام حتى قضى أشغاله ، وفي تلك المدة تغدو اليه وتروح رسل الباشا ، وأرسل له هدية وذخيرة من كل صنف سكر ، وعسل وسمن ، ودقيق ، وبقسماط وأشياء أخرى ، وبارود ، وأعطى له ألف بنذقية لضرب الرصاص ، وبرز في عشرة ، وسافر في ثلثي عشرة » . (٧٠)

خلافاً المحمل المغربى :

مع كثرة رحلات المغاربة الى الأراضى الحجازية لأداء فريضة الحج نشأت عدة خلافاً بينهم وغيرهم في الطريق الطويل .

ومن أبرز تلك الخلافاً ما حدث في عام ٧٨٥ هجرية في مدينة (ينبع) بالأراضى الحجازية ، فقد حدث أن أمير ينبع (سعد بن أبى الغيث الحسنى) كان قد نزل على الحجاج المغاربة بوادى العقيق ، وسألهم أن يعطوه شيئاً من الدراهم ، فأمسكه شيخ ركب المغاربة ، وربطه من كتفيه بحبل ، وأخذ فرسه من تحته ، وأخذ ماشيا الى خيامه ، فاتاه جماعة كثيرة من قبيلته ، وقتلوا المغاربة أشد القتال ، وقتل من المغاربة جماعة كثيرة ، وخلصوا أمير ينبع من أيديهم ، كما وقعت كذلك معركة أخرى بين المغاربة وحجاج التكرور والصعيدة المصريين كلن من نتيجتها أن أخذ المغاربة أموالهم . (٧١)

وقد نشأت مصدامات بين المغاربة وبعض الفئات في القاهرة في العصر العثمانى في فترة التاهب للسفر بالمحمل المصرى الى الحجاز .

من ذلك مارواه (الجبرتي) في حوادث سنة ١١١٠ هجرية قال : « وفي رابع عشر شوال كانت واقعة المغاربة من أهل تونس وفلس ، وذلك أن من عادتهم أن يحملوا كسوة الكعبة

التي تحمل كل سنة للبيت الحرام ، ويعرون بها في وسط القاهرة ، وتحمل المغاربة جانباً منها للتبرك بها ، ويضربون كل من راوه يشرب الدخان في طريق مرورهم . فراوا رجلاً من اتباع (مصطفى كتحدا القازدغلى) فكسروا أنيوبته ، وتشاجروا معه ، وشجوا رأسه ، وكان في مقدمتهم طائفة منهم متسلحون وزاد التشاجر واتسعت القضية ، وقام عليهم اهل السوق . وحضر (أوده باشا) البوابة فقبض على أكثرهم ووضعهم في الحديد ، وطلع بهم الى الباشا ، واخبروه بالقضية ، فأمر بسحبهم بالعرقانة . فاستمروا حتى سافر الحج من مصر ، ومات منهم جماعة في السجن ، ثم أفرج عن باقيهم . (٧٢)

ولم تكن تلك الحادثة هي الأخيرة ، بل حدث صدام آخر في شهر رمضان عام ١٢٠٢ هجرية ، ولكن في هذه المرة على نحو مختلف .

قال (الجبرتي) يسرد وقائع هذه الحادثة : « وفي خامس عشرينه ، وقع بين طائفة المغاربة الحجاج النازلين بشاطئ النيل ببولاق وبين عسكر القليونية المتقدمين بقلبون (اسماعيل بك) ومعهم نساء يتعاطون المنكرات الشرعية ، فكلمهم المغاربة ، ونهوههم عن فعل القبيح ، وخصوصاً في مثل هذا الشهر ، أو أنهم يتباعدون عنهم ، فضربوا عليهم طبنجات ، فثار عليهم المغاربة ، فهرب القليونية الى مراكبهم ، فنفط المغاربة خلفهم ، واشتبكوا معهم ومسكوا من مسكوه ، وذبحوا من ذبحوه ، ورموه الى البحر ، وقطعوا حبال المراكب ، ورموا صواريخها ، وحصلت زعجة في بولاق تلك الليلة ، واغلقوا الدكاكين ، وقتل من القليونية نحو العشرين ، ومن المغاربة دون ذلك . فلما بلغ (اسماعيل بك) ذلك اغتاط ، وارسل الى المغاربة يأمرهم بالانتقال من مكانهم ، فانتقلوا الى القاهرة ، وسكنوا بالخانات ، فلما كان ثاني يوم ، نزل الأغا والوالى وناديا في الاسواق على المغاربة الحجاج بالخروج من المدينة الى ناحية العدلية ، ولا يقيموا بالبلد ، وكل من أوامهم يستاهل ما يجرى عليه ، فامتنعوا من الخروج ، وقالوا : كيف نخرج الى العدلية ونموت عطشا . وذهب منهم طائفة الى (اسماعيل كتحدا حسن باشا) فارسل الى (اسماعيل بك) بلروضة يترجى عنده فيهم ، فامتنع ، ولم يقبل الشفاعة ، وحلف ان كل من مكث منهم بعد ثلاثة أيام قتله . فتجمعوا احزاباً ، واشتروا اسلحة ، وذهب منهم طائفة الى الشيخ (العروسى) والشيخ (محمد بن الجوهري) فتكلموا مع (اسماعيل بك) فنلدى عليهم بالامان . (٧٣)

ولهاتين الحادثتين اللتين ذكرهما (الجبرتي) مبرراتهما عند البعض منا . فالحجاج المغاربة لم يكونوا يصطدمون في العادة بعناصر من المصريين أو من اسماهم صاحب (عجائب الآثار) باولاد البلد ، وانما كانت صداماتهم تقع مع عناصر عسكرية في خدمة السلطة ، وهي في العادة كانت من العناصر التركية . فهؤلاء المغاربة الحجاج كانوا متشددين بحكم انتماءهم للمذهب المالكي ، وهم نتيجة لهذا التشدد كانوا يرون في بعض سلوكيات اتباع المذاهب الأخرى خروجاً عن الدين أو ما سموه « بالمنكرات الشرعية » مثل التدخين كما جرى في الحادثة الاولى .

ومن ناحية أخرى وهم في طريقهم الى تادية الفريضة المقدسة فقد كان شعورهم الدينى أكثر التهاباً من أولئك الذين يمارسون حياتهم العادية ، وبالتالي فقد كان ما حدث من القليونية بمصاحبتهم النساء في شهر رمضان ما يمكن ان يستفزهم الى اقصى حد . (٧٤)

وبصرف النظر عن مدى صحة هذا التفسير من عدمه لأحداث الخلافات بين الحجاج المغاربة وبعض القطاعات في المجتمع المصري ، فيبقى لقوافل الحج المغربية فضيلة الارتباط بقوافل الحج المصرية والتي ظلت على ترابطها معها حتى فتح قناة السويس عام ١٨٦٩ ميلادية على الأقل .^(٧٩) فبعد أن كان حجاج المغرب وصل عددهم إلى ١٥٠٠ فرد كما ذكر (ابن أبيس) ، قفز هذا الرقم إلى ٤ آلاف فرد كما ذكر (كلوت بك) ، ونتج عن حفر قناة السويس توقف قافلة الحج المصرية بالشكل الذي كانت تذهب به من قبل ، ولم يعد أمام الحجاج سوى طريق البحر حيث يقلعون من السويس متوجهين رأساً إلى جدة . وقد تقلص بهذا دور مصر بالنسبة لركب الحج المغربي إذ تحولت إلى مجرد منطقة عبور إلى الأراضي المقدسة بعد أن كانت نقطة الانطلاق إليها .^(٨٠)

خامساً : المحمل التكروري :

حجاج التكرور الذين اشتهروا بهذا الاسم هم سكان بلاد التكرور ، والتي تقع في أقصى جنوب بلاد المغرب ، وهي جزء من اقليم غانا الحالي^(٨١) ويقال أن أول من حج منهم هو ملكهم (منساو لي بن ملري بن جافلة) في أيام سلطنة السلطان المملوكي (الظاهر بيبرس) ثم ملكهم (ساكبورة) ثم ملكهم (منسا موسى) لما قدم إلى مصر سنة ٧٢٤ هجرية .^(٨٢) ويقال أن هذا الملك حج ومعه خمسة عشر ألفاً من التكرورة .^(٨٣) وقيل أنه طلب منه أن يقبل الأرض في حضرة السلطان المملوكي (الناصر محمد ابن قلاوون) بالقلعة ، فالتفت إلى الترجمان وقال : أنا مالكي المذهب ، ولا أسجد لغير الله ، فأعفاه السلطان من ذلك ، بل وقربه وأكرمه ، وسأله عن سبب مجيئه ، فقال : أردت الحج ، فأمر السلطان المملوكي وزيره أن يجهزه بكل ما يحتاج إليه .^(٨٤)

وقيل أن (منسا موسى) أهدى السلطان المملوكي أربعين ألف مثقال من الذهب وإلى نائبه عشرة آلاف مثقال .^(٨٥)

وقيل أنه كان مع ملك التكرور (منسا موسى) مائة حمل ذهباً ، أنفقها في سفرته تلك .. حتى احتاج إلى القرض ، فاستدان على ذمته من تجار مصر بمالهم عليه فيه المكسب الكثيرة ، بحيث يحصل لأحدهم في كل ثلاثمائة دينار سبعمائة دينار ربحاً ، وبعث إليهم بذلك بعد توجهه إلى بلاده .^(٨٦)

كان عدد حجاج التكرور يتزايد سنة بعد سنة . وقد بدأ العدد بمقدار ١٥٠٠٠ حاج في سنة ٧٢٤ هجرية ، وأصبح ١٧٠٠ حاج في سنة ٨١٩ هجرية ، وكان معهم نحو ٢٠٠٠ من العبيد .^(٨٧)

وقيل أنه في سنة ٨٥٨ هجرية عم مكة سيل عظيم قضى على كل حجاج التكرور عن بكرة أبيهم .^(٨٨)

ولأن حجاج التكرور كانوا يأتون من جنوب مصر فكانوا يصحبون معهم حجاجاً من الصعيد .^(٨٩)



خلافات المحمل التكرورى :

نشأت عدة خلافات للمحمل التكرورى على مدار أسفاره الكثيرة الى الأراضى الحجازية ، مثلما حدث فى عام ٧٢٤ هجرية فى مكة مع الأتراك ، ومثلما حدث فى عام ٧٨٥ هجرية مع المغاربة ، والتي لم يعرف سبب هذه الخلافات ، غير انه ورد فى أحداث التاريخ فى عام ١٠٩٨ هجرية انه رأى ترحيل حجاج التكرور من مكة وقتها بسبب قيامهم ببعض السرقات وعمل السحر .

قال (العصامى المكي) بشأن هذه الحادثة : « وقع النداء بأمر مولانا الشريف أحمد - رحمه الله - أن لا يقيم بمكة أحد من جنس التكرور ، ومن وجد بعد ثلاثة عوقب بالنكال ، فتهيأوا ، واجتمعوا فى اليوم الثالث آخر النهار بطرف المعللة ، وقرعوا الفاتحة ، ثم توجهوا ، البعض الى المدينة المنورة ، والبعض الآخر الى جدة ، والبعض الى قرية الطائف .» (٨٦)

سادسا : المحمل الرومى أو التركى أو العثمانى :

كانت العلاقات بين الدولة العثمانية فى تركيا ودولة سلاطين المماليك فى مصر يغلفها الود والاحترام المتبادلين ، وذلك قبل أن تجتاح ضربات أسياهم رقاب المماليك فى عام ٩٢٢ هجرية .

كانت الرسل والهدايا تروح وتجيء بين اسطمبول والقاهرة ، وهذا ما ذكره المؤرخون لأعوام ٧٨٦ و ٧٨٨ و ٨٠٣ هجرية . (٨٧)

وعلى الرغم من أن المسافة المباشرة لطريق الحج بين العاصمة العثمانية ومكة المكرمة لا تمر بالقاهرة إلا أن هذا لم يجعل ولاية الأمر فى الدولة العثمانية يغفلون اصول طرق أبواب العاصمة المصرية للاستئذان للأمراء عند طلب الحج .

قال (ابن اياس) فى حوادث شهر شوال سنة ٩١٥ هجرية : « وفى يوم الاثنين سابع عشرة خرج المحمل من القاهرة فى تجمل زائد ، وكان أمير ركب المحمل (طقطباى) نائب القلعة أحد المقدمين ، وبالركب الأول (مغلباى الزردكاش) أحد الأمراء الطبلخانات ، فكان لهما يوم مشهود ، وحضر أمير من أمراء ابن عثمان الكبير يروم الحج وصحبته نحو من أربعين ألف دينار أرسلها ابن عثمان على يده ليفرقها على فقراء مكة والمدينة ، فسافر صحبة الحجاج .» (٨٨)

وقد نقل اللواء (ابراهيم رفعت باشا) من صفحة ٥١ من كتاب « خلاصة الكلام فى أخبار البلد الحرام ، للسيد (أحمد بن زينى دحلان) أن المحمل الرومى ابتداء مجيئه الى الحجاز فى سنة ٩٢٣ هجرية ، فى زمن السلطان سليم الأول ، حيث أرسل الأمير (مصلحا بك) بمحمل رومى وكسوة للكعبة وصدقات . (٨٩)

وإذا وقفنا عند تاريخ عام ٩٢٣ هجرية ، وهو عام ما بعد غزو العثمانيين للأراضى المصرية ، وهيمنتها على الأمور فيها ، فسنجد أن الذى حدث كما سجله (ابن اياس) هو أنه فى يوم الاثنين ثانى عشر شهر رمضان من هذا العام « عرض ملك الأمراء (خاير بك) كسوة الكعبة الشريفة والبرقع ومقام ابراهيم عليه السلام ، وكسوة لضريح النبى صلى الله عليه وسلم ، وعدة ستور وكسوة لضريح الخليل عليه السلام ، ومحملا من قبل

ابن عثمان ، وقد تناهوا في زركش البرقع ونسيج الكسوة بخلاف العادة الى الغاية ، فشقوا من القاهرة وقدامهم الاعيان من المباشرين ، والجَم الغفير من العثمانية ، ومن الرماة جماعة كثيرة يرمون بالنفوط ، فشقوا من القاهرة ، وكان ذلك اليوم مشهودا ، فلما طلَعوا الى القلعة عرضوا على (خاير بك) نائب السلطنة ، ثم رجعوا ثانيا من حيث جاءوا ، (٩٠) إن هذا المحمل الذى « من قِبَل ابن عثمان » - على حد تعبير ابن ايلس - والذى وصفه اثناء موكب عرض كسوة الكعبة المشرفة قال عنه ايضا (ابن ايلس) في حوادث شهر شوال من نفس العام ، وقت التاهب للرحيل الى الاراضى الحجازية : وقد جدد ابن عثمان كسوة المحمل في هذه السنة ، فصنع له كسوة فاخرة كلها زركش ، وكتب عليها اسمه ، فلما شقوا من القاهرة كان لهم يوم مشهود على العادة القديمة .. (٩١)

ولا يعنى تجديد كسوة للمحمل ، وكتابة الاسم عليه ان هذا المحمل كان عثمانيا او صار عثمانيا ، بل هو محمل مصر التى أصبحت تحت ادارة الحكم العثمانى منذ ذلك الوقت ، ولا يمكن باى حال من الأحوال ان يكون المحمل العثمانى بداية تسيلره من القاهرة ، بل الأحرى به ان يكون هذا التسيار من قلب العاصمة العثمانية اسلامبول ، كما هي العادة والعرف المتبعين ، لأنه يمثل الدولة حينذاك .

ويحسم هذا الخلاف في ان عام ٩٢٣ هجرية ليس هو بداية المحمل الرومى او التركى ورقة من احدى مخطوطات (السنجارى المكى) بمكتبة الحرم المكى تؤرخ للمحمل الرومى او التركى قبل هذا التاريخ بخمسة أعوام على الأقل .

قال (السنجارى المكى) في حوادث عام ٩١٨ هجرية : « واطلق السلطان (سليم خان) الجماعة الذين كانوا بمصر من اعيان مكة كانوا في الحبس ، منهم القاضى (صلاح الدين بن السعد بن ظهيرة) ، وارسل معهم بعد اكرامهم الى مكة الأمير (مصلح بك) بمحمل رومى وكسوة للكعبة ، واشترى السلطان (سليم خان قرى و اضافها الى قرى بيسوس وسنديس التى اوقفها السلطان (محمد بن قلاوون) على كسوة الكعبة ، فورد الأمير (مصلح) المذكور بالمحمل الرومى ومعه كسوة الكعبة والصدقات الرومية . وتقدم ان اول من ارسل بالصرة الى اهل مكة السلطان (محمد خان بن بيلدرم خان) وكان يرسلها من الروم قبل اخذهم بلاد العرب .. (٩٢)

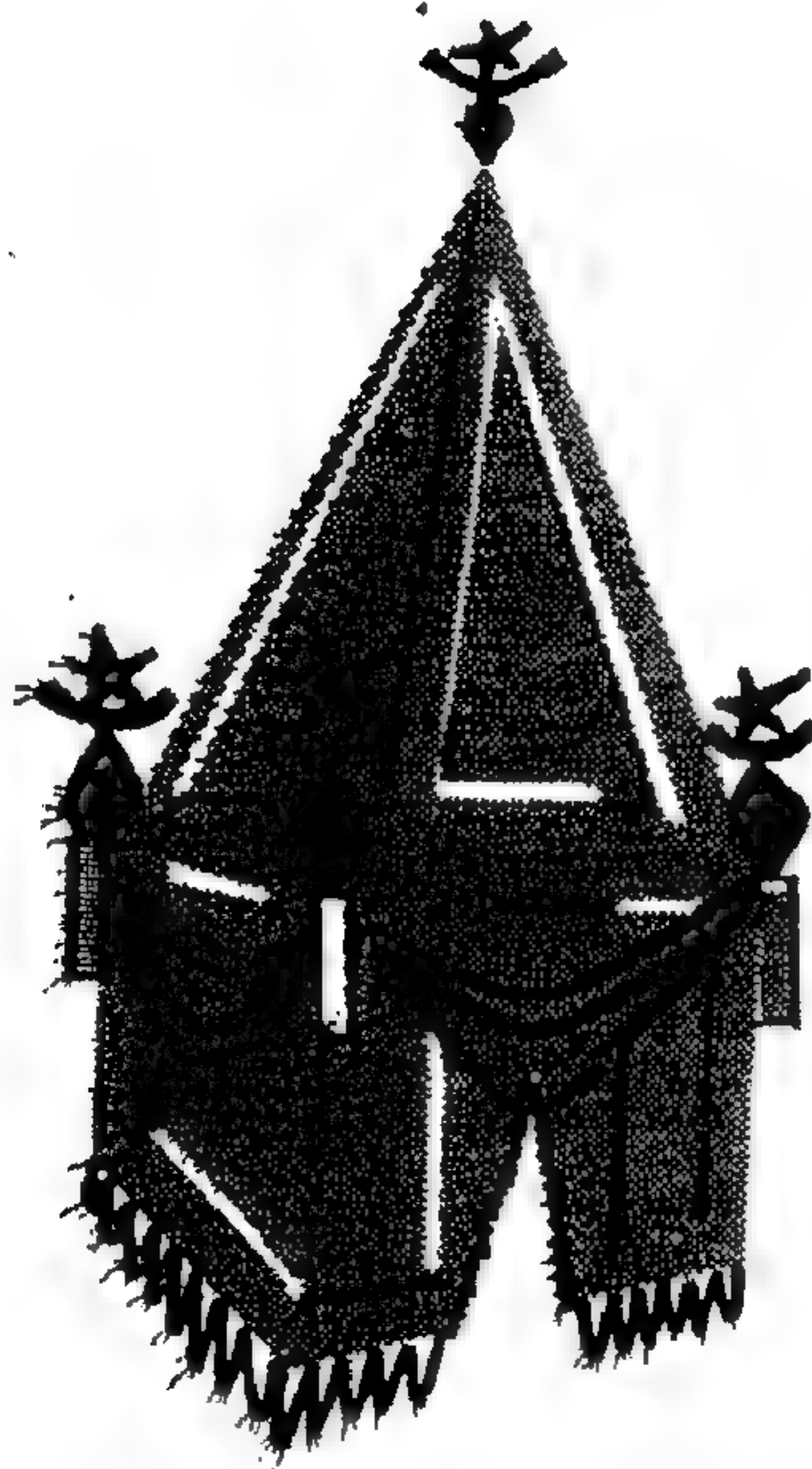
ومن خلال هذا النص يتضح لنا ان العثمانيين او الروم كانوا يرسلون بصرة النقود الى فقراء الحرم ، وهى العادة المتبعة دائما عند ارسال المحمل لاي بلد اسلامى ، وعلى هذا يكون قد تم ارسال المحمل الرومى او العثمانى او التركى في عهد السلطان (محمد خان بن بيلدرم خان) العثمانى .

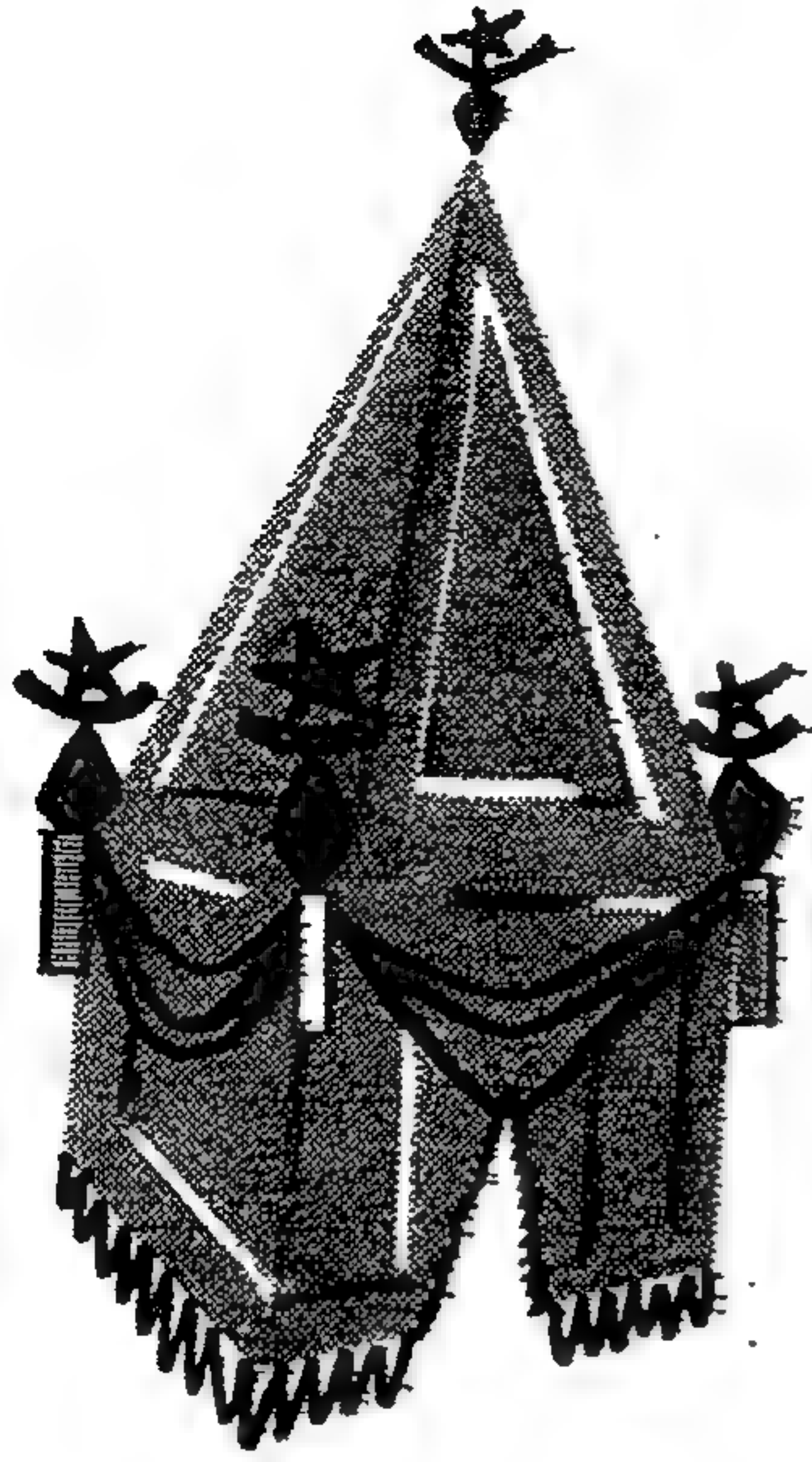
وهذا السلطان العثمانى تولى الحكم في الفترة بين اعوام ١٤١٣ حتى ١٤٢١ ميلادية . اى ٨١٦ حتى ٨٢٤ هجرية ، وهى الفترة المعادلة لفترة حكم السلطان المملوكى (المؤيد شيخ الحمودى) في مصر . (٩٣)

اى ان المحمل الرومى او التركى او العثمانى لم تكن بدايته عند سيطرة الحكم العثمانى على مصر ، بل كان له امتداد تاريخى واكب عصر سلاطين المماليك . ولقد وصف (ابو القاسم الزينى) الرحالة المغربى هذا المحمل من خلال مشاهدته له ، التى سجلها في كتابه « الترجمانة الكبرى » فقال عنه : « وفى اليوم الثانى والعشرين من رجب سنة ١٢٠٨ هجرية امرنا امير الصرة بالخروج بعد صلاة الجمعة ، وخرجت الصرة امامه في

موكب عظيم ومعته الوزراء والأمراء وأهل المذاهب والأعيان وأمامهم الطبول والزمامير ،
وهكذا كان درب الحاج الشامي يأتي بمحملين تركي وشامي .^(٩٤)
ولقد تعرض المحمل الرومي للنهب عام ٧٨٥ هجرية كما ذكر (ابن ايس) ، والقي والى
دمشق (الغزالي) القبض على حجاجه سنة ٩٢٦ هجرية بسبب شجار شب بينهم وأهل
البلاد بعد أن رحل المحمل من دمشق ، ويذكر التاريخ للمحمل الرومي أنه استوطن دمشق
سنة كاملة في عام ١١٢٣ هجرية ، وأثر البقاء فيها على العودة إلى دياره في البلاد
العثمانية ، وهكذا تعرضت العلاقات إلى شد وجذب في أحيان كثيرة .^(٩٥)
وقال المحمل العثماني أو الرومي أو التركي يرسل كل سنة من تركيا حتى توقف نهائياً
عند بداية الحرب العالمية الأولى .^(٩٦)

□ □ □





سابعاً : المحمل المصرى :

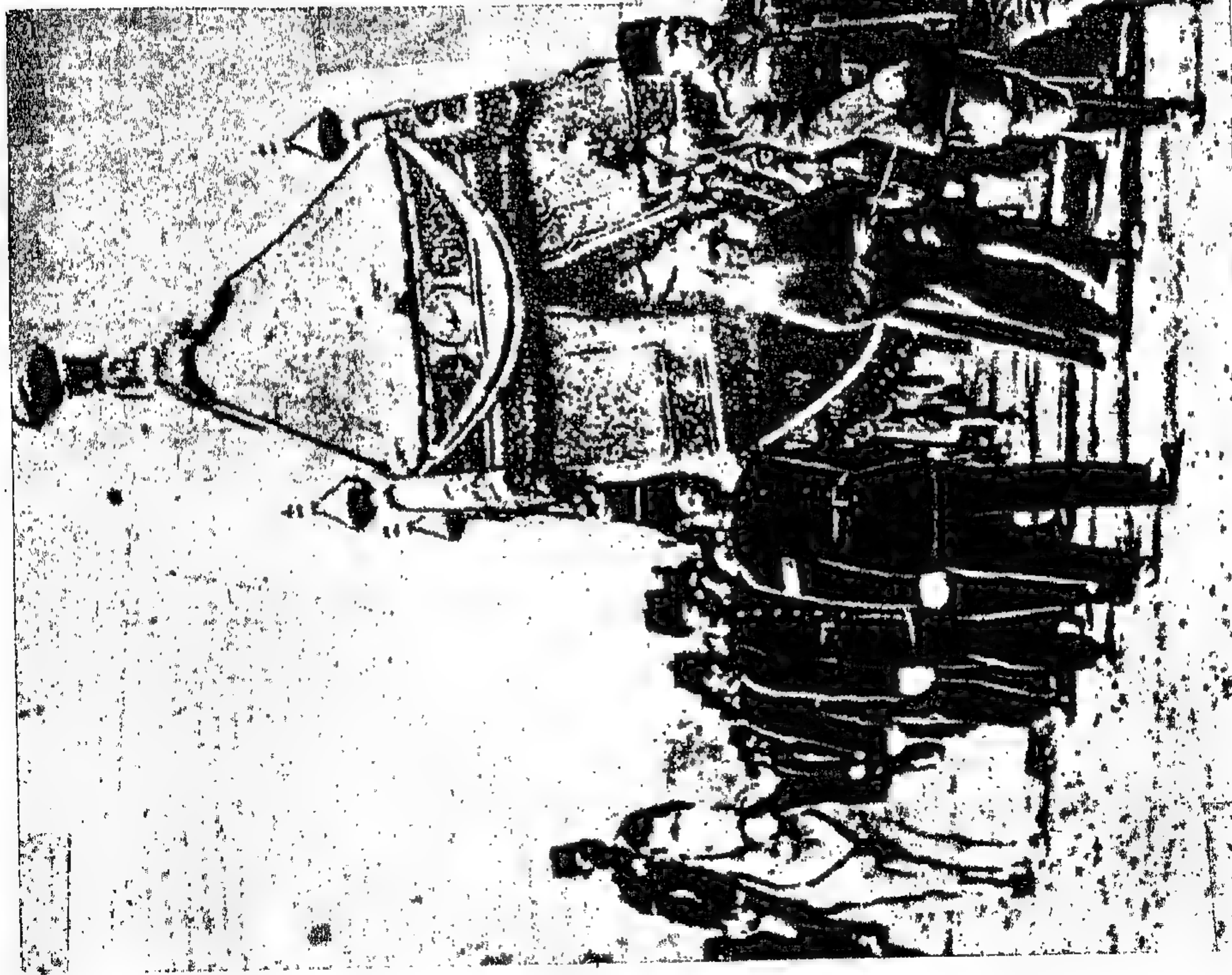
فلق المحمل المصرى كل امثاله من محامل الدول العربية او الاسلاميه فانهم فى تجهيزه ، واعداده ، وتنظيمه ، واحتفالاته ، وعاداته ، وتقليده ، ومعتقداته ، وفلكهم حتى فى اختلافاته ونزاعاته .. !

وبداية ظهور المحمل المصرى فى الوجود غير مؤكدة التحديد ، واختلف فى امرها العديد من المؤرخين .

فقال ابن اول من نظم المحمل مع الحج المصرى وارسل الكسوة للكعبة وحماها بالعسكر : (شجرة الدر) التى حكمت مصر سنة ٦٤٨ هجرية الموافقة ١٢٥٠ ميلادية بعد انتهاء الدولة الايوبية . (٩٧)

ونذكر (المقرئى) ان اول من ادار المحمل الملك (الظاهر بيبرس البندقدارى) . (٩٨) واذا ملوقفنا عند تاريخ ابن ايس فسنجدده يؤرخ لحواث سنة ٦٦٧ هجرية بقيام السلطان المملوكى (الظاهر بيبرس) بالحج وجعل ابنه الملك (السعيد) اميرا للمحمل . (٩٩)

ونذكر (الجبرتى) فى ترجمته للسلطان (الظاهر بيبرس) : « ودخل (بيبرس) مصر سلطانا ، وتلقب بالملك الظاهر ، وذلك سنة ٦٥٨ ، وهو السلطان (ركن الدين ابو الفتح بيبرس البندقدارى الصالحى النجمى) احد المماليك



■ موكب المحمل المصرى عام
■ ١٩٤٧ فى عهد الملك فاروق

البحرية ، وعندما استقر بالقلعة ابطال المظالم والمكوس وجميع المنكرات ، وجهر الحج بعد انقطاعه اثنتى عشرة سنة بسبب فتنة التتار ، وقتل الخليفة ، ومنافقة امير مكة مع التتار . فلما وصلوا الى مكة منعوهم من دخول المحمل ومن كسوة الكعبة ، فقال امير المحمل لامير مكة : اما تخاف من الملك الظاهر بيبرس ؟ فقال : دعه ياتنى على الخيل البلق . فلما رجع امير المحمل واخبر السلطان بما قاله امير مكة ، جمع له في السنة الثانية اربعة عشر الف فرس ابلق ، وجهزهم صحبة امير الحاج ، وخرج بعدهم على ثلاث نوق عشاريات ، فوافاهم عند دخولهم مكة ، وقد منعهم التتار وامير مكة ، فحاربوهم فنصرهم الله عليهم ، وقتل ملك التتار وامير مكة طعنه السلطان بالرمح ، وقال له : انا الملك الظاهر جئتك على الخيل البلق . فوقع الى الأرض وركب السلطان فرسه ، ودخل الى مكة ، وكسا البيت وعاد الى مصر ، (١٠٠)

ورغم درامية تراجيديا هذا الحدث الذى رواه (الجبرتي) في تاريخه إلا أنه يستوقفنا هنا - بعيدا عن الانجراف الى زخارف المواقف البطولية للسلطان المملوكى - امران في غاية الاهمية عند التدقيق والتحقيق في صحة التواريخ المذكورة ، وهما :

الأمر الأول هو : تجهيز الحج بعد انقطاعه ١٢ سنة بسبب فتنة التتار ، وقتل الخليفة العباسى في بغداد سنة ٦٥٧ هجرية .

وعن طريق الحساب - اذا افترضنا صحة ملءاء به (الجبرتي) من تواريخ - يكون تجهيز الحجاج كان يتم قبل عام ٦٤٥ هجرية ايام سلطنة (الصالح نجم الدين ايوب) .

والأمر الثانى هو انقطاع ركب المحمل المصرى قبل ١٢ سنة من حج السلطان (الظاهر بيبرس) في سنة ٦٦٧ هجرية وذلك يرجعنا الى عام ٦٥٥ هجرية ايام سلطنة (المنصور على بن المعز ايبك) بعد وفاة الملكة (شجر الدر) وتوليته السلطنة خلفا لأبيه .

وفي الحالتين لايمكن باى حال من الأحوال ان نخرج بنتيجة مؤكدة لبداية ظهور المحمل المصرى في التاريخ ، لأنه ربما يكون وجوده قبل هذين التاريخين المرجحين ، وهما عام ٦٤٥ هجرية او عام ٦٥٥ هجرية .

واذا كان (المقرئى) قد ذكر ان السلطان (الظاهر بيبرس) هو اول من ادار المحمل فلن تعبّر « دوران المحمل » لايغنى بالضرورة البداية الفعلية لاتخاذ المحمل المصرى وسيلة لارسال كسوة الكعبة المشرفة في صحبة قافلة الحجاج ، وانما الدوران المقصود يكون لذلك الطقس الذى كان يؤديه القائمون على المحمل بادارته سبعة دورات كاملة امام الناس للفرجة .

ويقوى لدينا هذا الظن ما أورده (المقرئى) نفسه في خططه بشأن مجيء الاستاذ (مؤنس الخادم) من بغداد الى مصر ، والذي عاصر هجمة القرامطة على

الكعبة المشرفة سنة ٣١٧ هجرية كما عاصر والى مصر (ابن طنج الأخشيدى)
والذى تولى أمر مصر فى الفترة ما بين عامى ٣٢١ حتى ٣٣٤ هجرية .
قال نقلا عن (ابن زولاق) عن (أبى بكر محمد بن على الملائكى) : انه حج
اثنين وعشرين حجة متوالية ، انفق فى كل حجة مائة الف دينار وخمسين الف
دينار ، انه كان يخرج معه بتسعين ناقه لقبته التى يركبها ، وأربع مائة لجهازهم
وميرته ومعه المحامل فيها أحواض النقل وأحواض البقل وأحواض الرياحين
وكلاب الصيد ، وينفق على الإشراف وأولاد الصحابة ولهم عنده ديوان
باسمائهم ، وانه انفق فى خمس حجرات آخر ألفى الف دينار ومائتى الف دينار ،
وكانت جاريته تواصل معه الحج ، ومعها لنفسها ثلاثون ناقه لقبتها ومائة
 وخمسون عربيا لجهازها ، (١٠١)

فإذا كان هذا الحج بدا فى مصر فى عصر الدولة الأخشيدية إلا يعطينا هذا
تاريخا أقدم من ذلك التاريخ المنسوب إلى السلطان (الظاهر بيبرس) أو الملكة
(شجر الدر) فى بداية تسير المحمل المصرى ؟
وهل تمر هذه الظاهرة مرور الكرام فى عصر الدولة الأخشيدية فى مصر وترصد ،
ولا يحتذى بها سوى بعد فترة زمنية تعادل ثلاثة قرون ونصف ؟
لقد ذكر (ابن ايس) فى حوادث عام ٣٥٦ هجرية أيام الدولة الأخشيدية أن
أعراب (بنى سالم) قطعوا الطريق على الحجاج ، وأخذوا منهم عشرين ألف
بغير ، محملة قماش وبضائع ومالا ، وأسروا الرجال والنساء (١٠٢)
فهل قافلة يمثل هذا الحجم الكبير من الثراء فى موسم الحج ، وبها هذا العدد
الهائل من العير والأبل إلا تعد مقبلة تاريخية أو أرماسة زمنية لميلاد المحمل
المصرى فى زمن مبكر سبق عصر سلاطين المماليك نوى الثقافة الوافدة التى ليس
لها فى العير ولا فى النفير فى تراث البلاد التى يحكمونها ؟

نظام المحمل المصرى :

امتاز المحمل المصرى بالنظام الدقيق فى تكوينه وفى مسيره ، فكل فرد كان فيه
يعرف حدوده وواجباته الملقاة عليه ، ووظيفته المحددة له فى داخل الركب ، منذ
بدايته حتى نهايته . وكان هذا النظام الدقيق يتبع التقسيم الآتى :

١ - أمير الحاج :

هو كبير قافلة الحجاج ومستولها الأول فى كل شئونها ورأس الأمر فيها . وفى
الحديث النبوى الشريف أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : « إذا خرج
ثلاثة فى سفر فليؤمروا أحدهم ، وهذا الحديث رواه (أبو داود) من حديث (أبى
سعيد الخدرى) و (أبى هريرة) رضى الله عنهما ، وروى الإمام (أحمد) فى
المستند عن (عبد الله بن عمر) رضى الله عنهما أن النبى - صلى الله عليه وسلم -

قال : لا يحل لثلاثة يكونون بفلاة عن الأرض إلا أمروا عليهم أحدهم ، . ونظرا لجسامة المسؤولية الملقاة على عاتق أمير الحاج فقد تحدثت له عشر مهام يقوم بها على النحو الآتي : (١٠٣)

أولها : أن يجمع الناس في مسيرهم ونزولهم حتى لا يتفرقوا ، فيخاف عليهم من المفسدين من العربان والسراق ، فإنه يجب أن يعلم أن درب الحاج وطريقه متبوع في ذلك الأوان ، خصوصا في منازل معروفة بالدرب الشريف .
ثانيها : أن يرتب الناس في القافلة في المسير والنزول ، واعطاء كل طائفة منهم محملا معروفا حتى يعرف كل فريق منهم مكانه ، في الإقامة وفي السير ، لئلا يتنازعوا ولا يضلوا عنه ، من أجل راحة الحاج وتفادي الاصطدام والشروع والفتن مع بعضهم بعضا .

ثالثها : أن يرفق بالناس في قافلة الحج ، فإن كان الوقت حارا أو باردا ، خرجا عن المعتاد صبر بهم عن الرحيل مقدار راحتهم واعتدال الوقت ، وإن كان فيهم ضعفاء سار بسير ضعيفهم ، وإن كانت المرحلة المقطوعة عن السير بها مضيق أو وعورة وقف أمير الحاج عند ذلك لتسهيل طرقهم وصرف الصعاب .
رابعها : أن يسلك أمير الحاج بالناس في القافلة أوضح الطرق ولوسعها وأخفها ويحراعي أحوالهم في ذلك ويسير بهم سيرا معتدلا ، ويوصي الأدلاء على ذلك ، ويريحهم في أوقات القيلولة المفردة الحر ، وأوقات الهواء والريح المفردة الشدة وما أشبه ذلك .

خامسها : أن يرتكز أمير الحاج للناس في القافلة المياه والمراعى إذا قلت ، أن كان الركب معطشا والمنهل بعيدا ، أو ليس فيه ماء ، وبالقرب منه مورد للعربان .
سادسها : أن يقوم أمير الحاج بحراسة القافلة إذا نزلت ، ويحوطها إذا رحلت ، حتى لا يتخطفها متلصص ، ويسال المترددين على الدرب وأهل الخبرة عن المحاربين التي تكون طريقا للمفسدين وقطاع الطرق ، فيجهز إليها بعض الفرسان ، ملبسة خيولهم - أن اقتضى الحال ذلك - وإلا بسلاحهم فقط إلى أن يمر الحاج ويجوز ذلك المحرس .

سابعها : أن يكف أمير الحاج عن القافلة من يصدها عن المسير بقتل - أن اقتضى الحال ذلك وقدر عليه - أو ببذل مال - أن اجاب الحجيج إليه - ولا يحل أن يجبر أحدا في بذل الخفارة أن امتنع منها ، لأن بذل المال في الخفارة لا يجب .
ثامنها : أن يجلس أمير الحاج للناس في القافلة في كل دار ومنزلة ليحضر إليه من يشكو جماله فيزيل شكواه ، أو متنازعا فيصلح بينهما ، أو يحيل الأمر إلى قاضي المحمل للفصل في المنازعات التي تحتاج إلى رأيه .

تاسعها : ان يقوم امير الحاج بتأديب الجاني وفق ما يقرره الشرع .
عاشرها : ان يراعى امير الحاج اتساع الوقت حتى يامن قواته ، ولا يلحقهم ضيق الوقت في الحث على المسير .

وكان امير الحاج في اواخر عهد السلطان المملوكي (الغوري) يتقاضى احد عشر الف دينار ، منها عشرة آلاف تصرف على المهام الموكلة اليه ، والـ الف دينار لثمان مائة جمل ، وزيد هذا الراتب الى ثمانية عشر الف دينار عند الفتح العثماني لمصر ، في حين نجد ان مرتب امير الحاج في سنة ١٣٠٧ هـ جرية الموافقة ١٩٨٩ ميلادية قد وصل الى ٤٠٠ جنيه ، وزيدت الى ٥٠٠ جنيه في سنة ١٣٠٨ هـ جرية الموافقة ١٨٩٠ ميلادية . (١٠٤)

وكان امير الحاج يعامل معاملة خاصة ، هو وغلماؤه ومن يقوم على خدمته ، فلا كان يجوز مساءلتهم حتى ولو اقترف الواحد منهم جريمة قتل .. !! . (١٠٥)

٢ - دوا دار امير الحاج :

هو كاتب امير الحاج في المهمات التي يتولاها ، وبالإضافة الى ذلك يقوم بتنظيم سير ركب المحمل ، والطواف على الحجاج ليلا للحراسة او نهارا للمعاونة ، والقبض على السراق والمفسدين ، بل واقامة حدود الشرع عليهم باذن من امير الحاج وكان يختار من العسكر الشجعان ، ومن المشهورين بحسن المعرفة والعقل والمروءة والخبرة .

وكان الدوا دار يحصل على قفطان مذهب من امير الحاج عندما يقوم بمهامه على احسن وجه ، وفي حالة السفر كان من المعتاد ان يأخذ من امير مكة المكرمة من النقد ما يعادل مائة دينار غير الاغنام واما ما كان يأخذ من امير ينبع ثلاثين دينارا ومن الاغنام عشرة .

٣ - قاضي المحمل :

نظرا لان قافلة الحجيج تضم نوعيات مختلفة من الناس يتعاملون سويا خلال فترة الذهاب والاياب من الحج ، فكان من جراء احتدام التعامل والاحتكاك فيما بينهم ان تشتجر الشواجر فيما بين بعضهم البعض ، ولذلك خصصت وظيفة قاضي المحمل ليتولى اصدار الاحكام الشرعية بين الحجيج ، والفصل في المنازعات التي قد تنشأ بينهم .

وكانت هذه الوظيفة يتولاها في ايام دولة المماليك الشراكسة قاض من قضاة المذاهب الاربعة يعينه قاضي القضاة ، ثم صار امير الحج هو الذي يعين من اختاره لشغل هذا المنصب من اولاد العرب ، وعندما استقر الامر للدولة العثمانية في مصر اشرايت اعناق قضاة العثمانيين او قضاة الروم لملء هذا المنصب ، فصار لهم لاينازعهم فيه احد من غيرهم فكان يصدر امرا سلطانيا بتعيينهم لمدة رحلة واحدة فقط ، ولا يتكرر تولية القاضي مرة اخرى .

وكان قاضي المحمل يتقاضى اجرا قدره اربعمائة نصف قضة ، وله جمل من جملة جمال المحمل ، وله قفطان من الشمطا الأوسط يلبسه يوم خروج المحمل من القاهرة ، وكان له في كل مساء اربعة من الفطير او الخمير ، وجرايتان من البقسماط كل جراية ستة عشر رطلا ، غير السكر المكرر او الحلوى التي يتراوح وزنها بين ثلاثة ارطال سكر او اربعة ارطال من الحلوى .

وكان المصطلح عليه امر قضاة المحمل منذ ايام دولة سلاطين المماليك الشراكسة والى اخر ولاية (سليمان باشا) وصدر من ولاية (داود باشا) ان كتابات المعاهدات وجميع مايتعلق بامير الحاج وركبه امرها الى قاضي المحمل من غير منازع ولا مشارك له في ذلك غير الشهود ، وكانت العادة ان يجهر النداء بالقاهرة : من اراد السفر مع ركب الحاج لايعاقد جماله إلا بمعرفة قاضي المحمل ، ومن خالف ذلك فذنبه في عنقه .. !

وقد ساء امر هذه الوظيفة ، اذ طمع فيها كل ذى شان صغير فتردى امرها ، وساعت احكام متوليها الذين كان كل غرضهم الحصول على الاموال من تعاقداتهم مع اصحاب الجمال ، حتى قال فيهم (عبدالقادر الانصارى الجزيرى) شعرا :
فحواه : (١٠٦)

قاض له نفس يلوح اذاها	ايست وفود الله من تقواها
ابتاع احكام الحجيج بمبلغ	جم واعراض الانام فشاهها
احكامه قبحت وسامت سيرة	اذ لم نشاهد مخلصا زكاهها
فلرشوة تاتى بامر واضح	ولفقدتها تبت يدا دعواها
لم يرض إلا بالكثير ولو يكن	خمسين او ستين لم يرضاهها
رجعت به الحجاج في كل عام مضى	وتأملت لمزيد ماواساهها
وتضرعت كل الانام لربها	حتى الجمال شكت الى مولاها

وقد الغيت وظيفة قاضي المحمل منذ طوال القرن العشرين ، واسند امر الفصل في المنازعات والخصومات الى امير الحج .

٤ - شهود المحمل :

كان يختار اثنان من اهل الخبرة والعدالة ليكونا في وظيفة شهود المحمل . قال (القلقشندي) « ان شهود السبيل المعبر عنهم بشهود المحمل ، فانما تكتب لهم مبيعات شريفة من ديوان الوزارة » . (١٠٧)

وقد صار امر تعيينهم بعد ذلك من جانب قاضي المحمل ، وطالب الشيخ (محمد ابن عبدالقادر بن ابراهيم الانصارى) بالا تعزل شهود المحمل بعزل القضاة ، والا يتم تغييرهم الا بعد حدوث وفاة ، وتم له ذلك ، فاستمر السيد الشريف (محب الدين الردينى) فترة اعقبه الشيخ (شمس الدين السديسى) المالكى ثم الشيخ (بدر الدين المحلى) الشافعى ، واماما في شهادة المحمل مدة تقارب العشرين سنة ، وكذلك الشيخ العلامة القاضى (ابو الفتح الردينى) الحنفى

مدة سنوات . وكان لشهود المحمل اجرة جمل من جمال المحمل كلقاضى ، تصرف له من ديوان القلعة ، وكذلك جرايتان ، واما العليق فنتارة كانت تصرف واخرى تمنع ، وكان للشهود طعام يصرف لهم صباحا ومساء كغيرهم واربعة من الفطير ورأسان من السكر . وعندما ساءت امور هذه الوظيفة بطلت بعد ان قيل فيها من الشعر : (١٠٨)

يا لقاضى المحمل والمرضى فى حكمه بالسند الكامل
وفك الله مرضاته مرتفعا عن شاهد جاهل
لا تسند الامر الى فاسق تدم بالحق وبالباطل
٥ - مشرف جمال وخبول المحمل :

وكان من يشغل هذه الوظيفة فى العصر المملوكى يسمى (امير خور) او (امير اخور) ، وهو المختص برعاية امر جمال المحمل وخبوله ، وهو كان يلى الدوا دار فى الرتبة والاهمية ، وكان له مشعل معين كاللوا دار يضىء بركبه ليلا اينما سار . وكان يعملونه افراد يسمىون (الشقرة) للاشراف على تفرقة العليق للدواب وحراستها ومراقبتها اثناء السير فى الطريق ، لئلا يقوم احد بركبها او تاجيرها خلصة !

٦ - مشرف التموين للمحمل :

كان مشرف التموين للمحمل يسمى (الكلارجى) او (شاد السنيح) وهو القائم على شئون تموين بعثة الحج وقافلة المحمل ، وكان يختار من امراء الممالك فى عصرهم ، بحيث تتوافر فيه شروط الامانة والتدبير وعدم التبذير . .
٧ - مشرف المطبخ للمحمل :

وكان القائم على شئون المطبخ للمحمل يسمى (شاد المطبخ) او (اشتدار الصبحية) ، ويقوم باعباء الاشراف على الذبائح ، وتفرقة المخصصات من الطعام على ارباب الرواتب والغلمان بالمحمل . ويعملونه فريق من الطباخين ، وكان يشترك الطباخين فى جلود الذبائح والارقاب ، وكان له معهم عوائد من امير مكة وامير ينبع معروفة ومخصصة .

٨ - مشرف السقائين :

وكان يقوم بهذه المهمة احد الاتراك فى عهد سلاطين المماليك بحيث يكون مسئولا عن جلب الماء القرب عند ابلر المياه وتوزيع المياه على حجاج الركب ، ومن اختصاصه ائلب والدفاع عن السقائين عند النزحام على مناهل المياه .

٩ - منظم سير المحمل :

وهو القائم على تنظيم سير المحمل ، وكان يسمى (شاد المحمل) ، بحيث يحافظ على تمام عدد الركب وما يحمله من اشياء ، وينظم السير عند المضايق ، بحيث يقدم من يشاء من الركب ومؤخر من يرغب فى تأخيرها للحفاظ على نظام سير المحمل .

١٠ - المقدمون على جمال المحمل :

كانت جمال المحمل في العصر المملوكي يبلغ عددها ثمانية وعشرين جملاً ، واحد منها لحمل هيكل المحمل ، وأربعة لحمل كسوة الكعبة المشرفة ، وستة جمال للسقائين ، وجمال لحمل ثوب المحمل أو كسوته ، وللقاضي والشاهدين جمالان ، وجمال لكل من المشرف على المطبخ والحكيم أو المزيّن وحامل الفراش وحامل الاكلان والمراكيب والقمصان ، وستة جمال لفرقة المزمار والكوسات وأربعة جمال للضوئية وحملة المشاعل .

ونظرا لكبر عدد الجمال فكان يختار لها المقدمون على الجمال لخدمتها والعناية بامرها .

وكان يصرف لهؤلاء المقدمين قفاطين مذهبة عند عرض الجمال والسفر ، ول بعضهم جوخ مخيط من الاتباع ، حتى يستطيعوا الوفاء بتبعات عملهم من حمل الامتاع والاثقال في كل وقت يطلب منهم ذلك . وكان يصرف لهم جراية مخصوصة مثل باقي الركب .

١١ - مقدم الضوئية والغشامة :

وهو عبارة عن رجل كان مقدما لرجال المشاعل ، والغشامة هم الذين كانوا يتولون امر المحلبيس بالحديد والاصفاد والسلاسل .

كما كان من وظيفة الضوئية احضار الحطب للمشاعل والمطبخ بالطريق وتكسيروها .

وكان عدد المشاعل اربعة وعشرين مشعلا ، منها خمسة تشعل بالدهن ، اختص منها امير الحج اربعة والخامس للدوادار ، اما بقية المشاعل فتشعل بالحطب لسائر افراد خواص الركب . وقد قيل فيهم شعر فحواء :

واذا بددت مشاعلنا الجمر ثم طلوت بالارض في كل مسرى
وطنتها جمالنا بخطاهنا كرقاب النعام يلقطن جمرا

١٢ - مقدم الهجلة والشقارة :

هو كبير المتسلمين للابل والجمال من الهجلة ورجال الشقارة او مايسمون بالخولة او الخونة ، وكانوا يقومون بوضع الوسم على الجمال ، وهي العلامات المميزة لها او ماكان يسمى بسم (الداغ) ، حيث يتقش بالسكين للتمييز . وكانوا يحصلون في ايام المماليك على احد عشر الف فضة خفضت الى ستة آلاف في عهد الدولة العثمانية .

١٣ - مقدمو القواسة :

كان عددهم ايام الدولة العثمانية عشرة ، منهم اربعة باجر من ديوان السلطنة والباقي بغير ذلك ، وهم اتباع لهم في خدمة امرة الحج مقام العرفاء ، بغرض احضارهم لحمل امرة الحاج المجهز برا او بحرا .

وكانت رواتبهم عند السفر : للمقدم ستون نصفا من الفضة وللاتباع اربعون ، وكانت تصرف لهم عشرة من المخيوط من الجوخ .

١٤ - صبي الباب :

هو نائب امير العائد بالشرقية ، وكان ملازما لباب امير الحج عند طلب عربان الحمل ، معرقا عنهم ، محضرا لهم الى الديوان ، مخبرا عن احوالهم ، وضامنا لهم عند امير الحج . وكان لصبي الباب جوخة مخيوطة عند نهاية خدمته في ايام الدولة المملوكية .

١٥ - الميقاتي والمؤذن :

وهما نفران : أحدهما ميقاتي للاعلام بالوقت والمضى والباقي واختلاف جهة القبلة في بعض مراحل السفر . والثاني مؤذن للاعلام بدخول الوقت عند كل صلاة . وكان يخصص لهما اربعون دينارا ، ولكل نفر هجين ، بخلاف الطعام وخيمة ينزلون بها ، وكان لهما الانعام والاحسان عند قراءة قصة مولد النبي - صلى الله عليه وسلم - بالحرمين الشريفين .

١٦ - طبيب المحمل او الجرائحي :

كان يصحب ركب المحمل طبيب او جرائحي متمكن من صنعته وكذلك كحال وبصحبته الاشربة والعقاقير والمراهم والادمان والاكحال التي كان يطلبها امير الحج من وقف مستشفى (المنصور قلاوون) . وكان له راتب مقداره مائتان من الفضة .

١٧ - مهتار الطشت خانة :

واختصاصه احضار الماء للوضوء وغسل الأيدي عند الاحتياج وهو له اتباع يسافرون معه ليعلونوه .

١٨ - مهتار الشراب خانة :

وهو من يتولى امر المشروب ، وكان من ضمن ادواته : اواني الفضة والصيني والنحاس ، وتم تحديد وتقليل كل ذلك في شخص يقوم بضبط الماء وتبريده في اوقات الحر ، ويحمل اليه السكر من المطبخ عند الاحتياج . وكان يتقاضى عشرين دينارا .

وقد تفرع من هذه الوظيفة وظيفة اخرى في العصر العثماني ، وهي وظيفة (الاظلم باشا) ، وهو الموظف الذي عليه ان يسير امام ركب المحمل ومعه المرطبات للأمير والحجاج ، من قبل الباشا ، وبترشيح من البكوات ، ويصل هذا الموظف الى منطقة اظلم او قلعة الازلم - جنوب العقبة والتي اشتق منها اسمه - قبل وصول المحمل اليها بيومين ، وفيما مضى كان المحمل يصل الى طابية العقبة موظف آخر ومعه مؤن اخرى ، وعندما الغى (على بك) اعتماد هذا الأخير ، وجمع منصبي وراتبي هذين المبعوثين ، لم يعد الحجاج يجدون المرطبات التي حرص السلطان العثماني على توفيرها لهم إلا في (اظلم باشا) كما يتولى (الاظلم باشا) نقل المأكولات التي يجلبها ، وكان راتبه ٣,٢١٨,٨٢٨ مدينى ،

وكان يحمي موكبه حرس يتكون من ستين مملوكا ، ومن ثلاث قطع من المدفعية ، ويصحب في موكبه فرقة موسيقية يحملها اثنا عشر جملا ، وتشتمل على عدة طبول او صناديق من احجام مختلفة ، وبوقين اونفيرين ، ودفين ، ومزمارين ، وتطلق هذه الفرقة انغاما كثيرة عندما يصل المحمل الى الازلم او الى العقبة . وفي الازمنة الاخيرة من العصر العثماني كان (الاظلم باشا) يحصل على ولاية الشرقية عقب (رجوعه من رحلته باعتبار ذلك حقا قانونيا له . (١٠٩)

١٩ - مهتار الفراشخانة والفراشون :

ويختص بتدبير انواع الخيام اللازمة والاشاير المطلوبة من القناديل للأعلام بدخول اوقات الراحة من مشقة الاسفار وورود منازل المياه ، وفي هذه الاشارات او الاشاير قال الشاعر :

لما وصلنا الى الدار التي نزلت وقد سئمتنا من الترحال في الظلم
واخبرتنا إشارات محققة ان المطايا المتنا على الخيم
نادى البشير عبرت الدار وهو بها وفي الاشارات ما يغني عن الكلم
٢٠ - الطباخون :

وكان لهم كبير ينعت بلقب (المعلم) ومهمتهم توزيع الطعام عند وقت تناوله بعد اعداده وطبخه . وكان لديهم العديد من اواني الطبخ : مثل الصحون النحاسية والحلل والطناجير والطبايى الخشب وغيرها .
٢١ - الزدكاش :

وينعت في اللغة التركية (جيچى باشا) وهو القائم على مهمات السلاح وما يحتاج اليه من ادوات الحرب ولبوس الخيل ، وكان اقل عدد يسافر صحبة المحمل عشرين فردا .
٢٢ - النفطى :

وهو البارودى الذى مهمته حمل الاحراقات من القلاع والصواريخ وغيرها من لزوم الاحتفال والابتهاج عند الوداع والرحيل . وكان في العصر المملوكى تقام اربعة احراقات : اولها بركة الحجاج لاجتماع المودعين بها ، والثانية بمدينة (ينبع) بالحجاز وقد بطلت ، والثالثة وهى الكبرى بمنى ليلة الرحيل منه الى مكة المكرمة ، والرابعة عند العودة في سيناء عند ايلات .
وقد زيدت هذه الاحراقات في عهد الدولة العثمانية احراقة في عرفات لأن الموقف يجمع الناس من كل اقطار الأرض ، ورأى امير الحج ان الناس كانوا يوقدون في تلك الليلة من الشموع الكثيرة والاشاير الكبيرة فاضاف الى ذلك احراقة يصحبها اطلاق البنادق من المحمل المصرى والشامى .

٢٣ - مهتار الركاب خانة :

وهو قائد السيلس والمختص باستلام لوازم الخيل من السروج والالجمة والركائب ، وكان السيلس لا يقلون في عددهم عن ثلاثة في ركب المحمل .

٢٤ - الشعراء :

وهما نفران من اتباع مقدم الهجاة ، وكان من المعتاد ان يكونا مع اول الهجن الخاص في البداية للرحلة ، ثم مع امير الركب بقية الأيام ، يسرون معه اينما سار .

٢٥ - الطبول خاتة :

كانت تسمى الطبول المصرية ، وكانت تلازم العلم السلطاني ، ومكوناتها : طبلان وزمران ونقارة هذا في العصر المملوكي . اما في العصر العثماني فضمت الى الركب الطبول الرومية او العثمانية ، وجعلت مع العلم السلطاني ، في حين قدمت الطبول المصرية في اول الركب . وكان يصاحب دقها كوسلت المحمل منذ عصر سلاطين المماليك .

ويقال ان القصد من وضع الطبول في ركب المحمل هو ارباب المفسدين وقطاع الطريق .

٢٦ - البيطار :

نظرا لما كان يضمه المحمل من عدد كبير من الخيول ، فكان لزاما على الركب اصطحاب طبيب بيطري للاشراف على وضع حداويها . وكان راتب البيطار يصل الى ثلاثين دينارا .

٢٧ - الخباز :

ومهمته توزيع الخبز بعد عمله على القائمين على شئون المحمل عند المناهل . اما عند غير المناهل فكان يقوم بتوزيع البقسماط .

٢٨ - الكيالون :

كانت مهمة الكيالين تشوين غلال المحمل واحضار اصحاب الدواب لنقلها والمغربلين لغربلتها والجراشين لجرشها ، وعيار الكيالات وتقييدها او خروجها من العهدة عند الاستهلاك ، وسد العجز ان حدث نقص في عهدة الغلال . وكان لكل كيال راتب محدد يبلغ نحو خمسة وعشرين دينارا .

٢٩ - نجار المطبخ :

كان يسافر مع ركب المحمل نجار لترميم ما عساه ينصدع او يتغير من اخشاب تحتاج الى اصلاح . وكان راتبه عشرين دينارا .

٣٠ - نجار الكور :

مثل نجار المطبخ ، ولكنه مخصص لاصلاح ما ينكسر من الأكوار في وقته اولا باول . وكان راتبه خمسة وعشرين دينارا - وبطلت هذه المهنة في زمن الدولة العثمانية ، واوكلت الى نجار المطبخ تبعاتها .

٣١ - خولى الأغنام :

وهو المختص بحفظ الأغنام وعليها . وكان راتبه مائة وخمسين نصف فضة ، غير الجراية وتخصيص جمل لركوبه .

٣٢ - الجزار :

كان يسمى (الزفورى) فى عهد سلاطين المماليك ، ومهمته ذبح الذبائح يسكن حلا ، ويحسن ويتقن الذبح .

٣٣ - السعاة او الادلاء :

وهم الذين يعرفون مسالك الطريق وتعاريجه واستقاماته . وكان لهم اقتطاع من السلطنة مخصص لهم ، وكانوا يتقاضون فى زمن الحملة الفرنسية على مصر مبلغ وقدره (١٢٥٦) مدينا ، اى ٤٤,٢٢٥ فرنكا . (١٠٧)

٣٤ - المبشرون بالدار :

وهم جماعة متعددة من المتصوفة واهل الصلاح . وكان يخصص لهم الركوب والجرابة ولكنهم كانوا بلا مرتبات مخصصة .

٣٥ - المبيطة :

هو رجل تابع لمقدم الضوئية ، مهمته الجهر بالنداء للركب عند الاحتياج اليه ، والطواف على القافلة ليلا مع العسس وحده .

٣٦ - مبشر الحجاج :

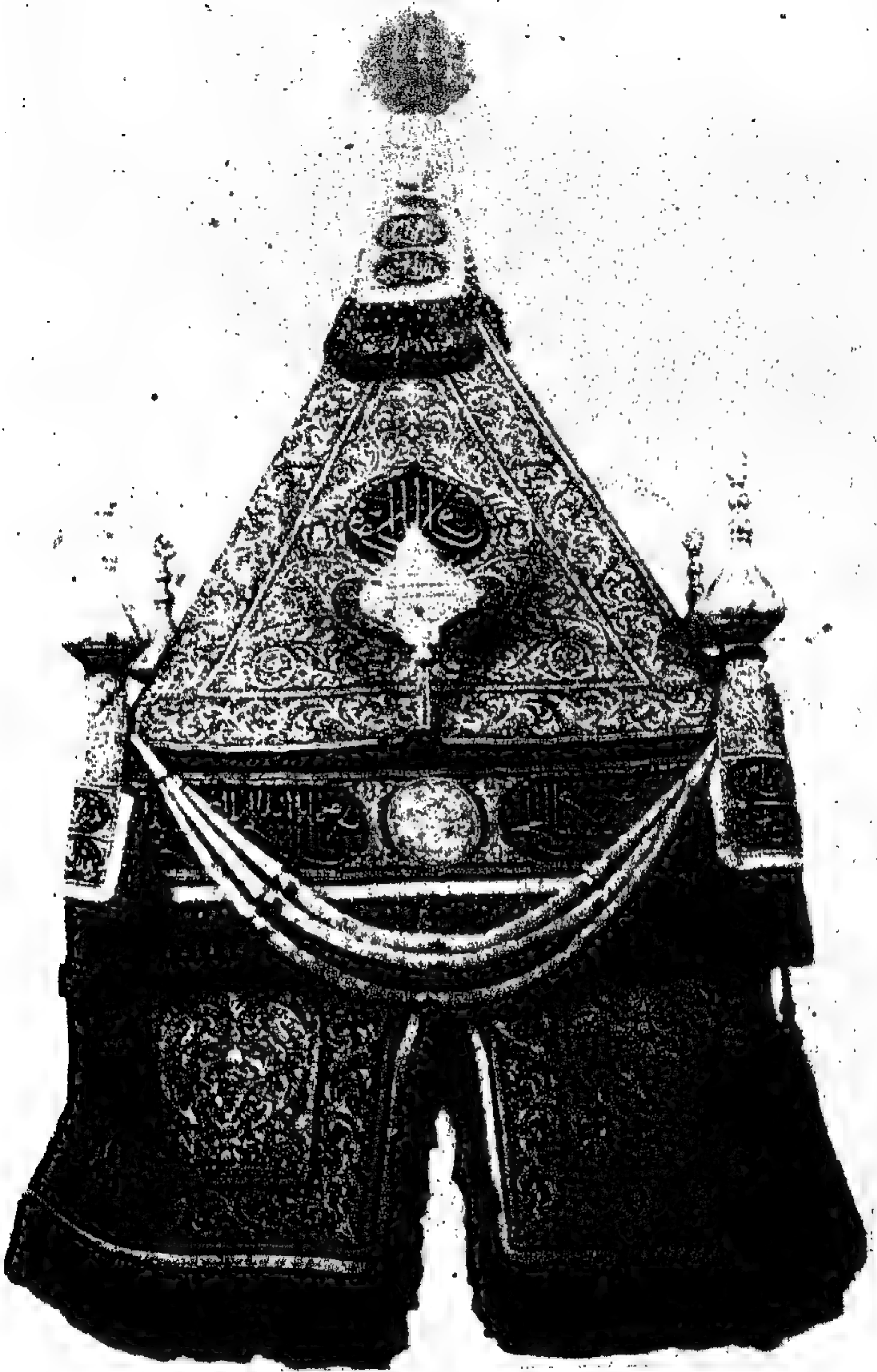
كان ينعم بهذه الوظيفة السلطان المملوكى على من اراد ان يشمله بالنعيم والهبات . نظرا لما كان يحصل عليه . وكانت مهمته تنحصر فى التبليغ قبل وصول ركب المحمل عن احوال الحجاج وملحده بشانهم من سرقات او قطع طريق او مرض او وفاة ، واحوال الامراء بالاراضى الحجازية .

وكان من العوائد القديمة فى تجهيز مبشر الحاج انه كان لايتأخر عن يوم منى بل يتوجه اذ ذاك للبشارة .

ولقد وصف (ادوارد ولیم لين) مبشر الحج فى عصر (محمد على) فقال عنه : « ويصل (جاویش الحج) قبل القافلة بأربعة ايام او خمسة راكبا هجينا سريعا ويصاحبه عربيلان ، وهو يسرع ليعلن نبا قرب الحجاج ، واليوم المنتظر لوصولهم العاصمة ، وليحمل رسائل الحجاج الى اصدقائهم . ويصيح الجاویش وزميله طول الطريق : (الصلاة على النبى) او (صل على النبى) فيرد من يسمعه من المسلمين : (اللهم صل عليه) ، ويتقدمون مباشرة الى القلعة لحمل الاخبار الى الباشا او نائبه . ويقسم الجاویش الرسائل الى رزم يبيعها الى نفر يتولون توزيعها فيتناولون الهدايا من المرسل اليهم ، وقد يخسر هؤلاء فى هذه الصفقة . اما الرسائل الموجهة الى العظماء والاغنياء فيحتفظ الجاویش بتوزيعها لنفسه ، فيحصل منهم على منحة نقدية او شال ... الخ ، (١١٠)

المحمل المصرى شكله وهيكله وكسوته وعلمه أو بيرقة :

وصف الرحالة الانجليزى (ادوارد ولیم لين) المحمل المصرى سنة ١٢٥٠ هجرية الموافقة ١٨٣٤ ميلادية فقال : « هو اطار مربع من الخشب هرمى القمة ، له ستر من الديباج الاسود ، عليه كتابة وزخارف مطرزة تطريزا فاخرا بالذهب .



هَيْكَلُ وَكْسُوَةِ الْمَحْمَلِ الْمِصْرِيِّ عَامَ ١٩٢٥ مِيلَادِيَّةٍ فِي عَهْدِ الْمَلِكِ فَوْادٍ

على ارضية من الحرير الأخضر او الأحمر في بعض الأجزاء ، ويحده هدية حريرية ، وشراريب يعلوها كرات فضية . وزخرفة الستر لا تكون دائما على النموذج نفسه ، غير اننى لاحظت أن كل ستر رأيتة يحمل في قسمه الاعلا من الصدر منظرا لمسجد مكة (يقصد الكعبة المشرفة) مطرزا بالذهب ، ويعلوه طغراء السلطان . والمحمل لا يحوى شيئا ، غير ان هناك مصحفين صغيرين ، احدهما قرطاس ملفوف ، والآخر كتاب عادى داخل صندوقين من الفضة المذهبة . يعلقان خارج المحمل في القمة ، وتكون الكرات الخمس واهلقتها التى تزين المحمل من الفضة المذهبة . ويحمل المحمل على جمل طويل جميل ، (١١١)

واذا كان هكذا استطاع المستشرق الانجليزى (ادوارد وليم لين) أن يصف المحمل المصرى ، وهو فى النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجرى الموافق النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادى ، فكيف اذا يكون وصف المحمل إذا رايناه بانفسنا ، ووصفناه نحن المصريون ، ونحن على مشارف القرن الواحد والعشرين ؟!

فى الحقيقة ، انه من خلال المشاهدة والفحص المتمهل للمحمل المصرى الموجود الآن بالمتحف الأثنوجرافى التابع للجمعية الجغرافية بالقاهرة نستطيع ان نصفه على النحو الآتى : (١١٢)

هو هيكل خشبى مجوف ، يتشكل عن طريق عوارض افقية ورأسية ومائلة ، سمك كل منها ١٠ سنتيمترات ، وهذا الهيكل الخشبى يتكون من جزئين رئيسيين : الجزء الأول وهو السفلى منه منشورى الشكل ، طوله ١,٧٥ مترا ، وعرضه ١,٣٠ مترا وارتفاعه ١,٦٢ مترا . والجزء الأخير العلوى عبارة عن هرم ارتفاعه ١,٩٥ مترا ، وقاعدته مستطيلة الشكل طولها ١,٧٥ مترا ، وعرضها ١,٣٠ مترا .

ويكسو الجزئين المنشورى والهرمى معا ستر من الحرير ضاعت الآن معالم لونه ، وان كان يبدو أخضر اللون ، وهو مشغول ومزركش بخيوط المخيش المذهبة والفضية ، والتى تشغل معظم مساحة هذا الستر الحريرى ، حتى تكاد هذه الزركشة ان تغطي على قماشه جميعه .

بأعلى الجزء الأول وهو المنشورى توجد كتابات قرآنية بالخط الثلث داخل اطار سمكه سبعة وعشرون سنتيمترا ، وهذه الكتابات القرآنية تحيط بالمحمل من جوانبه الأربعة على النحو الآتى :

١ - الواجهة الأمامية مكتوب فيها « بسم الله الرحمن الرحيم . الله لا اله إلا هو » ثم دائرة مزركشة بالمخيش الفضى قطرها الخارجى ٢٣,٥٠ سنتيمترا ، وقطرها الداخلى ١٩ سنتيمترا ، ومكتوب فى داخلها عبارة « الله ربى » بالمخيش الفضى ، ثم يلى ذلك بقية الآية القرآنية الكريمة ، وهى عبارة عن « الحى القيوم لاتأخذه سنة ولا نوم »

٢ - في الجانب الأيمن مكتوب : له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه .

٣ - في الواجهة الخلفية مكتوب : « يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون » ، ثم دائرة مزركشة بالمخيش الفضي بنفس مقاسات الدائرة التي في الواجهة الأمامية ، غير أنها مكتوب في داخلها عبارة « محمد نبي » ، ثم بقية الآية القرآنية الكريمة ، وهي عبارة بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه .

٤ - وفي الجانب الأيسر مكتوب تكملة الآية : « السموات والأرض ولا يؤده حفظهما وهو العلي العظيم ،

أما في الواجهة الأمامية الهرمية العلوية فتوجد عبارتان ، الأولى : « عمل هذا الستر للمحمل الشريف مولانا السلطان » ، وهذه العبارة موضوعة داخل شكل شبه نصف بيضاوي قوسه لأعلى ، والعبارة الثانية بخط ذي حجم أكبر داخل شكل بيضاوي ، وهي عبارة « فؤاد الأول » وتحتها في نفس الشكل البيضاوي مكتوب « ١٣٣٦ » .

وهذا التاريخ الهجري يوافق عام ١٩١٨ ميلادي ، وهو بالطبع ليس تاريخ صنع المحمل ، وإنما هو تاريخ تجديد الكتابة على ستر المحمل نفسه .
أما تاريخ صنع هذا المحمل فللمرجح أن يكون هو عام ١٢٩٢ هجرية الموافق عام ١٨٧٥ ميلادية في عصر الخديو (اسماعيل) وهو التاريخ المكتوب على القطعة النحاسية والتي تتوسط الجزء العلوي الهرمي من المحمل ، وربما قد يكون تاريخ الصنع قبل هذا التاريخ ، حيث أن هذا التاريخ هو أقدم تاريخ موجود على هيكل المحمل ، وهذه القطعة النحاسية سهلة الرفع والتبديل والتغيير وربما تكون قد استبدلت ضمن التغييرات الكثيرة التي تمت به ضمن أعمال صيانة المحمل والتي كانت تتم تباعا .

وفي هذه القطعة النحاسية توجد كتابات في ثمانية أسطر . السطر الأول مكتوب فيه عبارة « يا الله » ، والسطر الثاني عبارة « ماشاء الله » ، والسطر الثالث عبارة « لا إله إلا الله » ، والسطر الرابع عبارة « محمد رسول الله » ، والسطر الخامس عبارة « نصر من الله » ، والسطر السادس عبارة « وفتح قريب وبشر المؤمنين » ، والسطر السابع عبارة « محمد » ، والسطر الثامن والأخير عبارة « سنة ١٢٩٢ » ، وهذه الكتابات أخذت سطورها الشكل الهرمي ، قمته لفظ الجلالة « يا الله » وقاعدته عبارة « وفتح قريب وبشر المؤمنين » .

وفي ركن اللوحة النحاسية الأيسر عبارة « لاشريك له » وهي مكتوبة من أعلى لأسفل في وضع كتابة رأسي ، كما يتوازن معها في الركن الأيمن عبارة « وحده » ، وهي مكتوبة من أسفل إلى أعلى في وضع كتابة رأسي أيضا ، ولكن على عكس العبارة الأولى .

ويحيط بالمحمل أربعة قوائم خشبية مركب عليها أربعة اشكال مخروطية من مادة النحاس يعتلي كل منها هلال ، يداخله نجمة خماسية نحاسية ومحيط هذا الشكل المخروطي عند اكبر قطر لقاعدته ٢٨ سنتيمترا ، وارتفاع هذا القائم ٧٨ سنتيمترا ، كما يعلو قمة الشكل الهرمي شكل مخروطي آخر ، ولكنه اكبر من حيث الحجم من الاشكال المخروطية الأربعة بارتفاع يبلغ حوالي متر واحد . وقوائم الأركان النحاسية الأربع يتنيلها أربعة كسوات مزركشة بخيوط المخيش الفضية بارتفاع ٥٥ سنتيمترا وعرض ٢٥ سنتيمترا ، ومكتوب في سطرين منها عبارتا « لا اله الا الله » وذلك في السطر العلوي أما في السطر السفلي فنجد عبارة « محمد رسول الله » وينفخ هذه النوعية عن الكسوة يكسى الجزء الهرمي من اعلاه من الامام والخلف بكسوتين تحملان نفس العبارات السابقة في كل منهما .

وتتنيل المحمل شراريب على امتداد محيطه السفلي بارتفاع ٢١ سنتيمترا ، مصنوعة من خيوط القصب الأصفر اللون ، كما تتنيل شريط الكتابات القرآنية كذلك بنفس الارتفاع .

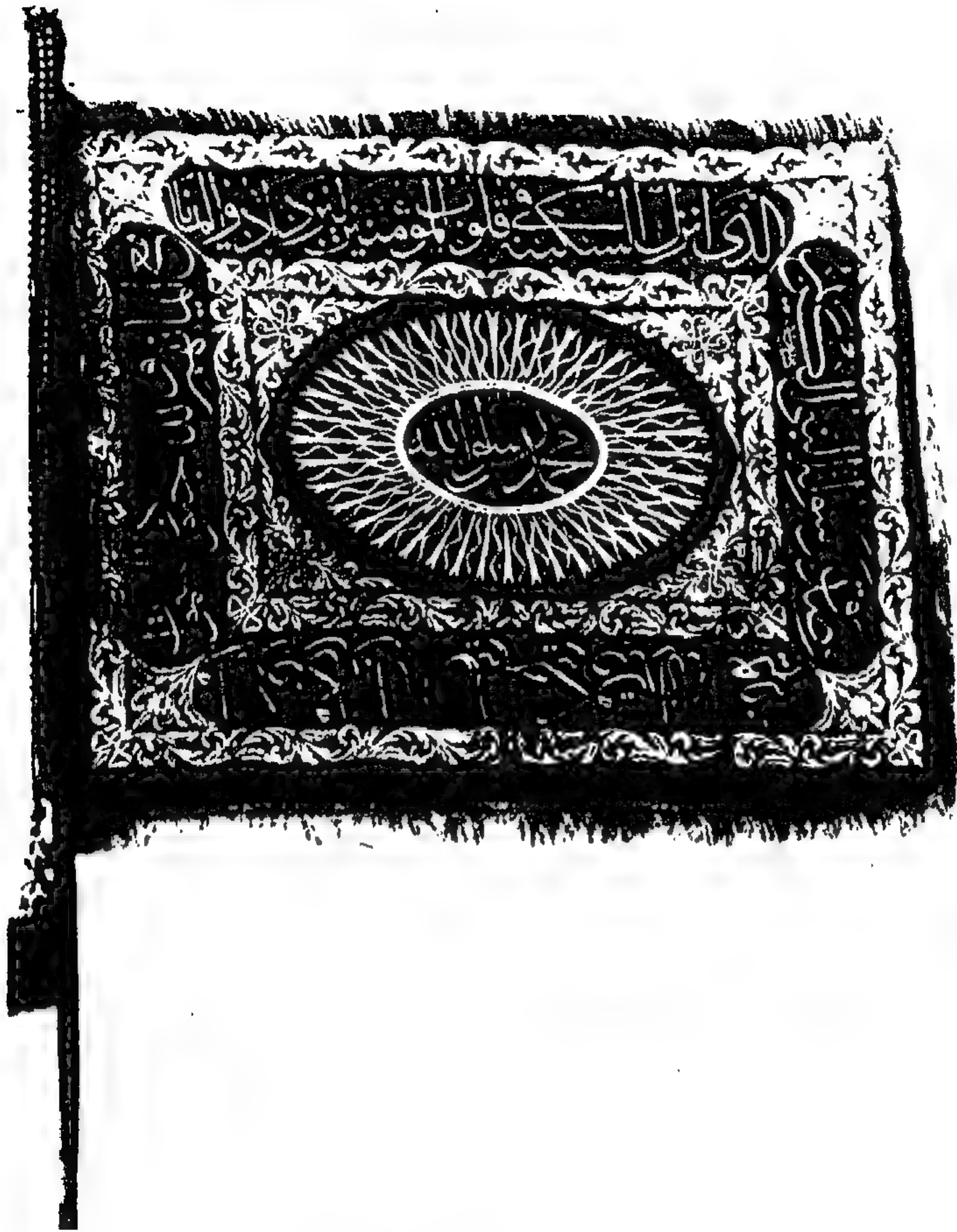
ويوجد كنار أصفر اللون بسمك ٣ سنتيمترات وهو تحت الحزام المكتوب بالمخيش بأية الكرسي . وهذا الكنار يحيط بستر الجزء السفلي من كسوة المحمل بنفس السمك .

وقد لاحظنا ان عقود الجمل مزركش كذلك بخيوط المخيش الفضية بنفس سمات بزركشة كسوة المحمل ومن نفس القماش كما لاحظنا ان جميع البطانة الداخلية لكسوة المحمل من الحرير ذي اللون الأصفر . اما بطانة كسوة القوائم الرأسية فهي من الحرير الأحمر اللون .

وقد بحثنا أثناء الفحص للمحمل عن منظر مسجد مكة الذي وصفه الرحالة الانجليزى (إدوارد وليم لين) على كل ستر له فلم نجده ، فرجحنا في البداية ان يكون القصد هو تشبيه الكتابة بأية الكرسي على كسوة المحمل بتلك الزركشة التي توجد على أحزمة ستائر كسوة الكعبة المشرفة ، وظننا ان دقة التعبير قد خانت (إدوارد وليم لين) ولكن بالرجوع الى شكل المحمل الذي رسمه (إدوارد وليم لين) بنفسه وجدنا شكل الكعبة المشرفة مرسوما على الجزء العلوى الهرمي الامامى من كسوة المحمل ، وبالطبع وضعت ستة التغير والتبديل بصماتها على كسوة المحمل ، وسبحان من لا يتبدل ولا يتغير (انظر الشكل المرسوم ص ٢٠٤) . اما علم المحمل او بيرقه ، فكان يصاحب علم الكسوة علم بيرق مميز لقافلة الحجيج . وهذا البيرق له شكل خاص يمكن ان نتوقف عنده .

بيرق المحمل :

هذا البيرق مصنوع من القماش المزركش بزركشة نباتية وكتلية وهندسية ويلاحظ على هذا البيرق ان زركشته التي على وجهيه على النحو الآتى :

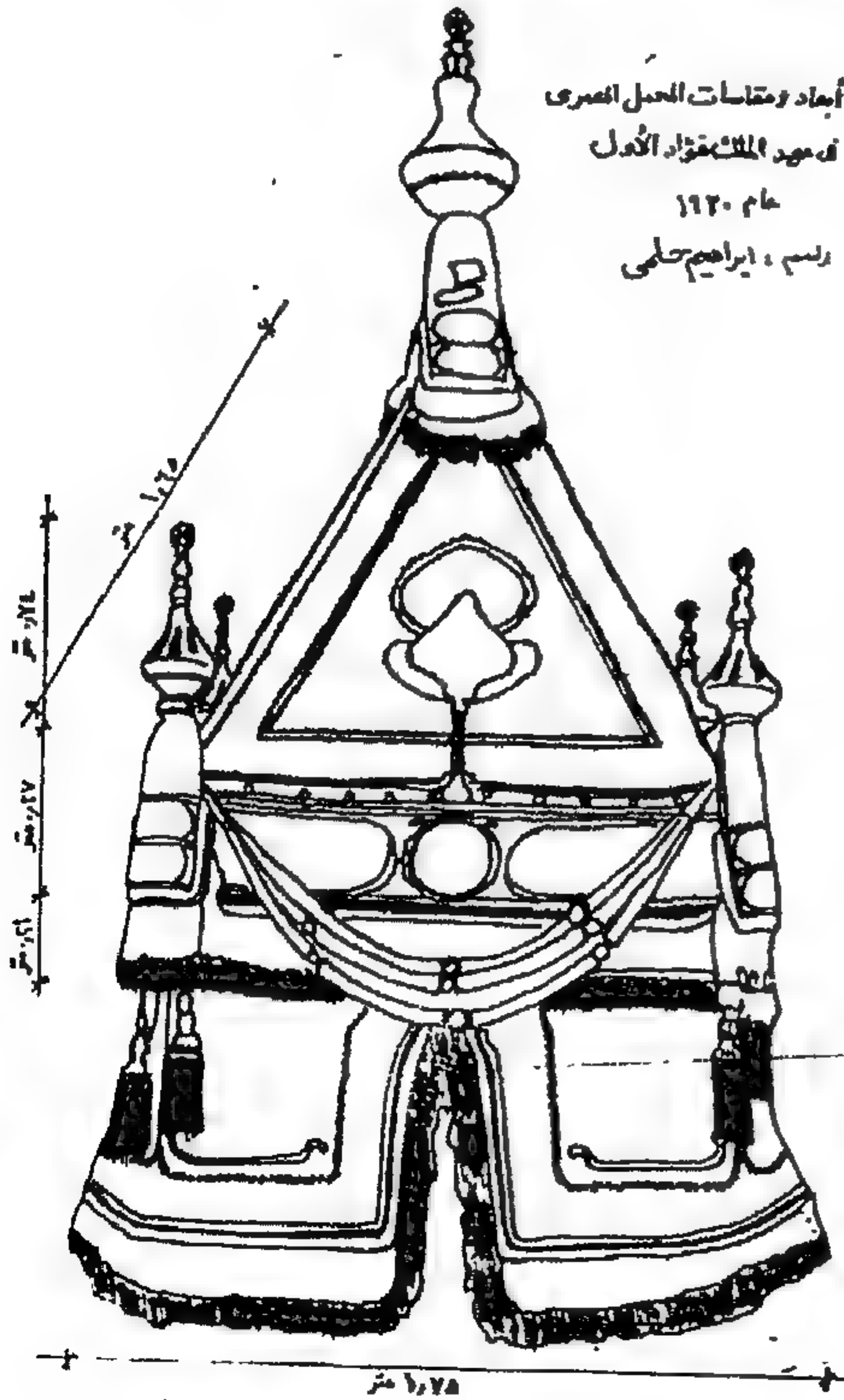


● الوجه الآخر لبيرق المحمل المصرى فى
 عهد الملك فؤاد ■

(أ) الوجه الأول : وفيه شكل بيضاوى مزركش بالمخيش وفي منتصف هذا الشكل توجد عبارة « لا إله إلا الله » وتتشعب منه عدة خطوط مزركشة مستقيمة ومتعرجة كأنما تمثل عين الشمس ، ويحيط بها مستطيل مزركش من الأوراق النباتية وخارج هذا المستطيل تحيط به أربعة مستطيلات علوية وسفلية وعلى الجانبين ، وقد كتب في المستطيل العلوى : « بسم الله الرحمن الرحيم . انا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما وينصرك الله نصرا عزيزا . هو »

(ب) الوجه الآخر : وفيه شكل بيضاوى مزركش في المنتصف مثلما في الوجه الأول وان كان بداخله عبارة اخرى هي « محمد رسول الله » اما الايات القرآنية الشريفة فهي تكملة ما سبق ، وقد كتب « الذى انزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم ولله جنود السموات والأرض وكلن الله عليما حكيم . صدق الله العظيم »

وللبيرق شرابه مدلاة بخيط قيطان مزخرف من اعلا الصلرى الحامل له والتي تعلوه قطعة نحاسية كتبت عليها من كلا وجهيها عبارات لم نستطع ان نتبينها غير كلمة « يا محمد » على احد الاوجه وكلمة يا الله على الوجه الآخر .



● أبعاد ومقاسات
المحمل المصرى في عهد
الملك فؤاد الأول عام
١٩٢٥ ميلادية ■

احتفاليات المحمل المصري :

إذا كانت الأمثال الشعبية رغم بساطتها تحمل من تجربة الإنسان عمقا جديلا لخصها الشعب حسب ظروف بيئته وبأسلوبه الخاص ، في كلمات موجزة ، وبجرس موسيقى خاص تتميز به في كل لغة ، (١١٣) ، فإن بساطة تعبير التجربة المصرية مع المحمل تتلخص في مثلين شعبيين هامين . هذان المثلان الشعبيان يقولان : « كلها يوم وأيلة ويجيء المحمل الرميلى » ، و « ياما الحج مربوط له جمال » . (١١٤)

فالتجربة المصرية مع المحمل تجربة فريدة في نوعها ، وثرية في فنونها الاحتفالية . والمحمل المصري مثله مثل أى ظاهرة فولكلورية طرأت عليه بمرور السنين تراكمات عدة ، وما وصلنا من هذه الظاهرة عند منتصف القرن العشرين ليس إلا الورقة الأخيرة في كتاب زمني تعددت أوراقه وتنوعت فيه السطور .

احتفاليات المحمل المصري في العصر المملوكي :

يحمل العصر المملوكي طابعا مميزا للمحمل المصري ، من حيث الدقة والنظام وفنون الاحتفال المختلفة .

من ذلك ما ذكره (ابن بطوطة) أثناء مروره بمصر لأداء فريضة الحج عام ٧٢٤ هجرية الموافق ١٣٢٥ ميلادية . قال تحت عنوان « ذكر يوم المحمل بمصر » في وقفة سريعة : « وهو يوم دوران الجمل ، يوم مشهود ، وكيفية ترتيبهم فيه أنه يركب فيه القضاة الأربعة ، ووكيل بيت المال ، والمحاسب ، وقد ذكر جميعهم . ويركب معهم اعلام الفقهاء ، وامناء الرؤساء ، وأرباب الدولة ، ويقصدون جميعا باب القلعة دار الملك الناصر ، فيخرج إليهم المحمل على جمل وأمامه الأمير المعين لسفر الحجاز في تلك السنة ، ومعه عسكره ، والسقاعون على جمالهم . ويجتمع لذلك أصناف الناس من رجال ونساء ، ثم يطوفون بالمحمل (وجميع من ذكرنا معه) بمدينتي القاهرة ومصر ، والحدادة يحدون أمامهم . ويكون ذلك في رجب . فعند ذلك تهيج العزيمات ، وتنبعث الأشواق ، وتتحرك البواعث ، ويلقى الله تعالى العزيمة على الحج في قلب من يشاء من عباده ، فيأخذون في التاهب لذلك والاستعداد » . (١١٥)

وكان شرفا لآى إنسان أن يسير في ركب المحمل عند الاحتفال به ، ويكفى أن يسير الإنسان في موكب يضم عليه القوم من رجال الدين أو الحكم . وكان عام ٨٣٩ هجرية هو بداية صدور المرسوم السلطاني الذي يحدد للقضاة الشرعيين الأربعة وجوب تصدير المحمل المصري ، حيث يسير بهم متوجها إلى مدرسة (شيخو) ويرجعون من الصليبية معه إلى تحت قلعة الجبل ، ومنها إلى جامع (الحاكم بأمر الله) الفاطمي . (١١٦)

وكان قمة التكريم لأحد من الوزراء أن يسير أمام المحمل المصرى فى موكبه الاحتفالى المملوكى . قال (المقرئزى) فى حوادث عام ٧٥٢ هجرية : « خلع على الوزير (علم الدين بن زنبور) خلعة الاستمرار ، وركب قدام المحمل بالزئارى فى موكب عظيم . ولم يركب أحد من الوزراء قدام المحمل سوى (ابن السلعوس) فى أيام (الأشرف خليل) ، و (أمين الملك بن الغنم) فى أيام (الناصر محمد) مرة واحدة . (١١٧)

والمتتبع لحجم ركب المحمل المصرى فى العصر المملوكى يلحظ أن هذا الحجم صار ينكمش مع مر الأعوام . ففي عام ٧٢١ هجرية وصل ركب المحمل المصرى إلى حد تقسيمه إلى سبعة ركوب . كان أولها فى شهر رجب ، يتبعها فى أول شهر شوال أربعة ركوب ، ثم يلى ذلك ركبان . غير أن هذا العدد انكمش إلى ستة ركوب فى عام ٧٢٣ هجرية ، ثم صار ركبا واحداً فى عامى ٧٩٢ هجرية و ٧٩٧ هجرية ، ثم أصبح ركبين فى عام ٨٣٣ هجرية . (١١٨)

وكانت الفرجة على المحمل المصرى فى العصر المملوكى منعة يتمتع بها الناس من مختلف قطاعاتها ، خاصة النساء اللائى كن يسرفن فى انتظاره على أحر من الجمر ، غير عابئات بما يكابدن فى سبيله من امتهان فشلت قبالة كل القوائين والاجراءات التى وضعها ولاية الأمر . قال (المقرئزى) فى حوادث رجب عام ٨٢٥ هجرية : « وفيه زينت القاهرة ومصر لإدارة محمل الحاج على العادة ، فممنع (صدر الدين أحمد بن العجمى) المحتسب النساء من الجلوس على حوائيت الباعة ، وتشدد فى ذلك ، فامتنعن . وكانت العادة أن تجلس النساء صدراً من النهار ، ويبتن بالحوائيت حتى ينظرن المحمل من الغد ، فيختلطن بالرجال فى مدة يومين وليلة ، وتقع أمور غير مرضية ، فعد منعهن من جميل ما صنع ، لكنه لم يتم ، وعدن فيما بعد كما كن لإهمال أمرهن . » (١١٩)

وكان من ضمن عناصر الفرجة المشوقة الأساسية فى المحمل المصرى فى العصر المملوكى وجود (الرماحة) وما كانوا يفعلونه من أساليب الاستعراض بالرماح فى الركب ، حتى أنه ظهرت الأغنية الشعبية التى تحت على الفرجة على الرماحة فى موكب المحمل المصرى والتى كانت تقول كلماتها :

بيع اللحاف والطراحة حتى أرى ذى الرماحة
بيع اللحاف ذى المخمل حتى أرى ذا المحمل
وعندما نشب ذات مرة القتال بين جماعات الممالك ، وقتل منهم أعداد كبيرة من هؤلاء الرماحة لم يكن أمام ركب المحمل إلا أن ينتظر ، ويتأجل مواعده إلى حين الانتهاء من تدريب آخرين يحلون محل من قتل منهم .

قال (المقرئزى) فى حوادث شهر شعبان عام ٨٣٣ هجرية : « وفى يوم الاثنين ثامنه أدير محمل الحاج على العادة ، ولم نعهده أدير قط فى شعبان ، وإنما يدار دائماً فى نحو النصف من شهر رجب ، غير أن الضرورة بموت الممالك الرماحة

اقتضت تأخير ذلك ، حتى أن معلمى اللعب بالرمح أخذوا في تعليم من بقى من الممالك ما عرفوا منه كيف يمسك الرمح ، فكان الجمع فيه دون العادة . « (١٢٠) ولم يدخر الممالك جهداً في إخراج احتفال المحمل المصرى بشكل يشد الانتباه ، وبأى وسيلة ممكنة ، فاصطحبوا في الموكب مختلف أنواع الخيول المدربة المطهّمة ، وحتى الأفيال !

قال (ابن إياس) في حوادث شهر شوال عام ٩١٨ هجرية : « وفي يوم الاثنين ثامن عشرة خرج الحاج من القاهرة وصحبتهم المحمل الشريف ، وكان أمير ركب المحمل (تمر الحسنى) أحد الأمراء المقدمين ، وبالركب الأول (يوسف الناصرى) شاد الشراب خانه الذى كان نائب حماة ، وخرج صحبتها الأمير (قطلوباي) الذى قرّرباش المجاورين ، فكان لخروجهم يوم مشهود ، وظهر لهم إطلاب حافلة حتى رجّت لهم القاهرة ، وخرج قدام المحمل الأفيال الكبار وهى مزينة باللبوس ، وعلى ظهورهم الصناجق ، وقدامهم الطبول والزمر ، وخرج قدام المحمل القضاة الأربعة وقضاة مكة الذين حضروا وابن الشريف أمير مكة . وخرج قدام أمراء الحاج أعيان الأمراء ، وكان يوماً مشهوداً . « (١٢١)

محمل السلطنة المملوكية :

إذا كان المحمل المصرى في العصر المملوكى يعد قمة التالى بالقياس إلى غيره من العصور ، فمما لا شك فيه أن المحمل الذى كان يحج فيه أحد سلاطين العصر المملوكى أو أحد من أفراد عائلته هو ذروة السنام من حيث التجهيز والرعاية والاهتمام .

ومع بداية العصر المملوكى يبرز محمل السلطان (الظاهر بيبرس) بما له من سمات البساطة التى تتناسب مع شخصية السلطان المحارب والزاهد في عام ٦٦٧ هجرية . كان في هذا المحمل نحو ثلاثمائة مملوك وأجناد الحلقة ، ولم يصحب السلطان معه غلماناً ولا عكامة إلا الأمراء والخاصكية الذين معه ، وقال لكل هؤلاء : الصغير يخدم الكبير ؛ وكل من يعرف صنعة يفعلها في السفر ، وكان قد توجه إلى مكة المكرمة بعد مضي خمسة وعشرين يوماً أو نحوها من شهر ذى القعدة ، بحيث أنه لم يبق بينه وبين يوم عرفة إلا نحو خمسة عشر يوماً ، وكان قدم في المنازل إقامة ومؤنة وإبلا وخيلاً يركبونها ، فإذا وصلوا إلى المنزل الآخر تركوا ذلك وركبوا الموجود لهم في المنزلة التى وصلوا إليها ، فكان سفرهم على حكم البريد ، كلما وصل إلى بريد يركب الجمل الذى فيه . وكان السلطان بطول طريقه يسأل قاضى القضاة (صدر الدين) عن أمور دينه ، فسار إلى مكة المكرمة في سبعة عشر مرحلة . (١٢٢)

كان أمير ركب هذا المحمل السلطانى هو ولد السلطان نفسه الملك (السعيد محمد) ، وبعد أداء مناسك الحج توجه السلطان (الظاهر بيبرس) إلى الشام في حين رجع ابنه بالمحمل المصرى إلى القاهرة . (١٢٣)

وكان محمل السلطان (الناصر محمد بن قلاوون) في عام ٧٠٨ هجرية يضم خزائن مال ، وجنائب ، وعصب سلطانية ، وهجن ، وكنابيش زركش ، ومطبخ او سنيح . وقد اعد السلطان كل ذلك إلى القاهرة بعد أن وصل إلى العقبة ، ولم يحج ، واختار التنحي عن الحكم والإقامة بحصن الكرك عندما أحس أنه لا حول له ولا قوة في السلطنة .^(١٢٤)

وعندما عاد إلى الحكم مرة أخرى ، وحج للمرة الأولى عام ٧١٢ هجرية رُئيت له القاهرة ، ولاقته القضاة الأربعة ، وحملت على رأسه القبة والطير ، وفرشت تحت حافر فرسه الشقق الحرير ، ولاقته المغاني في الطريق .^(١٢٥) وتكرر ذلك أيضا في حجته الثانية في عام ٧١٨ هجرية .

وعندما حجت زوجته السلطنة (خوند طغاي) في عام ٧٢١ هجرية ، فكانت المحفة التي تركبها مزركشة ، وصحبته الكوسات والعصائب السلطانية ، وعندما عادت خرج إليها السلطان ، واستقبلها في بركة الحجاج ، ودخلت القاهرة في موكب عظيم ، والأمراء مشاة قدام محبتها حتى طلعت إلى القلعة .^(١٢٦)

وحج السلطان (الناصر محمد بن قلاوون) حجته الثالثة في عام ٧٣٢ هجرية ، بمناسبة عمله بابا جديداً من الخشب السنط الأحمر للكعبة المشرفة صفحة بالفضة عوضا عن الحديد الذي كان عمله الخليفة العباسي (المقتضى بالله) عام ٥٥٢ هجرية ، فكان زنة تلك الصفائح ثلاثون ألف درهم ، فلما قلع الباب العتيق الذي كان بها ، وزنوا ما عليه من الفضة ، فكان زنتها ستون رطلا ، فأنعم السلطان بتلك الفضة على بنى شيبه ، سدنة البيت الحرام ، فتقاسموه .

فكان عدة من توجه في هذا المحمل السلطاني اثنين وسبعين أميراً ، ما بين مقدمين الوف ، وغيرها من الطبلخانات والعشراوات ، ومن المماليك السلطانية نحو ألفين مملوك ، فخرج السلطان في موكب عظيم فريد من نوعه ، تميز عن محمليه السابقين في الأبهة والفخامة .^(١٢٧)

وعلى خلاف المعتاد من تدهور مستوى المحمل المصري بمرور الزمن في العصر المملوكي كان الازدهار للمحمل المصري السلطاني إذا ما حج أحد من السلاطين أو أفراد عائلتهم .

ووصل محمل الأمير (الناصري محمد بن الغوري) وأمه في عام ٩٢٠ هجرية إلى ذروة البذخ وذرورة الاحتفال .

قال (ابن إياس) يصف تفاصيل هذا المحمل السلطاني : « وفي يوم الاثنين سابع عشر شوال فيه خرج المحمل الشريف ، وكان لخروجه يوم مشهود ، لم يقع قط مثله فيما تقدم من السنين الماضية ، وذلك قد انسحب فيه أربعة اطلاب حافلة : طلب (جاني بيك قرا) باش المجاورين ، وكان حافلا ، ثم انسحب طلب شيدى (عمر بن المنصور) أمير الركب الأول ، وكان حافلا ، وظهر له من السنيح العظيم اشياء كثيرة يعجز عنها الأمراء المقدمون ، ثم انسحب طلب المقر الناصري

ابن السلطان ، فخرج بطلب حربى ، وقدامه طبلين وزمرين وصناجق سلطانية ،
وفيه نوبتين هجن باكوار زركش من ذهب بتداقة ، وبقية الاكوار مخمل ملون ،
وانسحب فى طلبه عدة خيول بكنابيش زركش بغواشى حرير اصفر وعدة خيول ،
نحو طواتين ، ملبسة بيركستوانات فولاذ مكفتة ، وانسحب فى طلبه نحو عشرين
جملا مزينة باللات الشراب خاتاه من الاوانى الصينى ، واللازورد ، والزجاج
البلورى ، وغير ذلك ، وايضا احمل مزينة باللات الطشتخاتاه من الابريق
الكفت ، والطسوت الكفت ، والشعاع ، وغير ذلك مما يحير الابصار ، ومحفة
جوخ اصفر مزهر فى آخر الطلب ، ثم بعد ذلك انسحبت محفة خوند زوجة
السلطان فكانت غاية فى الحسن ، منتهى ما يعمل من المحفات ، فكانت مخمل احمر
كهورى وهى مرقومة بالذهب ، طرازها وارضية الثوب عروق لاعبة زركش من
الذهب الخالص البتداقة ، وفوقها خمس رصافيات لؤلؤ ، وفيها رصعات ذهب
بفصوص بلخش وفيروز ، وحول ثوب المحفة بهرجان ذهب وفضة شقائق ، وقدام
المحفة اربعة مشاعل بقوط زركش بشراريب مثلث ، وقيل صنعوا لخوند حقام من
نحاس صفائح وداخلها احواض نحاس . فقد ذلك من النواير ، غلايات يصب
منها ماء سخنة ، قيل ان مصروف هذه المحفة فوق العشرين الف دينار ،
واما الرصافيات اللؤلؤ رعموا (انهم) رصافيات خوند زوجة (الاشرف
قلايتباى) ، صنعتهن لما حجت ، فوجدوا فى تركتها ، وكان خلف المحفة اربعة
جمال غير الذى تحت المحفة ، وعليها كنباش زركش على مخمل احمر ، وحولها
مرتعش ذهب وفضة وقدام المحفة حاديين ، ونحو عشرين نفرا من الخدام حول
المحفة ، ثم بعد المحفة انسحب نحو عشرين محبرة مخمل ملون يرسم عيال خوند
وغيرها ممن يلوذ بها ، فلما شقت من الرملة ارتجت لها ، ولاسيما اجتمع بالرملة
الجم الغفير من الامراء والعسكر والخلائق الذين لا يحصوا لكثرتهم ، ثم طلعت
المحفة من الصوة ، ونزلت من على باب الوزير ، وشقت من القاهرة ، فارتجت لها
القاهرة فى ذلك اليوم رجاً ، ولم يكن من العادة القيمة ان محفة حريم السلطان
تشق من القاهرة .. ثم انسحب سنيح خوند وابن السلطان ، فكان فيه الف جمال
ما بين زاد وقرب ماء ، وغير ذلك من اليرق الحائل ؛ ثم انسحب طلب الامير
(علقمباى) امير ركب المحمل ، فكان غاية فى الحسن ، وهو منتهى ما يعمل فى
الاطلاب الملوكية ، فانحسب فيه نحو عشتى فرس ما بين خيول ملبسة
بيركستوانات فولاذ مكفت وغير ذلك من المخمل الملون ، وخيول بكنابيش زركش ،
وغير ذلك من المحفات والاحمال المزينة ، فارتجت لهذه الاطلاب الرملة ، ثم
انسحب المحمل وقدامه ابن السلطان والامراء الحاج والخاصكية المسافرين الى
الحجاز ، فطلعوا ، وكان السلطان فى ذلك اليوم فى شبك القصر ينظر اليهم من
القلعة ، فاخلع السلطان على ولده مئمة وفوقاني حرير اخضر بطرز يلغوى
عريض ، واخلع على امراء الحاج مئمات ، واخلع على بلش المجاورين بكاملية

صوف بضمور ، وكان بالقاهرة شخص من قضاة مكة فألبسه السلطان تشريفاً وطرحاً هو وقاضى المحمل ، ثم نزل ابن السلطان من القلعة وأمراء الحاج وصحبتهم الأتابكى (سودون العجمى) وبقية الأمراء المقدمين وسائر أعيان المباشرين ، وكان قاصداً ابن عثمان حاضراً لهذا الموكب العظيم ، فشقوا من القاهرة في موكب حقل لم يقع مثله في خروج الحجاج فيما تقدم من المواكب ، فلهج الناس بأن ذلك نهاية سعد السلطان مما وقع له من الأمور الخوارق فيما تقدم ذكره . (١٢٨)

وعلى الرغم من ذلك البذخ والترف الذى أحاط بقافلة المحمل السلطاني هذا إلا أن الشح والبخل كان السمة الرئيسية فيه ، فلم ير لهم أحد من الحجاج رأس سكر ولا مجمع حلوى ، وكل من كان معهم رَدَّ يشكى من الجوع ، (١٢٩)

المحمل الرجبي وفنون الرملة :

كان السلطان المملوكى (الظاهر بيبرس) هو أول من قرَّر الحج الرجبي كما ذكر (ابن إياس) في سنة ٦٧٥ هجرية . قال : « وفي هذه السنة ، طيف بالمحمل الشريف ، وكسوة الكعبة ، بالقاهرة ، في رجب ، وكان يوماً مشهوداً ، وهو أول من فعل ذلك من الملوك بمصر ، وأذن للناس في الحجَّ رجبى ، فسقى الحجَّ الرجبي من يومئذ ، واستمر ذلك في كل سنة ، تارة يبطل وتارة يعمل . » (١٣٠)

وذكر (ابن إياس) في حوادث شهر ربيع الأول عام ٨٠١ هجرية أن السلطان (الظاهر برقوق) نادى في الناس بالقاهرة بأن يحجوا رجبى ، وكان ذلك قد بطل من سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة ، فرسم بإعادته على جرى العادة . (١٣١)

وإذا صحت هذه المعلومة : وكان السلطان (الظاهر برقوق) قد أقام الحجَّ الرجبي وأعادته مرة ثانية فقد أخطأ (ابن إياس) في تقرير أن الحجَّ الرجبي قد بطل منذ عام ٧٨٣ هجرية ، بدليل ما ذكره في حوادث شهر رجب عام ٧٨٣ هجرية ، حيث قال : « دار المحمل الرجبي على العادة ، وخرجت الحجاج إلى البركة يوم دوران المحمل ، وكان أمير الركب الأمير (بهاجر الجمالى) المشرف فخرج الحجاج أفواجا . » (١٣٢)

وقد اقترن المحمل الرجبي في العصر المملوكى بفن الرملة القتلى أمام جمهرة المشاهدين من الناس ، وكان ممن يقودون هذا الفن الأمير (جنى بك الظريف) والأمير (قايتباى الحمودى) ، والأمير (تمرا الحسنى) المعروف باسم (الزردكاش) . وحينما بطل هذا الفن في أواخر العصر المملوكى بعثه السلطان (قانسوة الغورى) حياً من جديد ليمتع الناس مع قدوم طلعة المحمل الرجبي . (١٣٣)

قال (ابن إياس) في حوادث شهر جمادى الأولى عام ٩٠٩ هجرية : « وفيه قوى عزم السلطان على أن يدور المحمل في رجب وتلعب الرملة على العادة القديمة ، وكان هذا الأمر قد بطل من سنة اثنين وسبعين وثمانمائة من دولة

(الظاهر خشقدم) ، ونسى هذا الفن من يومئذ ، فأراد السلطان أن يجدد هذا الأمر حتى يصير له التذكاري بين الملوك بتجديد هذا الفن ، فعين الأمير (تمر الحسنى) المعروف بالزردكاش ، بأن يكون معلم الرماحة ، وعين معه الباشات أربعة ، وهم (أبو زيد) أحد الأمراء المقدمين و (جانم الدوادار الثانى) وهو قرابة (قانصوة خمسمائة) و (علان) والى القاهرة ، و (قرقماس المقرى) ، وعين من الخاصكية أربعين مملوكا على جارى العادة القديمة . « (١٣٤) وحينما استقر رأى السلطان (الغورى) على عودة هذا الفن ، وجرى استعراض الرماحة فى المحمل الرجيبى ، أخلع السلطان على الأمير (تمر الحسنى) معلم الرماحة أطلسين ، وعلى الباشات الأربعة كوامل بصور . « (١٣٥)

عفاريت المحمل المصرى فى العصر المملوكى :

نادراً ما كانت تمر مناسبة دوران المحمل المصرى بما تبعثه فى النفوس من بهجة وانتشراح دون أن يكدر صفوها عبث العابثين . هؤلاء العابثون أطلق عليهم اسم (عفاريت المحمل) ، وقد وصفهم المستشرق الفرنسى (جاستون قبيت) بعدما ذكر مراسم الاحتفال بدوران المحمل ، إذ يتكدر الموقف ، وسرعان ما يحدث هرج ومرج ، فترى جنوداً وقد ارتدوا ملابس تنكرية مخيفة يطلبون المال من الجمهور المرح ، وكان هؤلاء يسمون شياطين المحمل ، إذا كانوا يرتكبون كثيراً من حماقات ، حتى أن الحكومة قررت منع هذه العروض . « (١٣٦)

كان عفاريت المحمل فى الأصل ممثلين يخرجون فى احتفالات المحمل ، كما كانوا يظهرون وهم يؤدون أدوارهم التمثيلية أمام الناس ، وكان يسير معهم المصارعون وما يسمى الآن (بالبلياتشو) الذى نعرفه فى (السيرك) ، ومن هؤلاء كان يسير على أرجل خشبية قد ترتفع إلى ثلاثة أمتار تقريبا ، ويسدل عليهم معطف طويل يغطى هذه الأرجل الخشبية ، ويلطخ وجهه بالمساحيق ، فكان منظره يثير ضحك الناس حتى أطلقوا على أمثال هؤلاء اسم « عفاريت المحمل » . « (١٣٧)

كان الناس يغدقون على عفاريت المحمل النقود ينثرونها عليهم وهم يسيرون فى مقدمة المحمل ويزعمون أن هذه الأموال المنثورة سترد إلى أصحابها أضعافا مضاعفة ببركة المحمل .. !

ويظهر أن جماعة المماليك فى عصورهم المتأخرة طمعوا فى الحصول على هذه الأموال فأرادوا أن يقوموا هم بدور (عفاريت المحمل) فتنكروا وصبغوا وجوههم وأطلقوا لحاهم ، ولبسوا ثياب أصحاب المساخر ، وركبوا خيولهم بأن جعلوا وجوههم نحو ذيل الحصان وقاموا بحركات بهلوانية على الخيل ، ولكن الجمهور استنكر منهم هذه الحركات ، ولم يغدق عليهم الأموال ، بل جعلوها لعفاريت المحمل دون المماليك ، فغضب المماليك وقاموا بأعمال وحشية ضد الجمهور ،

فسلبوا نقودهم ، واختطفوا ملابسهم ، وانتزعوا الخلى من النساء ، بل هاجموا الدور كما أصاب المسافر الكثير من ضررهم .

وتاريخ العصر المملوكى حافل بمثل هذه الأعمال الوحشية التى قام بها المماليك الأجلاب ، ولم يسلم منها أى احتفال للمحمل المصرى ، بل لم يسلم من ذلك حتى المحمل السلطانى الذى كان يقل حريم السلطان المملوكى (الأشرف شعبان بن قلاون) عام ٧٧٨ هجرية .^(١٣٨)

ولم نعرف من هم هؤلاء العفاريت للمحمل المصرى الحقيقيون ، وإنما ورد اسم احدهم عرضا عند (ابن إياس) . قال فى حوادث شهر المحرم عام ٩١٨ هجرية أيام سلطنة (الغورى) يوم الاحتفال بعشوراء فى قصر المقياس بالروضة : « .. ثم إن شخصا مضحكا يقال له (على باى) الذى يعمل عقريتا فى المحمل ، فقام رقص ثم سحب الوالى (كرتباى) فرقصه ، ثم سحب أمير آخور (ثانى أقبای الطويل) فرقصه ، ثم سحب (بركات بن موسى) المحتسب فرقصه ، ثم سحب (عبدالعظيم الصيرفى) فرقصه ، وكان جسيما فضحك عليه السلطان ، ونثروا بين يديه أشياء من أنواع الورد والزهر والفاكهة ومجامع الحلوى »^(١٣٩)

كسوة المحمل فى العصر المملوكى :

على قدر ما كان اهتمام المؤرخين فى العصر المملوكى يرصدون ظاهرة احتفاليات دوران وسفر وعودة المحمل المصرى لم يهتم أحد بذكر كسوة المحمل سوى مرة واحدة فى عام ٧٨٥ هجرية . ففى هذا العام قال (المقرئى) : « وفى ثامن عشرة رجب دار المحمل بالقاهرة ومصر على العادة فى كل سنة ، واستجد له ثوب حرير أصفر بشمسات زركش ، فيها اسم السلطان ، وعملت له رصافيات فضة مطلية بذهب ، فجاء أحسن ما عهد قبل ذلك . »^(١٤٠)

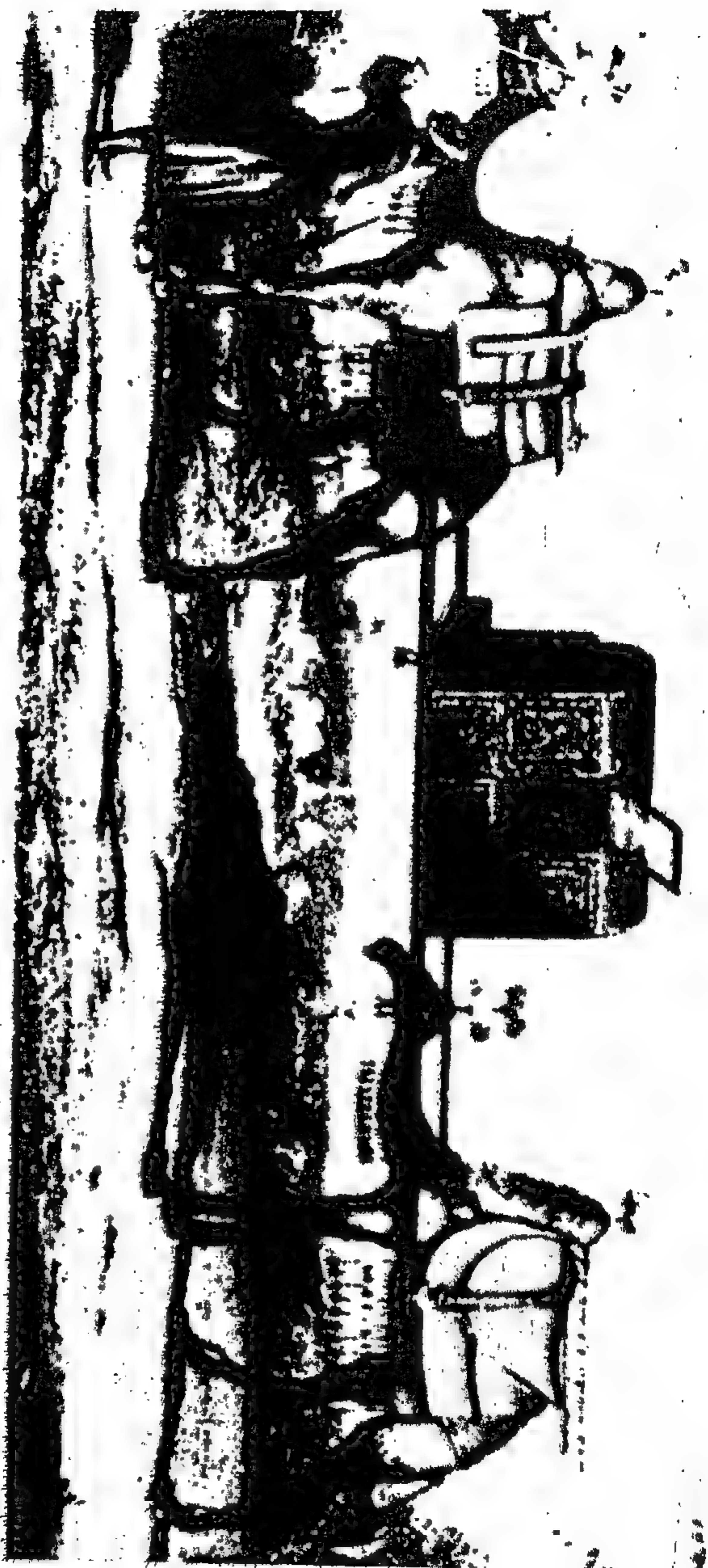
احتفاليات المحمل المصرى بعد العصر المملوكى :

وصف (الجبرتى) احتفال ذهاب المحمل المصرى فى شوال عام ١٢٠٠ هجرية ، فقال : « وفى يوم الثلاثاء سابع عشرينه كان خروج المحمل صاحبة أمير الحاج (محمد بك المبدول) بالموكب على العادة ، ماعدا طائفة الينكجرية والعزب ، خوفا من اختلاط العثمانية بهم ، وحضر (حسن باشا القبطان) إلى مدرسة الغورية لأجل الفرجة والمشاهدة ، ولم يزل جالسا حتى مر الموكب والمحمل . ولما مرت عليه طوائف الأشاير ، فكانت تقف الطائفة منهم تحت الشباك ، ويقراون الفاتحة ، فيرسل لهم ألف نصف فضة فى قرطاس ، ولما انقضى أمر ذلك ركب بجماعة قليلة ، وازدحمت الناس للفرجة عليه ، وكان لابسا على هيئة ملوك العجم ، وعلى رأسه تاج من ذهب مزرد مخروط الشكل ، وعليه عصابة لطيفة من حرير مرصعة بالحواهر ، ولها ذوائب على أذانه وجواجه ، وعليه عباءة لطخ قصب أصفر . »^(١٤١)

أما الاحتفال بعودة الحمل المصري في عام ١٢١٦ هجرية ، فقد رصد على النحو الآتي : « وفي يوم الاثنين ، وصل (سليمان أغا) إلى بركة الحاج ، وصحبته الحمل ، ونساء الأمراء القدامين من الشام ، فخرج الناس للاقائهم ، وأخذوا معهم حمير مكارية لركوب النساء وهديات ، ونودي في عصريته بعمل عوكب من الغد ، وطلب إلى جالوش بزيه المعتاد ، وخلفه القليجية ، وهم يتنادون (يارك الأي) ، فلما أصبح يوم الثلاثاء ثلثي عشرينه عمل الموكب ، وانجر الأي ، ودخل الحمل من باب النصر ، وشقوا به من الشارع الأعظم ، وصاف ذلك اليوم يوم مولد الشهيد الحسيني ، والأسواق مزينة وعلى الحوانيت الشقق الحرير ، والزخات ، والتفاصيل ، وتعليق القناديل ، وعش في الموكب رسوم لوجاقلية والأوده بلشيه وأكثر الأمراء والمشايخ والعلماء ، ونقيب الأشراف ، ونبه على جميع الأشراف تلك الليلة بالحضور في صبح ذلك اليوم للمشي في ذلك الموكب ، فمشى كل من كان له عمامة خضراء ، يكبرون ويهللون ، فكانوا عدداً كثيراً ، وكل من وجدوه بالطريق وعلى رأسه خضار جذبوه وسحبوه قهراً ، وأمره بلشيه وإن أبي ضربه ، وسبوه ، وبكتوه بقولهم ، الست من المسلمين ، وكذلك تجمع أرباب الأشاير ، ومشوا على علاتهم يطبولهم ، وزمورهم ، وخطاطهم ، وخرقهم ، وخورهم ، وصيالحهم ، فلم يزلوا حتى وصلوا إلى قرميدان ، وتسلم الحمل (محمد بلشيه أبو عرق) من (سليمان أغا) الذي وصل به ولكنه عوضاً عن سيده أمير الحاج (صالح بك) ، ثم صعدوا به إلى القلعة ، وأودعوه هناك ، وعملت وقدة وشك تلك الليلة . » (١٢٧)

ويبدو أن مستوى الحمل المصري تردى إلى مستوى أقل من حيث شغف الاحتفال به والمشاركة فيه . قال (الجبرتي) في حوادث شهر شوال عام ١٢٢٩ هجرية : « وفي يوم السبت رابع عشرينه ، عملوا موكباً لخروج الحمل ، واستعد الناس للفرجة على علاتهم ، فكان عبارة عن نحو مائة جمل تحمل روابيا الماء ، والقرب ، وعدة من طلائفة الدلاة على رؤسهم طراطير أسود قلابها ، وأمير الحاج على شكلهم ، وخلفه أرباب الأشاير يبيارقهم ، وشراميطهم ، وطبولهم ، وزمورهم ، وجوقاتهم ، وخلفهم الحمل ، فكان مدة مرورهم مع تقطيعهم وعدم عظامهم نحو ساعتين ، فحين ما كان يعمل من المواكب بمصر التي يضرب بحسنها ، وترتيبها ، ونظامها المثل في الدنيا ، فسيحان مغير الأحوال . » (١٢٨)

لقد تغيرت تلك الاحتفالات ، وتطورت كثيراً تلك العروض الشعبية التي كانت تصاحب رحلة الحمل إلى ومن الأراضي المقدسة . وإذا كانت تلك الاحتفالات والعروض الشعبية قد شابتها شوائب العصر المملوكي ، من لهو واستمتاع حسي أين عصره المنحدر والذابل ، فإن العروض الشعبية التي واجبت الحمل المصري منذ بداية هذا القرن قد أخذت لها مسحة صوفية طاهرة ، بعد أن ولي زمان اختلطت فيه الأمور .



هكذا كانت النساء المسلمات يذهبن الى الحج . وهي صورة رسمها المستشرق الفنان
 (بيرتون) في رحلته التي قام بها عام ١٨٤٢ ميلادية في عهد محمد علي

وسنضرب مثلا بالاحتفال بأمير الحج وأمين الصرة التي كانت تحوى مال الصدقة قبل سفر المحمل المصرى .

كلن هذا الاحتفال الشعبى يسمى باسم (العراضة) ، حيث كان أمير الحج يعين يوم الاحتفال بسفر المحمل . وجرت العادة أنه بعد تعيين أمير الحج وأمين الصرة تحتفل طوائف الضوئية ، والعكامة ، والفراشين ، والسقائين ، وتحضر كل طائفة ومعها رئيسها إلى منزل أمير الحج ، ثم إلى منزل أمين الصرة ، ومن ثم يقام الاحتفال .^(١٤٤)

وطائفة الضوئية : هم الذين يضيئون الطريق اثناء السفر فى الليالى المظلمة بإشعالهم الخشب فى مشاعل يحملونها أمام الركب وعلى جانبيه ، ويسير رئيسهم دائما مرافقا لأمير الحج ، ويلقب باسم (ضوى) باشا ، وعددهم سبعة ، وتقوم طائفة الضوئية بحفلهم بأن يحضر رئيسهم لابسا « بنشا » وخلفه رجال حاملين المشاعل ، مكسوة رؤوسها بأغطية ملونة ، ويبتدون بمدائح نبوية ، وعقب ذلك يسقون شرابا حلوا ، ويعطى رئيسهم « شالا » كشميريا يتقلده فورا ، ثم ينصرفون .

والعكامة : وهم أفراد طائفة ، وظيفتهم وضع الأحمال على الجمال وقيادتها ، والمحافظة عليها . وانزالها . ويحضرون إلى منزل أمير الحج ، ومعهم رئيسهم لابسا « بنشا » ، ومعهم تختروان محمول على جملين بالهيئة التى يكون عليه حال السفر ، وتتقدمهم الطبول والزمر ، ويسقون الشراب الحلو ، ويقلد رئيسهم « شالا » كشميريا وينصرفون .

والفراشون : وهم وظيفتهم نصب الخيام وطبها ، ويتقدمون الركب مع بعض الحرس قبل وصوله إلى اية محطة بوقت كاف ، ويقيمون له الخيام ، والسقائون يملئون القرب ويضعونها فى الخيام ، حتى إذا وصل الركب وجدت الخيام مقامة والمياه فيها داخل القرب .

ويكون حفل الفراشين بأن يحضروا ومعهم رئيسهم لابسا « بنشا » وإمامه الطبول والزمر وجمالان محملان خيلاما كحالهم وقت السفر ، فيسقون الشراب الحلو ، ويقلد أمير الحج رئيسهم « شالا » كشميريا ، وينصرفون ، ويحتفل السقائون عندما يحضر كل واحد منهم ، وهو يحمل قربة منقوخة ، ويرقصون بها على قرع الطبول ونغم المزامير ، ومعهم جمالان محملان قريبا مملوءة بالماء ، وفوق القربة قمع من النحاس يوضع فى قم القربة ، ويسكب فيه الماء للثأ ، وجمل ثالث على ظهره سعفان نخل محزومة من أسفلها تمثل نخلة صغيرة . وقاعدة النخلة وظهر الجمل مزينان بالشيلان الكشميرية . والأنسجة القطيفة المشغولة بالقصب والترتر .

وفى الحفل يسقون الشراب الحلو ، ويقلد أمير الحج رئيسهم « شالا » كشميريا ، ثم ينصرفون .

وهؤلاء الرؤساء الأربعة يلبسون « البنشيات » والشيلان الكشميرية المهداة إليهم من أمير الحج في كل حفلة تعمل أثناء تنقلات موكب المحمل المصرى فى القاهرة ، والسويس وجدة ومكة ومنى وينبع والمدينة .

إن أدق وصف لموكب المحمل المصرى يعبر عنه فى جملة واحدة فقط هو وصف الرحالة الفرنسى (جيراردى نرفال) ، وهو على مشارف القرن الثامن عشر ، قال هذا الرحالة حينما شهد موكب المحمل المصرى عند باب الفتوح بالقاهرة : « كان المشهد يشبه أمة تسير وتأتى لتذوب فى شعب كبير »^(١٤٥)

ولقد كانت عبارة الرحالة الفرنسى بالفعل صادقة تمام الصدق ، وإن جاءت رؤيته رؤية سائح مندهش أخذ جلال المشهد منه لبه وعقله ! .

وهناك العديد من الرحالة الذين اهتموا وعنوا بأمر المحمل المصرى ، فوصفوه فى كتبهم ومذكراتهم الخاصة وصفا مختلف من عين لأخرى . نذكر منهم مثلا (ادوارد وليم لين) ، و (جيراردى نرفال) ، و (لوسى دف جورديون) ، و (محمد لبيب البتنونى) ، و (إبراهيم رفعت باشا) ، وهذا الأخير استطاع بحس فى الفولكلور مرهف أن يصف موكب المحمل المصرى وصفا دقيقا وهاما ، ساعده على ذلك أنه كان أمير البعثة للحج المصرى فى أعوام (١٣٢٠ - ١٩٠٣) ، و (١٣٢١ - ١٩٠٤) ، و (١٣٢٥ - ١٩٠٨) ، وشغل منصب قومندان حرس المحمل عام ١٣١٨ - ١٩٠١ . قال (إبراهيم رفعت باشا) فى وصفه احتفال المحمل المصرى : « فى يوم ٢٧ شوال سنة ١٣١٨ هجرية (١٦ فبراير ١٩٠١) احتفل فى القاهرة بكسوة الكعبة المشرفة بالطريقة الآتية :

فى يوم ٢٦ شوال أتى بالمحمل من مقره بوزارة المالية ، ونقل داخل صناديق على عجلة إلى (وكالة الست) بالجمالية حسب المعتاد من قديم ، ونقل جزء من كسوة الكعبة مع أحزماتها الحريرية المزركشة بالقصب من مصنعها بالخرنفش إلى المصطبة بميدان صلاح الدين المعروف بميدان القلعة أو ميدان محمد على^(١٤٦) . وفى عصر هذا اليوم احتفل رسميا بنقل كسوة مقام الخليل إبراهيم - عليه السلام - والجزء الباقى من كسوة الكعبة من مصنعها بالخرنفش إلى ميدان صلاح الدين السابق ، وكان نقل الكسوة على أكتاف الحمالين ، يحيط بها رجال الشرطة ، ويتقدمها قسم من الجيش ما بين راجل وراكب معهم الموسيقى تصدح بالأنغام المطربة ، ويصحبه أرباب المزمار البلدى المعينون للسفر بصحبة المحمل ، وكذلك تقدم الكسوة مدير مصنعها - مأمور الكسوة - ممتطيا جواده مرتديا لباسه الرسمى - بذلة القشريفة الكبرى - وعلى يديه مبسوطتين كيس مفتاح الكعبة . ويتلو كسوة مقام الخليل إبراهيم محمولة على الأكتاف أيضا ، وسار الموكب بهذا النظام من المصنع إلى سبيل (كتخدا) ، حيث التقى به المحمل بكسوته الخضراء المعتادة أتيا من (وكالة الست) بالجمالية على ظهر جمل ، فسار وراء كسوة المقام ، وسار الموكب كله إلى النحاسين ، فالغورية ، فباب زويلة



موكب المحمل المصرى فى اكتوبر ١٩٤٦ ميلادية ايام الملك

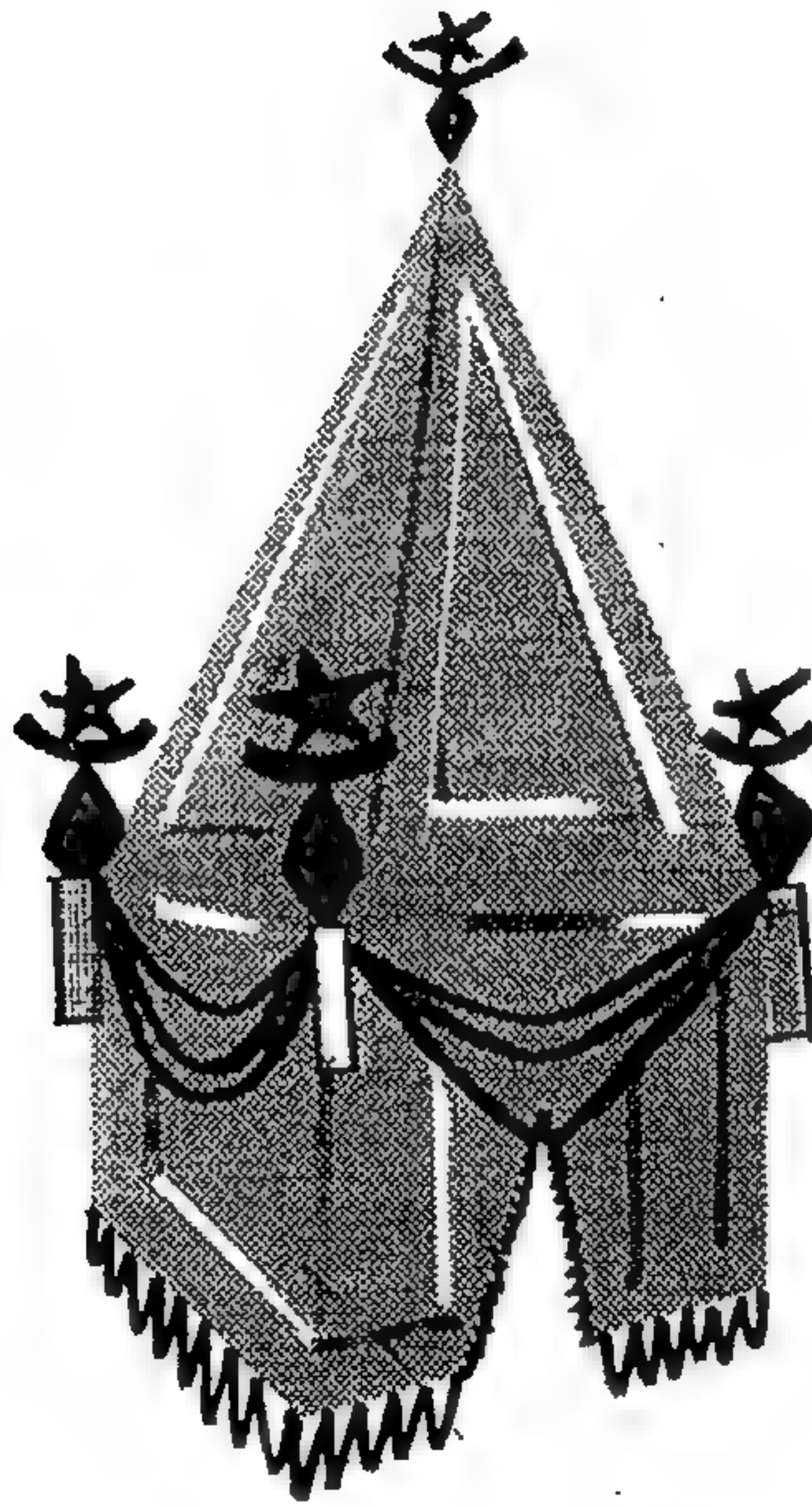
قاروق

١٦٢١

(بوابة المتولى) ، فالدرب الأحمر ، فالتبانة ، فالمحجر ، فميدان صلاح الدين ، حيث أقيم هناك الاحتفال . فوضع المحمل مع الكسوة في المحل المقابل لردهة (صالة) الاستقبال حتى الصباح ، ووضعت كسوة المقام وسط الردهة المذكورة التي زينت جدرانها بقطع من كسوة الكعبة وأحزماتها القصيبة وكيس مفتاح الكعبة وستارة بابها وباب التوبة ، ووضع حول كسوة المقام أربع مائلات (شمعدانات) من الفضة أحضرت من جامع القلعة ، ووضع بحجرة المحافظ التي بالجهة الغربية من ردهة الاستقبال أربع قطع يقال لها (كرداشيات) زينت بها جدران الحجرة ، وقد أحييت المحافظة الليلة المعقبة لهذا اليوم بتلاوة آى القرآن الكريم ، وإنشاء المنشدين في مكان شرقي مكان الاحتفال ، ودعت العلماء والكبراء والأعيان لمشاركتها في إحياء الليلة ، ومنهم من دعت لتناول طعام العشاء قبل الغروب ، ومنهم من دعى للإحياء بعد صلاة العشاء فحسب ، كما أنها دعت مشايخ الطرق من الرفاعية ، والسعدية ، والأحمدية ، والابراهيمية ، والبيومية ، والقلدرية ، والشاذلية للسير أمام المحمل والكسوتين ، وللمشاركة في إحياء هذه الليلة التي أنفق فيها مائة جنية مصرى ، واستمرت الحفلة إلى ما بعد نصف الليل ، حيث جمعت قطع الكسوة التي في الردهة وفي حجرة المحافظ مع كسوة المقام ، ووضع كل ذلك مع المحمل في المكان المقابل لردهة الاستقبال . وفي صباح هذه الليلة احتفل بالكسوة والمحمل احتفالا فخما في ميدان صلاح الدين حضره سمو الخديو والوزراء والعلماء والأعيان ، وأطلق للخديو ساعة حضوره واحد وعشرون مدفعا ، وصدحت الموسيقى بسلامه ثلاثا ، أعقبها الضباط والعساكر والحضور في كل مرة بالهتاف لسموه (أفند مزجوق يشا) - يعيش أفندينا طويلا - وكان الخديو والحضور قليلا في بهو (صالة) الاستقبال مشاهدا دورات المحمل السبع المعتادة في الفناء الواسع الذى أمام البهو ، وكان يقود جمل المحمل مدير مصنع الكسوة الذى قدم المقود إلى سمو الخديو ، فقبله ، وناولته قاضى القضاة فقبله أيضا مع بعض الحضور ، ثم أعلاه إلى المأمور الذى ينتظر بالمحمل قبالة الجامع المعروف (بالمحمودية) بالميدان ريثما يتم استعراض الكسوة ، ثم عرضت الكسوة يحملها الخفراء على سموه ، وقد وقف خارج الردهة مع الوزراء والحضور ، والخفراء يمرون بهامن أمامهم حتى إذا ما انتهت استعراض الجيش ، ثم أطلق واحد وعشرون مدفعا إيذانا بانتهاء الحفلة ، وانصرف الخديو والحضور ، ثم سير بالكسوتين والمحمل إلى مسجد الحسين - رضى الله عنه - يصحبها رجال الجيش والشرطة وأرباب الطرق وفى المسجد استقبل الكسوتين أمير الحج وأمين الصرة .. وكانا قد سبقا الناس إلى المسجد ، وهناك ضمت بالخياطة قطع الكسوة بعضها إلى بعض ، ثم نقلت إلى العباسية مع كسوة المقام في صناديقها المعدة لها استعدادا للسفر بهما إلى الحجاز بعد . أما المحمل فسير به من المسجد الحسينى إلى مصنع الكسوة بالخرنقش ، وبقي هناك إلى صبيحة يوم

الاحتفال بخروج المحمل إلى الأقطار الحجازية ، ففي صبيحة هذا اليوم احتفل
بنقله من المصنع إلى ميدان صلاح الدين ، ولكن من طريق سوق السلاح ، وفي
ضحوة ذلك اليوم ١٣ ذي القعدة سنة ١٣١٨ هـ (٤ مارس سنة ١٩٠١) عمل
احتفال بالميدان المذكور كالاحتفال السابق ، وسلم فيه (عبدالله فائق بك) مدير
مصنع الكسوة زمام المحمل إلى سمو الخديو وسموه سلمه لأمير الحج ، حيث قاده
محفوفا برجال الشرطة والجيش وأرباب الطرق إلى العباسية ليسافر من هنالك إلى
السويس فمكة مع الكسوتين والروائح العطرية والمخرق الجديدة التي تغسل بها
الكعبة (١٤٧) .

□ □ □





العادات والمعتقدات الشعبية

في موكب المحمل المصرى

كأى ظاهرة من ظواهر المأثورات الشعبية العربية ،
التي تمس ناحية العقائد تراكت حول المحمل المصرى
تراكمات عند قدوم كل عام كان يهل فيه موكبه ، فى رحلته
للأراضى الحجازية ، سواء بالذهب أو بالآياب .
وعلى امتداد تاريخ المحمل المصرى الطويل
لم تتضخم المعتقدات الشعبية وتصبح كالسورم
السرطاني الخبيث حوله سوى فى عصور التخلف الأخيرة والتي قاد زمامها صوت
الاستعمار .

ومن أبرز المعتقدات الشعبية المصرية التبرك بالمحمل أينما حل ، باللمس لمن
استطاع الى ذلك سبيلا ، او حتى بمجرد الرؤية بالعين لمن تعذر عليه الملامسة .
يقول اللواء (ابراهيم رفعت باشا) والذي عاصر ذلك مرارا وتكرارا بصفته
قومندان حرس المحمل ثم أميرا للحج مرات عديدة ، واصفا تلك الظاهرة :
« .. وقد كان الأهالى ، ومشايخ الطرق ، وطلبة المدارس بنين وبنات ينتظرون
المحمل فى محطات الوقوف للقطار ومعهم الموسيقى والمزمار ، مثل محطات
القاهرة ، وطوخ ، وبنها ، والزقازيق ، وأبى حماد ، ونفيسة ، والاسماعيلية ،
وفايد ، ومما راينا من عادات الأهالى احضارهم أولادهم الرضع ، ليروا المحمل ،
فيبارك لهم فى ذريتهم ، وكانوا إذا لم يستطيعوا لمسه قذفوا بمناديلهم الى خدام
المحمل بعد ان يضعوا فيها شيئا من النقود ، او يملؤوها باللحوم البيضاء ،
او الفطير ، فيأخذ الخدم ذلك منها ، ويردونها الى أربابها بعد أمرارها على
المحمل ، والذي دعا العامة الى ذلك ما يعلمونه من ان المحمل يوضع داخل المسجد
الحرام ، كما يوضع فى المقصورة النحاسية التى حول قبر الرسول - صلوات الله
عليه وسلامه - ما دام بالمدينة ، فيريدون التبرك بمحمل يزور الأماكن
المقدسة » . (١٤٨)

كانت هذه العادة وهذا المعتقد يسرى سريان النار فى الهشيم فى شرائح عديدة
من المجتمع المصرى ، وكذلك فى أماكن عديدة منه ، وفى أزمنة مختلفة . أيضا .
فإذا كان زمن هذه الحادثة التى ساقها لنا اللواء / ابراهيم رفعت باشا هو عام
١٩٠١ ميلادية وقت أن كان قومندان حرس المحمل ، فإن هناك فى تاريخ المحمل
المصرى العديد من المواقف التاريخية ما يؤكد تاصيل هذه العادة الذميمة وذلك
المعتقد الخاطيء .

لقد رصد لنا هذه الظاهرة في الربع الأول من القرن التاسع عشر في فترة حكم الوالي (محمد علي) رسدا دقيقا المستشرق الانجليزى (ادوارد وليم لين) بل قام هو نفسه بها حين مشاهدته لموكب المحمل المصرى العائد بالحجاج من الأراضى الحجازية ، عند باب النصر بالقاهرة . وفي ذلك يقول عنه ، وقد أدركه عند القلعة بعد عناء شديد من كثرة الازدحام : « .. وبعد أن لمست ثلاثا ، وقبّلت يدي ، أمسكت بالهدبة ، وسرت بجانبه ، ورأيت حارس المحمل المقدس ، الذى كان يسير خلفه ، فحملنى على النطق بدعاء صالح ، لعله كان المانع من تنحيتى عنه ، ويحتمل أن يكون قد تأثر بمظهرى ، إذ أنه كان يسمح للآخرين بالاقتراب من المحمل ولمسه واحدا واحدا ، ثم يدفعهم الى الخلف . وظللت سائرا بجانب المحمل ممسكا بستره الى ما يقرب من مدخل الرميّة . وقد أخبرت أحد اصدقائى المسلمين بما فعلت ، فدهش دهشة كبيرة كبيرة ، وقال انه لم يسمع بأحد قام بذلك من قبل (!) وأن الرسول - لا شك - قد حبانى بحبه ، وإلا لما قدّر لى ذلك . واضاف الى قوله اننى قد حصلت على بركة لا تقدر ، وأن من الحكمة ألا أخبر احدا من اصدقائى المسلمين الآخرين بهذا الحادث ، لئلا اثير حسدهم وسخطهم . ولا أستطيع أن أعلن تقديس المحمل الى هذا الحد . ويبدى كثيرون شوقا شديدا الى لمسه » . (١٤٩)

وإذا كان المستشرق الانجليزى (ادوارد وليم لين) لم يستطع أن يجد تعليلا لتقديس العامة من المصريين للمحمل المصرى فإن تعليلا ذلك قد ورد في ختام الفقرة السابقة التى ذكرها اللواء (ابراهيم رفعت باشا) ، فالعوام « يريدون التبرك بمحمل يزور الأماكن المقدسة ، ففى عرفهم - بصرف النظر عن كون ذلك صحيحا أو غير صحيح - وهو بالتأكيد غير صحيح - أن المحمل المصرى قد مشّ الأراضى الحجازية المقدسة ، لذلك فقد أصبح مباركا ويمكن التبرك به ، وهذا المعتقد مازال راسخا فى الأعماق ، حتى بعد زوال أمر المحمل الى الآن ، وذلك فى أشياء عدة كثيرة ، مثل من يعود بهدية لصديق من هناك قائلا له « خذ حاجة من رائحة النبى » ..! أو أن يعود بقسط ماء من زمزم ويرشها فى جنبات بيته لنيل البركة ..! وعلى غرار موكب الدوسة - دوسة حوافر الحصان لأجساد آدمية منبسطة على الأرض - الذى كان يحدث فى ليلة الاحتفال بمولد النبى فى مصر كان البعض يرتضى تحت أخفاف جمل المحمل ، غير هتّاب من الموت ، أو تحطيم الضلوع على أقل تقدير ، لنيل البركة من موكب المحمل المصرى . قال الرحالة الفرنسى (جيراردى نرفال) يصف مثل هذا المشهد فى منتصف القرن التاسع عشر ، وبعد الرحالة الانجليزى (ادوارد وليم لين) بنحو ربع قرن من الزمان : « كانت كتيبة القواسين تجد صعوبة كبيرة فى ابعاد الزنوج الذين كانوا بدافع من تعصب يفوق غيرهم من المسلمين يتوقون الى أن يرتقوا تحت أخفاف الجمال ، ليستشهدوا أو يسحقوا ، فكانت ضربات العصى تنهال عليهم تمنحهم على الأقل جزءا من عذاب الاستشهاد الذى يبغونه » . (١٥٠)

لقد وصل التقديس للمحمل المصرى الى درجة تقبيل خف جمل المحمل نفسه .
وفى ذكر ذلك يقول (محمد لبيب البتنونى) : « .. ولقد بلغ من مبالغة ملوك مصر
بالاحتفاء بالمحمل انهم قضوا - اى فرضوا - على جميع حكام البلاد التى كان يمر
عليها فى طريقه بأن يقبلوا خف جمل المحمل عند استقباله » (١٥١)

وهذا الشيء هو من رواسب موروث الانحدار والقهر الاستعماري فى العصر
المملوكى . ولو اننا تصفحنا التاريخ سنجد ما يؤيد ذلك . ففى اخبار الخامس
والعشرين من ذى الحجة عام ٧٨٤ هجرية قال (ابن تغرى بردى) « إن مبشر
الحاج أخبر أن أمير مكة نزل على العادة لملاقاة المحمل ، وقبل الأرض ، ثم قبل خف
جمل المحمل » (١٥٢)

وهذه الواقعة ذكرها (ابن اياس) فى تاريخه مع بعض الاختلافات البسيطة .
فقد أوردها (ابن اياس) ضمن حوادث عام ٧٨٨ هجرية ، اى ان هناك فرقا
واضحا بين التاريخين بلغ زهاء أربع سنوات ، كما ان (ابن اياس) ذكر ان فعل
التقبيل لم يتم لأن القدر عاجله ، فلقى مصرعه على يد اثنين من الفداويين ، وهما
يقولان له « غريم السلطان » فلم يكن قتله لأنهما استنكرا فعل التقبيل الذميم
لخف جمل المحمل ، وانما لأن أمير مكة هذا الذى أدرج فى دمه المسفوح رأياه عدوا
للسلطان .

وسواء كان فعل التقبيل لخف جمل المحمل المصرى كان قد تم أو كان فى النية
ان يتم لولا سرعة يد المنون ، فإن العرف السائد وقتها أن يقوم الحكام بهذا
الفعل ، فما البال والرعية ، ماذا عندئذ يكون فعلها ؟
الا يصدق هنا قول الشاعر العربى :

إذا كان رب البيت بالدف ضاربا

فشيمة أهل البيت كلهم الرقص

هذه العادة السيئة التى قال عنها (محمد لبيب البتنونى) انها ظلت موجودة
الى أن أعفى السلطان المملوكى (الظاهر جقمق) أمراء مكة من فعلها فى سنة
٨٤٣ هجرية تحتاج منا وقفة تدقيق وفحص . (١٥٣) (فالمقرىزى) قد ذكر ضمن
حوادث هذه السنة : « ان الشريف بركات بن حسن بن عجلان أعفى من تقبيل
خف جمل المحمل ، فشكر هذا من فعل السلطان » . (١٥٤)

ويبدو ان هذا الفعل من السلطان جقمق لم يكن بغرض القضاء تماما على هذه
العادة القبيحة ، وانما هو أعفى الشريف مكة هذا فى هذه السنة فقط ، أو ربما
أعفى ولاية أمانة مكة فقط ، إذ ان الثابت تاريخيا تكرار تقبيل خف جمل المحمل
فيما بعد .

وعلى سبيل المثال سنذكر واقعة حدثت سنة ٩٥٥ هجرية فى العصر العثمانى
الذى أسقط عصر المماليك ، ولكن استطاع بعضهم أن يتسلق الجدران العثمانية
على طريقة نبات اللبلاب ، ومن ثم فرض نفوذه من جديد .

كانت العادة وقتها أن يحضر أمير (ينبع) بخيله الملبسة ورجاله وزينته وأعلامه وطبله في هيئة جميلة الى القرب من جبل (الزيتة) ، وينزل عن فرسه ، ويصلي ركعتين بعد أن تبسط له سجادة كبيرة يحضرها غلمان الطشت خاناه - وهم المختصون بأمر الوضوء وغسيل الأيدي - بخدمة أمير الحاج للصلاة عليها هو ومن بصحبته ، ويلبس الخلعة السلطانية المجهزة لصحبة أمير الحاج ، ويلبس أمير الحاج من عنده قاضي (ينبع) وولد الشريف وولد أخيه ثم ان الشريف صاحب (ينبع) وأميرها يتقدم الصفوف ، ويقبل خف جمل المحمل المصري لأبراز مظاهر الطاعة والولاء... (١٥٥)

ويبدو من هذه الحادثة انها تبرز أصل مسألة تقبيل خف جمل المحمل ، فربما كانت في البداية لظهار مدى الولاء والطاعة من الأمراء سواء في مصر أو في البلاد الحجازية لمحمل السلطان المملوكي ، والذي يمثله شخصيا ، فكانما تقبيل خف الجمل هو بالضرورة تقبيل خف السلطان المملوكي ان جاز لنا هذا التعبير... ولقد شمل هذا النوع من التقديس مقود جمل المحمل المصري نفسه ، كما قال (أحمد أمين) في كتابه « قاموس العادات والتقاليد » وأشار الى ذلك (١٥٦) ويؤيد ذلك وصف اللواء (ابراهيم رفعت باشا) لموكب المحمل المصري سنة ١٩٠١ ميلادية ، والذي قبل فيه خديو مصر ذلك المقود ، وكذلك قبله قاضي القضاة من بعده مع بعض الحضور (١٥٧).

وهناك رأى آخر يقول ان التقبيل لم يكن لمقود الجمل ، بل كان هناك بهذا المقود كيس اسطوانى الشكل وصغير ، وبهذا الكيس كانت توجد به آثار مقدسة - وهي فيما يزعمون بضع شعرات للنبي - صلى الله عليه وسلم - وبذا يظهر ان التقبيل لم يكن لمقود جمل المحمل المصري في حد ذاته ، بل كان لهذه الآثار (١٥٨) أما جمل المحمل نفسه ، فقد جثى بمزية الاعفاء عن العمل بعد ذلك بقية السنة (١٥٩).

وقد روى لنا ان اختيار جمل المحمل كان يتم بعناية فائقة ، بحيث يكون ذلك الجمل من النوع الهادىء غير المشاكس . وكان يطلق عليه أحيانا اسم (الشيخ سيد) ، أو اسم (مبروك) أو اسم (نبيل) وكان جمل المحمل من نوع الجمال ذات المزاج الخاص . فقد كان (يشرب دخان المعسل) ، عن طريق أن يشرب راعيه ، ويشد أنفاس الدخان بفمه ، ثم ينفخها في أنف جمل المحمل ، فيستطيب له الحال !.

وقد روى لنا احد عمال زركشة كسوة الكعبة المشرفة ان جمل المحمل ذات مرة أرادوا أن يذبحوه بالمذبح في منطقة (زين العابدين) بالقاهرة ، ولكنه فر منهم ، وهرب ، وجرى من هناك الى أن وصل الى دار الكسوة الشريفة بالخرنفش بمفرده ، على الرغم من البعد بين المكانين الذى لا يقل عن عشرة كيلومترات على الأقل... (١٦٠)

وروى لنا أن آخر جملين للمحمل المصرى كانا في عام ١٩٥٣ ، وأن اسمهما (مبروك) و (نبيل) ، وكانا يأكلان طوال العام في عنبر الجمال المخصص لذلك بأسفل دار الكسوة الشريفة ، وكان لجمل المحمل موظف مخصص لاحضار طعامه من البرسيم وخلافه يوميا . وكان يقوم على خدمة جمل المحمل في مصر جمال يرتدى جلبابا صوفيا وعمامة ، وآخر جمال كان يدعى (محمد الرهيوى) ، وكان له مساعد اسمه (سيد) ، وكل وظيفة هذا الجمال هو الحضور وقت قيام المحمل الى الموكب ، وكذا الاشراف على نظام اعاشة الجمل ، أما مساعد الجمال فكان يقوم على امر العناية بالجمل . وكان من عادته أن يقوم بتنشيط الجمل يوميا بالمشى من دار الكسوة بالخرنفش الى ميدان سيدنا (الحسين) ، ثم العودة . وكان حينما يقف بالجمال امام مسجد سيدنا (الحسين) تقبل عليه النساء العقيمت ، لتعبر من تحت بطن جمل المحمل ، طمعا في نيل البركة والانجاب!! (١٦١)

ومن اغرب العادات التى التصقت بالمحمل المصرى عادة ضرب المدخنين اثناء مرور موكب المحمل !!

فقد كان المغاربة من اهل تونس وفاس - كما قال (الجبرتى) في احداث سنة ١١١٠ هجرية - من عادتهم أن يحملوا كسوة الكعبة المشرفة ، ويمرون بها في وسط القاهرة للتبرك ، وكلنوا يضربون من راوه يشرب الدخان في طريق مرورهم . (١٦٢)

ذكر لنا هذه الحادثة (الجبرتى) ولم يفسر لنا سبب هذه العادة ويبدو أن شرب الدخان بصفة عامة يكشف عن عدم اكتراث الشارب له بما يدور من حوله ، وهى العادة التى مازالت قائمة الى الآن في صواوين التعازى في المآتم ، حيث يقوم المدخنون باطفاء سجائرهم فور أن يبدأ قارئ القرآن في التلاوة لآياته الشريفة . ويذكر (الجبرتى) تفاصيل الواقعة التى حدثت من اهل تونس وفاس ، قائلا : « .. فراوا رجلا من اتباع (مصطفى كتحدا القازدغلى) فكسروا انبوبته ، وتشاجروا معه وشجوا رأسه ، وكان في مقدمتهم طائفة منهم متسلحون ، وزاد التشاجر ، واتسعت القضية ، وقام عليهم اهل السوق . وحضر (اوده باشا) البوابة ، فقبض على اكثرهم ، ووضعهم في الحديد ، وطلع بهم الى الباشا ، واخبروه بالقضية ، فأمر بسجنهم بالعرقانة . فاستمروا حتى سافر الحج من مصر ، ومات منهم جماعة في السجن ، ثم أفرج عن باقيهم . »

ويعلل صاحبنا كتاب « تاريخ العلاقات المصرية المغربية ، هذه الحادثة ويفسرانها بأن « الحجاج المغاربة لم يكونوا يصطدمون في العادة بعناصر من المصريين ، او من أسماهم صاحب « عجائب الآثار » بأولاد البلد ، وإنما كانت صداماتهم تقع مع عناصر عسكرية في خدمة السلطة ، وهى في العادة من العناصر التركية . » (١٦٣)

كما يرجعان هذا التصرف العنيف من الحجاج المغاربة الى كونهم « متشددين بحكم انتمائهم للمذهب المالكي ، وهم نتيجة لهذا التشدد كانوا يرون في بعض سلوكيات اتباع المذاهب الأخرى خروجاً عن الدين أو ما سموه (بالمنكرات الشرعية) مثل التدخين ،^(١٦٤)

وإذا كان أهل المغرب العربي من عاداتهم التقريع بالعصا لمن يدخنون - كما ذكر (الجبرتي) - فإن الرحالة الانجليزى (ادوارد وليم لين) قد رصد ظاهرة ضرب أخرى أثناء مرور المحمل المصرى فى عهد الوالى (محمد على) ، ولكن بشكل آخر . قال : « وهناك عادة غريبة يسمح بممارستها بمناسبة موكبى المحمل والكسوة ، فيطوف جماعة من الأولاد شوارع القاهرة ، وقد تسليح كل منهم بقطعة قصيرة من رعوس السعف الغليظ ، تُشَقُّ شقين أو ثلاثة من طرفها الأكبر الى نصف طولها ، وتسمى (مقرعة) فإذا دنوا من مسيحي أو يهودى طلبوا منه أن يمنحهم خمس فضة أو ستا قائلين : (هات العادة) فإذا رفض انهالوا عليه بمقارعههم . وفى العام الماضى ضرب بعض الأولاد افرنجيا ، جريا على هذه العادة ، فلجأ الى وكالة كبيرة ، غير أن بعض الأولاد تبعوه ، وضربوه مرة ثانية . فاشتكى الى الباشا الذى أمر بتوقيع الجلد على شيخ الوكالة لعدم حمايته اياه ،^(١٦٥)

وشبيه هذا الموقف بما كان يحدث أثناء احتفالات النيروز فى القاهرة ، حيث كان الصغار والكبار يرشون الأغنياء بالماء النجس ان لم يدفعوا لهم العادة ! ومن العادات الغريبة العجيبة لموكب المحمل المصرى انه كان يُعَيَّن به رجل يسمى (ابو القطط) وكان هذا الرجل يقوم بغذاء القطط التى كانت تتبع ركب المحمل مدة سفره فى البر ، ويقول آخرون انما كان هذا اسمه أما وظيفته فهى التى غيروها بوظيفة إمام المحمل . ويقال ان وظيفته كانت من عهد حج (شجر الدر) .^(١٦٦)

وإذا كان قد لاحظ ذلك (محمد لبيب البتنونى) وهو الذى رافق الخديو (عباس حلمى الثانى) فى حجه فى العشر الأوائل من مفتح القرن العشرين فإن الرحالة الانجليزى (ادوارد وليم لين) قد استلقت انتباهه موضوع القطط هذا فى الربع الأول من القرن التاسع عشر ، غير انه اشار الى أن من يقوم برعايتها أثناء رحلة المحمل المصرى سيدة كانت تسمى (أم القطط) ، وهى عجوز تعودت - كما يقول - اقتفاء المحمل ، سافرة ، لا يسترها غير قميص ، إذ كانت تصحب دائماً خمسه قطط أو ستة بجانبها على الجمل .^(١٦٧) ولم يذكر لنا أحد علة اصطحاب المحمل المصرى للقطط . هل كانت مسألة معتقدات شعبية ؟ أو كانت لغرض والتهام بقايا وفضلات الطعام التى تتبقى من الحجيج ؟ وإذا كان الأمر كذلك فهل عدد هذه القطط كان يكفى لهذا الغرض ؟ فى الحقيقة اننا لم نصل لعله اصطحاب هذه القطط فى موكب المحمل المصرى ، وان كان اللواء (ابراهيم رفعت باشا) قد ذكر ضمن « مرتبات ومكافآت موظفى المحمل وخدمه ونفقته » فى سنة



● ستارة باب الكعبة المشرفة أو ما يسمى بالبرقع فوق اكتاف رجال بلوكات النظام عام
١٩١٦ ميلادية في عهد السلطان المصري حسين كامل ■

١٣٠٧ هجرية - ١٨٨٩ ميلادية أن مرتب (أبى القطط) قد بلغ ١٥ جنيه في ١٢ شهر عن كل شهر ١٢٥ قرشا ، وزيد المرتب في الشهر الى جنيهين من سنة ١٨٩١ ميلادية ، وان (أبا القطط) هذا كان يحصل على مبلغ جنيهين وربع كبديل تعيين له كنفر واحد للانفاق على مستلزمات طعامه .^(١٦٨)

وقد ذكر اللواء (ابراهيم رفعت باشا) ان وظيفة أبى القطط أصبحت من وظائف من لا يسافرون الآن (١٣٢٥ هـ - ١٩٠٨ م) مع المحمل ، ولكنه يتقاضى المرتب الى الوفاة ، فوظيفته من الوظائف الوراثية ، حيث يأخذها الأبناء بعد وفاة الآباء ، وعلل ذلك بقوله : « حتى تبقى بيوتهم مفتوحة ، وقد أيد ذلك الأمر الكريم الصادر للمالية في ١٢ ذى القعدة سنة ١٣٠٤ ، وكذلك أيدى أمر صاحب العطفة ناظر المالية الصادر في ٣٠ صفر سنة ١٣٣٠ هجرية (٢١ سبتمبر ١٨٩٢) بتعيين (محمد محمد عبدالنبي) خادما للقطط خلفا لوالده »

وقد كانت من عادة المحمل المصرى أن تكون له كسوتان : كسوته اليومية ، وهى من القماش الأخضر وكسوته المزركشة ، ولا يلبسها إلا في المواكب الرسمية . وفي أيام وجوده بمكة كان يوضع فيما بين باب النبى وباب السلام - بكسوته اليومية . فيكون هناك مزارا للناس ، ولا ينقلونه من هذا المكان إلا في مواكبه الرسمية بالكسوة المزركشة ، وحينما كان يصل الى مسجد الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالمدينة المنورة ترفع عنه كسوته المزركشة ويلبسونه الكسوة الخضراء ، ثم يحملون كسوة المحمل ، ويدخلونها في الحجرة النبوية الشريفة من الباب الشامى ، ويتركونها في جانب من ساحة مقام السيدة فاطمة - رضى الله عنها - ، ولا تزال بالحجرة الشريفة حتى يخرجوها يوم السفر من المدينة ، فيلبسونها المحمل في طريق عودته الى مصر ، حيث كانت تحفظ كسوة المحمل المزركشة بمخزن في وزارة المالية ، أما كسوته الخضراء ، فكان يكسبها سنويا بعد العودة ضريح سيدى (يونس السعدى) بجبانة باب النصر ، وقد اختص مقام هذا الولي بالكسوة الخضراء للمحمل نظرا لأنه كان يخدم المحمل المصرى أثناء حياته .^(١٦٩) ومن المعتقدات الشعبية المصرية أن من يمشى في موكب المحمل خير ممن يركب ..

قال (عبدالله بن سعد اليافعى) في ذلك نقلا عن (على بن الموفق) انه قال : « حججت سنة من السنين في محمل ، فرأيت رجالا يمشون ، فأحببت المشى معهم ، فنزلت وأركبت واحدا في محمل ومشيت معهم ، فتقدمنا الى البريد ، وعدلنا عن الطريق فنمنا ، فرأيت في منامى جوارى معهن طشوت ذهب وأباريق فضة يغسلن أرجل المشاة ، فبقيت أنا ، فقالت احداهن لصواحبها : أليس هذا منهم ؟ قلن هذا له محمل ، فقالت : بلى هو منهم ، لأنه أحب المشى معهم ، فغسلن رجلى فذهب عني كل تعب كنت أجده » .^(١٧٠)

ومن عادات المحمل المصرى التى لم تكن مذمومة ، بل كانت حميدة عادة ابداء الحجاج الراى فى أمير محملهم وهم على مشارف القاهرة وقبل دخولها كنوع من الاستفتاء عليه وذلك فى العصر المملوكى والعثمانى ..!

ففى حوادث عام ٨٩٩ هجرية فى شهر المحرم قال (ابن اياس) : « وفيه وصل الحجاج ولم يثنوا عن (قانصوه خمسمائة) خيرا ، ولا حمدت سيرته فى هذه السفرة ، وحكوا عنه أمورا غير صالحة على انه أرمى الناس وأخذ جمالهم ، وترك جماعة منهم بالينبع ، حتى أتوا من البحر المالح فيما بعد ، وشالوا له الحجاج رايات سود وهم داخلون البركة » (١٧١)

وإذا كان الحجاج يرفعون الرايات السود فى وجه أمير محملهم السيىء الطباع فإنهم يرفعون أيضا الرايات البيض فى وجه أمير محملهم الذى يرضون عنه . وهذا تمام ما ذكره كذلك (ابن اياس) فى حادثتين وقعتا فى سنتى ٩٢١ هجرية و٩٢٧ هجرية ، حيث قال فى الحادثة الأولى : « فلما رجعت الحجاج الى القاهرة اثنوا بكل خير على سيدى (عمر) بن الملك المنصور أمير ركب الأول ، وشالوا له الرايات البيض فى وسط الرملة » (١٧٢) أما فى الحادثة الثانية ، فقد قال عن هؤلاء الحجاج القادمين بعد مشقة : « .. وتعرضت لهم جماعة من العربان فى الطريق فأتقوا مع الأمير (جانم) وأمير الحاج ، فانتصر عليهم ، وقتل منهم جماعة ، فرجع الحجاج وهم راضيون عن أمير الحاج (جانم) واثنوا عنه كل جميل ، وشالوا له الرايات البيض فى بركة الحجاج » (١٧٣)

وحينما كان ينتقل حجاج المحمل المصرى الى الأراضى الحجازية كانوا ينقلون معهم معتقداتهم الشعبية وموروثهم الشعبى ، خاصة ما يتعلق بتصورهم عن الجان وزيارة قبور الأولياء بقصد التبرك ، وعلى الرغم من ذهابهم الى البيت الذى لا بركة من بعده توجد فى بيت آخر تعدله ، وهو بيت الله الحرام .

كان حجاج المحمل المصرى يعتقدون فى بركة ماء فى مدينة الينبع معتقدات شعبية خرافية ، وفى هذه البركة يقول (على باشا مبارك) فى الخطط : « فى كل سنة فى الغالب يقدر الله تعالى بغرق نفر من الحاج ، أما من المصرى أو من الشامى ، فى الذهب أو فى الاياب . وقد يتفق الغرق بعد الايذان بالرحيل ، فيقال ان البركة بها سكان من الجان يحصل منهم ذلك ، ويكونون سببا للغرق ، ويقال غير ذلك والله أعلم بحقيقة ذلك » (١٧٤) ولا يعرف من أين انتقل هذا المعتقد الخطيىء الى حجاج المحمل المصرى وهم فى طريقهم الى الاغتسال من كل صنوف الخطايا والذنوب عند بيته المحرم ، وكأنما دخلوا ... معاذ الله ... فى علم علّام الغيوب ..!

وفى نفس المنطقة عند واد يسمى (وادى القسطل) بشاطئ البحر كان هناك قبر لشيخ يدعى (مرزوق الكفافي) عليه حظير من الخشب ، وكانت العامة من الحجاج المصريين يقفون عنده ويدفعون لخادمه النذور ، وهذا التصرف فى

حد ذاته يعد عاديا في عرف المصريين . إذ أن كثيرا ما يحدث مثل ذلك عند اعتاب
أضرحة الأولياء في العديد من الأماكن في مصر ، على الرغم من سذاجة هذا الموقف ،
فإن مثل هذا الأمر لا يهم كثيرا أن نقف عنده ، ولكن الأهم ما كان يحدث من
الحجاج المصريين عند ضريح هذا الولي في منتصف القرن التاسع عشر والرابع
الآخر منه ، فماذا كان يحدث هناك ؟

يقول (على باشا مبارك) موضحا ذلك : « كان بعض الحجاج من العامة
يكسرون عند قبره أواني الزجاج المملوءة بماء الورد المسك ، يحملون ذلك
بصحبته من القاهرة لذلك ويعتقدون التبرك بمثله » (١٧٥)

لقد كثرت حول ظاهرة المحمل المصرى على امتداد تواجده الزمنى العديد من
العادات والتقاليد ، كما كثرت حوله أيضا معتقدات شعبية جانبها الكثير من
الصواب ، فبعدت في ضميمها عن جوهر الدين الإسلامى .

ولم يكن علينا بغريب في وقت من الأوقات أن يطالب أصحاب الملل الأخرى في
مصر بإنشاء محمل لهم أيضا .

وما المانع ؟ ألم تكن ظاهرة المحمل المصرى وغيره إلا ظاهرة شعبية وليست
دينية ؟

ولكن لأن البعض كان ينظر إليها بمنظار آخر مختلف فقد ولدت الفكرة وماتت في
مهدا .

يقول (الجبرتي) وهو يتحدث عن حوادث سنة ١١٦٦ هجرية : « ومن
الحوادث أيضا في نحو هذا التاريخ أن نصارى الأقباط قصدوا الحج الى بيت
المقدس ، وكان كبيرهم إذ ذاك (نوروز) كاتب (رضوان كتحذا) ، فكلم الشيخ
(عبدالله الشبراوى) في ذلك وقدم له هدية وألف دينار ، فكتب له فتوى وجوابا
ملخصه أن أهل الذمة لا يمنعون من دياناتهم وزياراتهم . فلما تم لهم ما أرادوا
شرعوا في قضاء أشغالهم وتشهيل أغراضهم ، وخرجوا في هيئة وأبهة واحمال
ومواهى وتختروانات فيها نساؤهم وأولادهم ومعهم طبول وزمور ، ونصبوا لهم
عرضا عند قبة العزب ، واحضروا العربان ليسيروا في خفارتهم ، وأعطوهم أموالا
وخلعا وكساوى وانعامات . وشاع أمر هذه القضية في البلد ، واستنكرها الناس .
فحضر الشيخ (عبدالله الشبراوى) الى بيت الشيخ (البكرى) كعادته ، وكان
(على أفندى) أخو (سيدى بكرى) ممرضا ، فدخل اليه يعوده ، فقال له :
« أى شيء هذا الحال يا شيخ الاسلام ؟ » ، على سبيل التيكيت ، كيف ترضى وتفتى
النصارى وتأذن لهم بهذه الأفعال لكونهم رشوك وهادوك ؟ فقال : « لم يكن ذلك » .
قال : « بل رشوك بألف دينار وهدية ، وعلى هذا تصير لهم سنة ويخرجون في العام
القابل بازيد من ذلك ، ويصنعون لهم محملا ، ويقال حج النصارى ، وحج
المسلمين وتصير سنة عليك ، وزرها الى يوم القيامة » . فقام الشيخ ، وخرج من
عنده مغتاظا ، وأذن للعامة في الخروج عليهم ونهب ما معهم ، وخرج كذلك طائفة

من مجاورى الأزهر ، فاجتمعوا عليهم ، ورجموهم ، وضربوهم بالعصى
والمساق ، ونهبوا ما معهم ، وجؤسوه ، ونهبوا أيضا الكنيسة القريبة من
« دمرdash » وانعكس النصارى فى هذه الحادثة عكسة بليغة ، وراح عليهم ،
وذهب ما صرفوه وانفقوه فى الهباء . (١٧٦)

بعد ذلك بنحو نصف قرن نخل (الجبرتى) يضرب كفا بكف وهو يرى
النصارى فى موكب كسوة الكعبة المشرفة الذى جرى فى شهر شوال سنة
١٢١٣ هجرية .

قال (الجبرتى) : « وفى ثامنه يوم الجمعة ، نودى فى الأسواق بموكب كسوة
الكعبة المشرفة من قرميدان والتنبيه باجتماع الوجاقات وأرباب الأشاير وخلافهم
على العادة فى عمل الموكب ، فلما أصبح يوم السبت اجتمع الناس فى الأسواق
وطريق المرور ، وجلسوا للفرجة ، فمروا بذلك وامامها الوالى والمحتسب ، وعليهم
القفاطين والبينشات وجميع الأشاير بطبولهم وزمورهم وكاساتهم ، ثم (يرطلمين
كتخدا مستحفظان) وامامه نفر الينكجيرية من المسلمين نحو المائتين او اكثر ،
وعدة كثيرة من نصارى الأروام بالأسلحة والملازمين بالبراقع ، وهو لابس فروة
عظيمة ، ثم مواكب القلقات ، ثم موكب ناظر الكسوة ، وهو تابع (مصطفى كتخدا
الباشا) ، وخلفه النوبة التركية ، فكانت هذه الركبة من أغرب المواكب وأعجب
العجائب لما اشتملت عليه من اختلاف الأشكال ، وتنوع الأمثال ، واجتماع الملل ،
وارتفاع السفل ، وكثرة الحشرات ، وعجائب المخلوقات ، واجتماع الأضداد ،
ومخالفة الوضع المعتاد » (١٧٧)

وكان للمحمل المصرى فداء يسمى (فداء المحمل) وهى ظاهرة امتزجت فيها
العديد من الخرافات الشعبية وشكلت أمورا غريبة وعجيبة .

فقد كان يحدث هذا الفداء عند مقام الشيخ (سيدى سعيد) الموجود بمنطقة
السبتية بالقاهرة ، فكان من المعتاد عند قدوم المحمل المصرى من الحج أن ترسل
الحكومة جملا فداء عن جمل المحمل ، وكان الناس يدل أن ينتظروا نحره ليوزع
عليهم لحمه يقطعونه بالمدى وهو حى ، « وكانوا يبيعون لحمه الى الناس على
سبيل البركة مدعين ان لحمه ينفع للصداع وشحمه للبواسير » !! (١٧٨)

إن المحمل المصرى الذى توقفت مظاهره الاحتفالية الرسمية منذ أوائل منتصف
القرن العشرين مازالت بقاياها الاحتفالية بموروثاتها تعيش داخل بعض الجماعات
الشعبية المصرية الى الآن . وليس أدل على ذلك سوى الاحتفال السنوى الذى يقام
الى الآن فى مدينة منفلوط بمحافظة أسيوط صباح يوم الأول من أيام عيد الفطر ،
حيث يجوب الأهالى فى المدينة هناك أرجاء بلدهم خلف نموذج مصغر من المحمل
لازالوا الى الآن يحتفظون به . (١٧٩)

وش فى خلقه شئون .. !!

الهوامش والمراجع

- (١) اللواء / ابراهيم رفعت باشا - « مرآة الحرمين » ، ص ٣٠٤ - ٢ .
- (٢) محمد لبيب البتنوني - « الرحلة الحجازية » ، ص ١٤٠ .
- (٣) النويري - « نهاية الارب » ، ص ١٣٥ ، ٢١٩ ، ٣٣٤ - ٢١ .
- (٤) القزويني - « عجائب المخلوقات » - ص ٢٦٨ - ٦ - كتاب التحرير رقم ١٣١ - دار التحرير للطبع والنشر :
- (٥) محمد لبيب البتنوني - « الرحلة الحجازية » - ص ١٤٠ .
- (٦) الحريري « مقالات الحريري » - ص ٣٢٤ - المكتبة الشعبية ببيروت - بدون تاريخ .
- (٧) د . ثروت عكاشة - « فن الواسطي من خلال مقالات الحريري » - ص ٧١ - دار المعارف ١٩٧٤ ، ويلاحظ على وصف الأستاذ الدكتور (ثروت عكاشة) ان وصف الهودج بأنه (هودج النساء) هو وصف - في رأينا - غير دقيق ، لأن ما يتقدم من ركب المحمل مع قلعة القافلة هو هودج المحمل نفسه ، وهو الهيكل الخشبي ذو الكسوة المزركشة ، وهو للاشعار فقط ولا يركبه أحد .
- (٨) عبدالقادر الانصاري الجزيري - « درر الفرائد المنظمة » ، ص ٢٨٧ .
- (٩) الفاسي - « شفاء الغرام » ، ص ٢٤٢ - ٢ ، عبدالقادر الانصاري الجزيري - « درر الفرائد » ، - ٢٨٨ .
- (١٠) عبدالقادر الانصاري الجزيري - « درر الفرائد » ، ص ٢٩٣ .
- (١١) ابن ايلس « بدائع الزهور » ، ص ٦٨٦ - ١ ق ٢ .
- (١٢) رسلان بن يحيى القاري - « الوزراء الذين حكموا دمشق » ، وهو احد جزعين في كتاب « ولاية دمشق في العهد العثماني » ، ص ٧٧ ، ٨٢ ، ٨٣ دمشق ١٩٤٩ .
- (١٣) المرجع السابق - ص ٩٣ .
- (١٤) المرجع السابق - ص ٢٤ .
- (١٥) عبدالقادر الانصاري الجزيري « درر الفرائد » - ص ٣١٣ ، الشيخ احمد الرشيدى - « حسن الصفا والابتهاج » - ص ١٣٧ .
- (١٦) المرجع السابق - ص ٣٤٢ .
- (١٧) الفاسي - « شفاء الغرام » - ص ٢٥١ - ٢ .
- (١٨) عبدالقادر الانصاري الجزيري - « درر الفرائد » - ص ٢٣٤ .
- (١٩) المرجع السابق - ص ٢٩٤ .
- (٢٠) المرجع السابق - ص ٣٤١ .
- (٢١) (سيد عبدالمجيد بكر) - « الملامح الجغرافية لدروب الحجيج » - ص ١٨٢ - ٢١١ سلسلة الكتاب الجامعي رقم ٦ - دار تهامة - جدة ١٩٨١ .

- (٢٢) المرجع السابق ص ١٩٣ .
- (٢٣) ولاية دمشق ص ١١٠ .
- (٢٤) ابن بطوطة « رحلة ابن بطوطة » ص ٧٨ ح ٢ .
- (٢٥) عبدالقادر الانصاري الجزيري « درر الفرائد » ص ٤٥٧ .
- (٢٦) النابلسي « الحقيقة والمجاز » ص ٤٣٨ .
- (٢٧) المرجع السابق ص ٤٨٢ .
- (٢٨) المرجع السابق ص ٤٨٣ .
- (٢٩) ابن بطوطة « رحلة ابن بطوطة » ص ٧٨ ح ٢ .
- (٣٠) ابن جبير « رحلة ابن جبير » ص ٢٠٠ .
- (٣١) رسلان بن يحيى القاري « الوزراء الذين حكموا دمشق » ص ٧٧ من كتاب ولاية دمشق .
- (٣٢) سيد عبدالمجيد بكر « الملامح الجغرافية لدروب الحجيج » ص ١٨٠ .
- (٣٣) ابن ايلس « بدائع الزهور » ص ٨٩ ح ٤ .
- (٣٤) عبدالقادر الانصاري الجزيري « درر الفرائد المنظمة » ص ٣١٠ .
- (٣٥) المرجع السابق ص ٢٩٨ .
- (٣٦) الفاسي « شفاء الغرام .. » ص ٢٢٢ ح ٢ .
- (٣٧) ابن جبير « رحلة ابن جبير » ص ١٣٢ .
- (٣٨) المرجع السابق ص ١٦٩ .
- (٣٩) المرجع السابق ص ١٦٩ .
- (٤٠) المرجع السابق ص ١٣٧ .
- (٤١) عبدالقادر الانصاري الجزيري « درر الفرائد المنظمة » ص ٢٥٨ .
- (٤٢) المرجع السابق ص ٣٠٤ .
- (٤٣) المرجع السابق ص ٣٤٣ .
- (٤٤) المرجع السابق ص ٣٣٧ .
- (٤٥) المرجع السابق ص ٣٣٧ .
- (٤٦) ابن ايلس « بدائع الزهور » ص ٨٨ ح ٣ .
- (٤٧) الفاسي « شفاء الغرام .. » ص ٢٤٥ ح ٢ .
- (٤٨) المقرئزي « كتب السلوك » ص ١١٦٦ ح ٣ ق ٢ ، ابن ايلس « بدائع الزهور » ص ٧٢٣ ح ١ ق ٢ .
- (٤٩) قطب الدين محمد النهرواني « البرق اليماني في الفتح العثماني » ص ١٢١ إشراف حمد الجاسر . منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر . الرياض / المملكة العربية السعودية . الطبعة الأولى ١٩٦٧ .
- (٥٠) اللواء / ابراهيم رفعت ياشا « مراة الحرمين » ص ٣٠٥ ح ٢ .
- (٥١) عبدالقادر الانصاري الجزيري « درر الفرائد المنظمة » ص ٤٤٨ .
- (٥٢) الفاسي « شفاء الغرام .. » ص ٢٥١ ح ٢ .
- (٥٣) عبدالقادر الانصاري الجزيري « درر الفرائد » ص ٣١٢ .
- (٥٤) المرجع السابق ص ٢٨٨ .
- (٥٥) المرجع السابق ص ٤٦٩ .
- (٥٦) الفاسي « شفاء الغرام .. » ص ٢٣٥ ح ٢ .

- (٥٧) ابن ايس « بدائع الزهور » ص ٥٣٦ ح ١ ق ١ ، ٥٣٧ ح ١ ق ١ : الفاسى « شفاء الغرام » ص ٢٤٧ ح ٢ .
- (٥٨) ابن ايس « بدائع الزهور » ص ٢٣٨ ح ١ ق ٢ .
- (٥٩) المرجع السابق ص ٩٥ ح ٤ .
- (٦٠) العصامى المكى « صمت النجوم العوالى » ص ١٨٣ ح ٤ .
- (٦١) د . ابراهيم شحاتة حسن « اطوار العلاقات المغربية العثمانية » ص ٣٠٨ منشأة المعارف بالاسكندرية ١٩٨١ .
- (٦٢) المرجع السابق ص ٣٠٩ .
- (٦٣) الجبرتى . « عجائب الآثار » ص ٢٦٩ ح ٢ .
- (٦٤) د . يونان لبيب رزق ومحمد مزين « تاريخ العلاقات المصرية المغربية » ص ٦٨ سلسلة تاريخ المصريين (٣٤) . الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٠ .
- (٦٥) الجبرتى « عجائب الآثار » ص ٥٥١ ح ٢ .
- (٦٦) ابن ايس « بدائع الزهور » ص ٤٧٢ ح ١ ق ١ .
- (٦٧) عبدالقادر الانصارى الجزيرى « درر الفرائد المنظمة » ص ٣٠٦ .
- (٦٨) ابن ايس « بدائع الزهور » ص ٦٢٤ ح ١ ق ٢ .
- (٦٩) المرجع السابق ص ٨٣ ح ٣ .
- (٧٠) الجبرتى « عجائب الآثار » ص ٣٣٥ ح ٣ .
- (٧١) ابن ايس « بدائع الزهور » ص ٣٤١ ح ١ ق ٢ .
- (٧٢) الجبرتى « عجائب الآثار » ص ٥١ ح ١ .
- (٧٣) المرجع السابق ص ٥٥ ح ٢ .
- (٧٤) د . يونان لبيب رزق ومحمد مزين « تاريخ العلاقات المصرية المغربية » ص ٥٧ .
- (٧٥) المرجع السابق ص ٢٢٠ .
- (٧٦) ابن ايس « بدائع الزهور » ص ٢١١ ح ٣ ، كلوت بك . « لمحة عامة الى مصر » ص ٧٤ ح ٤ : د . يونان لبيب رزق ومحمد مزين « تاريخ العلاقات المصرية المغربية » ص ٨٣ .
- (٧٧) المقرئى « الذهب المسبوك » ص ١١٠ .
- (٧٨) المرجع السابق ص ١١١ .
- (٧٩) الفاسى « شفاء الغرام .. » ص ٢٤٤ ح ٢ .
- (٨٠) المقرئى « الذهب المسبوك » ص ١١٢ .
- (٨١) عبدالقادر الانصارى الجزيرى « درر الفرائد المنظمة » ص ٣٠٠ .
- (٨٢) القلقشندى « صبح الاعشى » ص ٢٩٦ ح ٥ : المقرئى « الذهب المسبوك » هامش ص ١١٣ .
- (٨٣) عبدالقادر الانصارى الجزيرى « درر الفرائد المنظمة » ص ٣٢٠ : ابن ايس « بدائع الزهور » ص ٢٩ ح ٢ .
- (٨٤) عبدالقادر الانصارى الجزيرى « درر الفرائد المنظمة » ص ٣٣٢ .
- (٨٥) المرجع السابق ص ٣٠٩ ، ص ٣١٣ .
- (٨٦) العصامى المكى « صمت النجوم العوالى » ص ٥٦٥ ح ٤ .
- (٨٧) ابن ايس « بدائع الزهور » ص ٣٥٣ ح ١ ق ٢ ، ٣٧٤ ح ١ ق ٢ ، ص ٦٣٣ ح ١ ق ٢ .

- (٨٨) المرجع السابق ص ١٦٨ ح ٤ .
- (٨٩) اللواء / ابراهيم رفعت باشا ، مرآة الحرمين ، ص ٣٠٥ ح ٢ ، وقد ذكر هذه المعلومة كذلك سيد عبدالمجيد بكر في كتابه ، الملامح الجغرافية لدروب الحجيج ، ص ١٨٠ .
- (٩٠) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ص ٢١٢ ح ٥ .
- (٩١) المرجع السابق ص ٢١٩ ح ٥ .
- (٩٢) السنجاري المكي . ورقة ٥٠ ح ٢ . مخطوطة من مكتبة الحرم المكي .
- (٩٣) د . حسين مجيب المصري ، معجم الدولة العثمانية ، ص ٣٠٦ . مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٩ .
- (٩٤) سيد عبدالمجيد بكر ، الملامح الجغرافية لدروب الحجيج ، ص ١٨٠ .
- (٩٥) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ص ٣٣٨ ح ١ ق ٢ ، صلاح الدين المنجد ، ولاية دمشق في العصر العثماني ، ص ١ ، ص ٥٣ .
- (٩٦) سيد عبدالمجيد بكر ، الملامح الجغرافية لدروب الحجيج ، ص ١٨٠ .
- (٩٧) نعوم شقير ، تاريخ سيناء القديم والحديث وجغرافيتها ، ص ٢٦٣ . الناشر د . بنيوتى . ف . خريستوبولس . اثينا ١٩٨٥ : اللواء ابراهيم رفعت باشا ، مرآة الحرمين ، ص ٣٠٦ ح ٢ .
- (٩٨) المقرئى ، الذهب المسبوك ، ص ١١ .
- (٩٩) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ص ٣٣١ ح ١ ق ١ .
- (١٠٠) الجبرتي ، عجائب الآثار ، ص ٣٠ ح ١ .
- (١٠١) المقرئى ، خطط المقرئى ، ص ٦٢٢ ح ١ .
- (١٠٢) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ص ١٧٩ ح ١ ق ١ .
- (١٠٣) عبدالقادر الانصارى الجزيرى ، درر الفرائد المنظمة ، ص ٨٩ .
- (١٠٤) المرجع السابق ص ١١٢ : اللواء / ابراهيم رفعت باشا ، مرآة الحرمين ، ص ٣٣٣ ح ٢ .
- (١٠٥) عبدالقادر الانصارى الجزيرى ، درر الفرائد ، ص ١١٥ .
- (١٠٦) المرجع السابق ص ١٢٤ .
- (١٠٧) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ص ٤٤٣ ح ١٢ .
- (١٠٨) عبدالقادر الانصارى الجزيرى ، درر الفرائد المنظمة ، ص ١٢٥ .
- (١٠٩) علماء الحملة الفرنسية ، وصف مصر ، - ص ٢٤٣ ج ٥ .
- (١١٠) إدوارد وليم لين ، المصريون المحدثون ، ص ٣٦٥ .
- (١١١) المرجع السابق ص ٣٦٩ .
- (١١٢) ابراهيم حلمي ، كسوة الكعبة الشريفة ، بمجلة الفنون الشعبية ص ٩٨ العدد (٢٩) اكتوبر ، نوفمبر ، ديسمبر ١٩٨٩ .
- (١١٣) صفوت كمال ، مدخل لدراسة الفولكلور الكويتي ، ص ٢٠٨ . وزارة الاعلام - الكويت - الطبعة الثانية ١٩٧٣ .
- (١١٤) احمد تيمور باشا ، الامثال العامية ، ص ٤١٢ ، ٥١٤ .
- (١١٥) ابن بطوطة ، رحلة ابن بطوطة ، ص ٣٨ ح ١ - دار التحرير - كتاب التحرير رقم (١٦٦) .
- (١١٦) الخطيب الجوهري ، نزهة النفوس والابدان ، ص ٣٤٦ ح ٣ .
- (١١٧) المقرئى ، كتاب السلوك ، ص ٨٥١ ح ٢ ق ٣ .

- (١١٨) المقرئى « كتاب السلوك » ص ٢١٤ ح ٢ ق ١ . ص ٢٥٠ ح ٢ ق ٣ . ص ٦٩٦ ح ٣ ق ٢ . ص ٨٣٣ ح ٤ ق ٢ .
- (١١٩) المقرئى « كتاب السلوك » ص ٦١٤ ح ٤ ق ٢ .
- (١٢٠) المرجع السابق ص ٨٣١ ح ٤ ق ٢ .
- (١٢١) ابن ايس « بدائع الزهور » ص ٢٨٨ ح ٤ .
- (١٢٢) عبدالقادر الانصارى الجزيرى « درر الفرائد المنظمة » ص ٢٨١ .
- (١٢٣) ابن ايس « بدائع الزهور » ص ٣٣١ ح ١ ق ١ .
- (١٢٤) المرجع السابق ص ٤٢١ ح ١ ق ١ .
- (١٢٥) المرجع السابق ص ٤٤٣ ح ١ ق ١ .
- (١٢٦) المرجع السابق ص ٤٥٢ ح ١ ق ١ .
- (١٢٧) المرجع السابق ص ٤٦٣ ح ١ ق ١ .
- (١٢٨) المرجع السابق ص ٤٠٩ ح ٤ .
- (١٢٩) المرجع السابق ص ٤٤١ ح ٤ .
- (١٣٠) المرجع السابق ص ٣٣٦ ح ١ ق ١ .
- (١٣١) المرجع السابق ص ٥١٤ ح ١ ق ٢ .
- (١٣٢) المرجع السابق ص ٢٩٠ ح ٢ ق ٢ .
- (١٣٣) المرجع السابق ص ٣١٤ ح ٢ . ص ٣٢٠ ح ٢ . ص ٣٩٣ ح ٢ . ص ٤٠٤ ح ٢ . ص ٥٩ ح ٤ .
- (١٣٤) المرجع السابق ص ٥٩ ح ٤ .
- (١٣٥) المرجع السابق ص ٦١ ح ٤ .
- (١٣٦) جاسنون فييت « القاهرة مدينة الفن والتجارة » ص ١٢٦ . ترجمة د . مصطفى العبادى . كتاب اليوم . العدد (٣٠٨) مايو ١٩٩٠ .
- (١٣٧) محمد قنديل البقل « صور من ادبنا الشعبى » ص ١٤٩ . مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٢ .
- (١٣٨) ابن ايس « بدائع الزهور » ص ١٩٢ ح ١ ق ٢ .
- (١٣٩) المرجع السابق ص ٢٥٤ ح ٤ .
- (١٤٠) المقرئى « كتاب السلوك » ص ٤٩٧ ح ٣ ق ٢ .
- (١٤١) الجبرتى « عجائب الآثار » ص ٦٣٨ ح ١ .
- (١٤٢) المرجع السابق ص ٢٩١ ح ٢ .
- (١٤٣) المرجع السابق ص ٤٦٧ ح ٣ .
- (١٤٤) اللواء / ابراهيم رفعت باشا « مرآة الحرمين » ص ١٥٤ ح ٢ .
- (جيران دى نرفال « رحلة الى الشرق » ص ٢٢٢ ح ١ . ترجمة د . كوثر عبدالسلام . الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦ .
- (١٤٦) مصطفى المحمل موقعها امام محطة سكك حديد القلعة سابقا ، والمقام مكانها سنترال القلعة ، بالاضافة الى مبان اخرى مجاورة ، مثل مبنى الحزب الوطنى للخليفة ، ومبرة مصطفى كامل ، ومدرسة السيدة عائشة والساحة الشعبية وحتى خزان مياه السيدة عائشة وحديقته .
- (١٤٧) اللواء / ابراهيم رفعت باشا ، « مرآة الحرمين » ص ٩ ح ١ .
- (١٤٨) اللواء / ابراهيم رفعت باشا « مرآة الحرمين » ص ١٣ ح ١ .
- (١٤٩) ادوارد وليم لين « المصريون المحدثون » ص ٣٧١ .
- (١٥٠) جيران دى نرفال « رحلة الى الشرق » ص ٢٢٤ ح ١ .

- (١٥١) محمد لبيب البتتوني ، الرحلة الحجازية ، ص ١٤٤ .
- (١٥٢) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ص ٢٤٥ ح ١١ . المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر . بدون تاريخ .
- (١٥٣) محمد لبيب البتتوني ، الرحلة الحجازية ، ص ١٤٤ .
- (١٥٤) المقرئى ، كتاب السلوك ، ص ١١٩٣ ح ٤ ق ٣ .
- (١٥٥) عبدالقادر الأنصارى الجزيرى ، دبر الفرائد المنظمة ، ص ٥٣٣ .
- (١٥٦) احمد أمين ، قاموس العادات والتقاليد ، ص ٣٦٠ . مكتبة النهضة المصرية . الطبعة الثانية .
- (١٥٧) اللواء / ابراهيم رفعت باشا ، مرآة الحرمين ، ص ١١ ح ١ .
- (١٥٨) هذا رأى للأستاذ (محمد مصطفى ناجى) مدير ادارة الكسوة الشريفة السابق ، وقد ادلى لى به فى حديث له معى فى بيته بالمهندسين بالقاهرة فى ١٩٨٨/٨/٥ .
- (١٥٩) احمد أمين ، قاموس العادات والتقاليد ، ص ٣٦٠ .
- (١٦٠) روى لنا هذه الحادثة الأستاذ (كامل يوسف اصيل) بدار الكسوة الشريفة يوم ١٩٨٨/٨/٣ بالقاهرة .
- (١٦١) روى لنا ذلك الأستاذ (محمد مصطفى ناجى) مدير ادارة الكسوة السابق .
- (١٦٢) الجبرتى ، عجائب الآثار ، ص ٥١ ح ١ .
- (١٦٣) د . يونان لبيب رزق ، ومحمد مزين ، تاريخ العلاقات المصرية المغربية منذ مطلع العصور الحديثة حتى عام ١٩١٢ ، ص ٥٧ سلسلة تاريخ المصريين رقم (٣٤) الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٠ .
- (١٦٤) المرجع السابق ونفس الصفحة .
- (١٦٥) ادوارد وليم لين ، المصريون المحدثون ، ص ٣٧٢ .
- (١٦٦) محمد لبيب البتتوني ، الرحلة الحجازية ، ص ١٤٥ .
- (١٦٧) ادوارد وليم لين ، المصريون المحدثون ، ص ٣٧٠ ، ٤٠٧ .
- (١٦٨) اللواء / ابراهيم رفعت باشا ، مرآة الحرمين ، ص ٣٣٥ ح ٢ .
- (١٦٩) محمد لبيب البتتوني ، الرحلة الحجازية ، ص ١٤٢ .
- (١٧٠) عبدالله بن اسعد اليافعى ، روض الرياحين فى حكايات الصالحين ، ص ١٣٥ . مؤسسة عماد الدين . قبرص . بدون تاريخ .
- (١٧١) ابن ايلس ، بدائع الزهور ، ص ٢٩٧ ح ٣ .
- (١٧٢) المرجع السابق ص ٤٤١ ح ٤ .
- (١٧٣) المرجع السابق ص ٣٧٩ ح ٥ .
- (١٧٤) على باشا مبارك ، الخطط التوفيقية ، ص ٣٣ ح ١٤ . الطبعة الأولى . مطبعة الكبرى الأميرية ببولاق مصر ١٣٠٥ هجرية .
- (١٧٥) المرجع السابق ص ٣٠ ح ١٤ .
- (١٧٦) الجبرتى ، عجائب الآثار ، ص ٢٧٨ ح ١ .
- (١٧٧) المرجع السابق ص ٢٥٨ ح ٢ .
- (١٧٨) محمد لبيب البتتوني ، الرحلة الحجازية ، ص ١٤٥ ، اللواء / ابراهيم رفعت باشا ، مرآة الحرمين ، ص ١٤٣ ح ٢ .
- (١٧٩) وداد حامد . مقالة بمجلة الهلال ص ٦٦ . عدد اغسطس ١٩٨٨ . دار الهلال بالقاهرة .



فنون الأغاني والموسيقى الشعبية في موكب قوافل الحج

نبعت حاجة الإنسان إلى الموسيقى والكلمة المنقمة من
أجل السمو بالأحاسيس والمشاعر كهدف علم متسع ، وقد
ينحصر هذا الهدف في دائرة ضيقة مجالها التسرية
والتسلية إذا ما واجه الإنسان بعض المشاق أو الصعاب
في رحلته اليومية .

وفي عالم العقائد كان للموسيقى أهمية كبرى ، تتبدى
إيجابيا وسلبيا في آن واحد ، فمن العقائد - كما يقول الدكتور (فؤاد زكريا) -
ما كانت تستعين بالموسيقى في بث الإيمان بها في نفوس الناس ^(١) .
وسواء أكان الهدف من الأغاني والموسيقى هو السمو بالأحاسيس والمشاعر ،
أو التسرية والتسلية ، أو بث الإيمان في النفوس ، فإنهما في أي حالة من هذه
الحالات كانتا ضروريتين من ضرورات النوازع البشرية في رحلة الاغتسال من
الذنوب عند الذهاب إلى بيت الله الحرام أو عند المجيء منه وحط الرجال .
ولقد نشأ منذ القدم فن في الغناء العربي استوجبته وحشة الطريق ، عبر رمال
مفاوز الصحراء . هذا الفن العربي الغنائي القديم هو فن « الحُداء » ، حيث كان
الإنسان العربي في سالف العصور يمتطي جملة ، أو يسير به في رفقة طريق شاق ،
ولا يجد أمامه وسيلة لتقليل النصب والمشاق سوى في تغمات منداحة ، تطوف
معه الأفاق الممتدة الأطراف حاديا أو شاديا بها للجمل الذي يمتطيه أو يلزمه
المسير وكذلك لنفسه .

يقول (الدكتور حسين نصار) عن فن الحُداء : « إذا كنا لانزال نرى راكب
الجمل أو الناقة يشغل وقته في رحلته متغنيا ، فنحن على يقين أن هذا الراكب كان
يفعل ذلك منذ ركب في التاريخ . فالحُداء - فيما يقال - أقدم أنواع الشعر والغناء
التي توصل إليها العربي » . ^(٢)

وقيل إن أول من توصل إلى فن « الحُداء » هو (مضر بن نزار) ، وذلك أنه
سقط من بعيره فاندقت يده وتفرقت إبله ، فجعل يقول : « يايداه يايداه » . وكان
حلقه حسن الصوت فاجتمعت إبله ، فحدث العرب على هذا المثال ^(٣) .
ولقد ورث الاسلام هذا الميراث العربي القديم لفن « الحُداء » ، ولأنه رآه لازما
لحياة الإنسان العربي ابن البادية العربية فقد تعهده بالرعاية والاهتمام في كل
مناسبة يعن له إبراز تلك الرعاية وذاك الاهتمام .

ومما يذكر في هذا الشأن أن الرسول المصطفى - صلى الله عليه وسلم - طلب
مداحه (حسان بن ثابت) في سفره لكي يحدو ، فجعل ينشرو ويصغي إليه رسول

الله - صلى الله عليه وسلم - ويستمتع ، فما زال يسمع إليه وهو سائق راحلته حتى كاد رأس راحلته يمس الورك ، حتى فرغ من نشيده . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : لهذا أشدُّ عليهم من وقع النبل .^(٤)

وحقيقة إن الأبل تنسى نفسها مع أغاني ونغمات الحادي ، حتى يكاد أن يقتلها جهد المسير المضني ، ولذا طلب الرسول الكريم الرحمة للأبل ، خوفا من استمرار سماعها لحدو الحادي لها في الصحراء القفار فينسيها ذلك ألم المسير ذي النصب والتعب الشديدين عليها .

وقيل إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين دخل مكة في العمرة ، التي قام بها بعد صلح الحديبية بعام ، دخلها و (عبدالله بن رواحة) أخذًا بخطام ناقته ، وهو يقول :^(٥)

خلوا بني الكفار عن سبيله
خلوا فكل الخير في رسوله
يارب إنى مؤمن بقيله
اعرف حق الله في قبوله

ولم يكن غريبا على الحضارة العربية أن ينبغ فيها المغنون القدماء ، الذين كانوا يغنون في طرق قوافل الحج الإسلامية ، سواء عن طريق نغمات الحداء أو عن طريق نغمات شعرية أخرى عرفها الإنسان العربي ابن حضارة البوادي والمدن .

ولعل أشهر ما اشتهر من هؤلاء المغنين العرب كان (عبيد بن سريج) مولى بني نوفل بن عبدمناف ، والذي ولد في خلافة (عمر بن الخطاب) وتوفي في خلافة (هشام بن عبدالمك) وقت الدولة الأموية ، وكذلك (حنين بن بلوع الحادي) في أوائل المائة الثانية من العام الهجري و (سالم الحادي) ، و (أبو المحكم عوف) و (مخارق بن يحيى الجزار) مولى الرشيد في عصر الدولة العباسية . كان أولهم (عبيد بن سريج) يصاحب الشاعر (عمر بن أبي ربيعة) ، ويغنى له وللآخرين بعض أشعاره . وذات مرة قال (عمر بن أبي ربيعة) له : يا أبا يحيى ، إنى تفكرت في رجوعنا مع العشية إلى مكة مع كثرة الزحام والغبار وجلبة الحاج فتقل على ، فهل لك أن نروح رواحا طيبا معتزلا ، فنرى فيه من راح صادرا إلى المدينة من أهلها ونرى أهل العراق وأهل الشام وتتعلى في عشتينا وليلتنا ونستريح ، قال : وأين ذلك يا أبا الخطاب ؟ قال : على كتيب أبي شجوة المشرف على بطن يأجج بين منى وسرف ، فنبصر مرور الحاج بنا ونراهم ولا يرونا . قال (ابن سريج) : طيب والله ياسيدي ، فدعا بعض خدمه فقال : اذهبوا إلى الدار بمكة ، فاعملوا لنا سفرة واحملوها مع شراب إلى الكتيب ، حتى إذا أبردنا ورمينا الجمره صرنا إليكم . قال : والكتيب على خمسة أميال من مكة مشرف على طريق المدينة وطريق الشام وطريق العراق ، وهو كتيب شامخ مستدق

أعلاه منفرد عن الكثبان - فصارا إليه فأكلا وشربا ، فلما انتشيا أخذ (ابن سريج) الدف فنقره وجعل يغنى وهم ينتظرون إلى الحاج ، فلما أمسيا رفع (ابن سريج) صوته يغنى في الشعر الذي قاله عمر ، فسمعه الركبان فجعلوا يصيحون به : يا صاحب الصوت . أما تتقى الله ! قد حبست الناس عن مناسكهم ! فيسكت قليلا ، حتى إذا مضوا رفع صوته وقد أخذ فيه الشراب فيقف آخرون ، إلى أن مرت قطعة من الليل ، فوقف عليه في الليل رجل على فرس عتيق عربي مرح مستن ، فهو كأنه ثمل ، حتى وقف بأصل الكثيب وثنى رجله على قربوس سرجه ، ثم نادى : يا صاحب الصوت ، أيسهل عليك أن ترد شيئا مما سمعته ؟ قال : نعم ونعمة عين ، فأياها تريد ؟ قال : تعيد عليّ :

ألا يا غراب البين مالك كلما نعبت بفقدان عليّ تصوم
أبا البين من عفراء أنت مخبري عذمتك من طير فانت مشوم
قال : والغناء لابن سريج - فأعاده ، ثم قال له (ابن سريج) : أزدد إن شئت ، فقال : عنني :

أمسلم إنى يابن كل خليفة ويا فارس الهيجا ويا قمر الأرض
شكرتك إن الشكر حبل من التقى وما كل من أقرضته نعمة يقضى
ونوّهت لى بإسمى وما كان خاملا ولكن بعض الذكر أنه من بعض
فغناه ، فقال له : الثالث ولا أستزيدك ، فقال : قل ما شئت ، فقال : تغنيني :
يادار أقوت بالجرع فالكثب بين مسيل العذيب فالرحب
لم تتقنع بفضل مؤزرها دعد ولم تسق دعد في القلب
فغناه ، فقال له (ابن سريج) : أبقيت لك حاجة ؟ قال : نعم ، تنزل إلى
لأخاطبك شفاها بما أريد ، فقال له (عمر) : أنزل إليه ، فنزل ، فقال له : لولا أنى
أريد وداع الكعبة وقد تقدمنى ثقلى وغلمانى لأطلت المقام معك ولنزلت عندكم ،
ولكنى أخاف أن يفضحنى الصبح ، ولو كان ثقلى معى لما رضيت لك بالهوينى ،
ولكن خذ خلتي هذه وخاتمي ولا تخدع عنهما ، فإن شراءهما ألف وخمسمائة
دينار .^(٦)

وسُمع غناء (ابن سريج) ذات مرة عند جبل بمعنى غداة النفر والارتحال وهو ينشد :^(٧)

جددى الوصل يا قريب وجودى لحب فراقه قد أجا
ليس بين الحياة والموت إلا أن يردوا جمالهم فتزما
قيل : إن كل مضرب وخباء سمع الغناء صار يرسف في الحنين والأنين .. ! أما
المغنى العربى (حنين بن بلوع الحيرى) فقد عمر طويلا غناءه بين العرب ،
حيث قد وصل من العمر نحو مائة وسبع سنين عاشها بينهم ومات .
ومما يروى عنه (أبو الفرج الأصفهاني) أن قال : « حج (هشام
بن عبد الملك) وعديله - شخص يوضع في الجنب الآخر للمحمل ليتوازن الحمل

فوق ظهر الجمل - (الأبرش الكلبى) ، فوقف له (حنين) بظهر الكوفة ومعه عوده وزامر له ، وعليه قلنسوة طويلة ، فلما مر به (هشام) عرض له ، فقال : من هذا ؟ فقيل : حنين ، فأمر به فحمل فى حمل على جمل وعذيله زامره ، وسير به أمامه وهويتغنى :

أمن سلمى بظهر الكوفية الآيات والطلل
يلوح كما تلوح على جفون الصقل الخل
فأمر له (هشام) بمائتى دينار ، وللزامر بمائة ، وقيل : إنه غنى هشاما :
صاح هل أبصرت بالخيب تين من أسماء نارا
موهنا شئت لعينيك ك ولم توقد نهارا
كتلالى البرق فى المز ن إذا البرق استطارا
أذكرتنى الوصل من سعد دى وإياما قصارا
فلم يزل هشام يستعيده حتى نزل من النجف ، فأمر له بمائتى دينار . وقيل ذات مرة لحنين : أنت تغنى منذ نحو خمسين سنة ما تركت بكريم مالا ولا دارا ولا عقارا إلا أتيت عليه ! ، فقال : بابى أنتم ، إنما هى أنفاسى أقسمها بين الناس ، أفقوموننى أن أغلى بها الثمن !

وخلال موسم الحج ، والناس تشتترى وتبيع برز شيخ أبيض الرأس واللحية على بغلة شهباء ، فقال يسأل : أين بيت أبى موسى ؟ فدلوه إليه ، فمضى حتى انتهى إلى الظل من بيت أبى موسى ، ثم راح يغنى

أسعدينى بدمعة أسراب من دموع كثيرة التسكاب
إن أهل الحصاب قد تركونى مغرما مولعا بأهل الحصاب
فأرقونى وقد علمت يقينا ما لمن ذاق ميتة من إياب
سكنوا الجزع بيت أبى موسى إلى النخل من صفى الشباب^(٩)
كم بذاك الحجون من حى صدق وكهول أعفة وشباب
أهل بيت تتابعوا للمنايا ما على الموت بعدهم من عتاب
فلى الويل بعدهم وعليهم صرت فردا وملنى أصحابى

ثم صرف الرجل بغلته وذهب ، فتبعه بعضهم حتى أدركوه ، فسألوه من هو ، فقال : أنا حنين بن بلوع ، وأنا رجل جمال أكرى الإبل ، ثم مضى .^(١٠)

وفى عصر الدولة العباسية ذكر الرواة أن (أباجعفر المنصور) الخليفة العباسى حدا به فى بعض حاجاته (سالم الحادى) ، وكان ينشده فى طريقه قائلا :

أبلج بين حاجبيه نوره إذا تغدى رفعت ستوره
يزينه حياؤه وخيره ومسكه يشوبه كافوره
فطرب الخليفة العباسى (أبوجعفر المنصور) حتى ضرب برجله المحمل ، ثم قال لأحد رجاله ويدعى (ربيع) : ياربى أعطه نصف درهم ، فقال (سالم) : لا غير يا أمير المؤمنين ؟ والله لقد حدوت بهشام بن عبد الملك بن مروان فأمر لى

بثلاثين ألف درهم ، فقال له (المنصور) : ما كان له ان يعطيك من بيت مال المسلمين ما ذكرت ، ثم التفت الخليفة العباسي إلى (ربيع) وقال له : ياربيع . وكل به من يستخرج هذا المال منه ! . قال (ربيع) : فمازالت أسفر بينهما حتى شرط عليه أن يحدو به في خروجه وبقوله بغير مؤونة ، وكان (سالم) هذا تورد له الابل بعد الثمان والتسع والعشر من المسافات المقننة لها للراحة ، فيحدو لها ، فيلهيها حدوه عن ورود الماء .^(١١)

وروى (أبوالمحكم عوف بن الحكم الشيباني) فقال : « كانت لي وفادة على (عبدالله بن طاهر) إلى خراسان ، فصاحفته يريد المسير إلى الحج ، فعادته في العمارية من مرور إلى الري ، فلما قاربنا الري سمع (عبدالله بن طاهر) ورشانا في بعض الأغصان يصيح ، فأنشد (عبدالله) يقول :

إلا يحمام أليك إلفك حاضراً
وغصنك مياس فقيم تنوح

أفك لا تنزع من غير شيء فإنني
بكيت زماناً والفوائد صحيح
ولوعا فشطت غربة دار زينب

فها أنا أبكي والفؤاد جريح
ثم قال : يا عوف أجز هذا ، فقال (عوف) في الحال :

أفي كل عام غربة ونزوح

أما للسرى من غربة فتريح
لقد طلع البين المشت ركائبى

فهل أرين البين وهو طليح
وارقنى بالرى نوح حمامة

فشبحت وذو الشجو القديم ينوح
على أنها ناحت ولم تذر دمة

ونحت وأسراب الدموع جفوح
وناحت وفرخاها بحيث تراهما

ومن دون أفراسى مهامه فيح
عسى جود عبدالله أن يعكس النوى

فتضحى عصا الأسفار وهى طريح
فإن الفتى يدنى الفتى من صديقه

وعدم الفتى بالمقترين نزوح
قال : فأخرج رأسه من العمارية ، وقال : ياسائق . ألق الزمام ، فالقاه . فوقف

ووقف الحاج ، ثم دعا صاحب بيت ماله ، فقال له : كم يضم ملكنا في هذا الوقت ؟
فقال : ستين ألف دينار . فقال : إدفعها إلى (عوف) . ثم قال : يا عوف ، لقد

ألقيت عصا منظومك فأرجع من حيث جئت ، قال : فأقبل خاصة (عبدالله) عليه يلومونه ، ويقولون : أتجيز أيها الأمير شاعرا في مثل هذا الموضع بستين ألف دينار ولا تملك سواها ؟ فقال : إليكم عني ، فإنني استحييت من الكرم أن يسير جملي و (عوف) يقول « عسى جود عبدالله » وفي ملكي شيء لا ينفرد به . ورجع (عوف) إلى وطنه ، فسئل عن حاله ، فقال ، رجعت من عند عبدالله بالغنى ، والراحة من النوى .^(١٢)

وكان من أشهر المغنين (مخارق بن يحيى الجزار) ، والذي وصفه الشاعر العربي الزاهد (أبو العتاهية) حين سمع الغناء من حنجرتة بقوله : « يادواء المجانين . لقد رفقت حتى كدت أحسوك ، فلو كان الغناء طعاما لكان غناؤك أدما . ولو كان شرابا لكان ماء الحياة .. »^(١٣)

قال عنه (هرون بن محمد بن عبد الملك الزيات) : « أنه خرج ذات مرة إلى باب الكناسة بمدينة السلام ، والناس يرتحلون للخروج إلى مكة ، فنظر إليهم واجتماعهم وازدحامهم ، فقال لأصحابه الذين خرجوا معه : قد جاء في الخبر أن (ابن سريج) كان يتغنى في أيام الحج ، والناس يمني فيستوقفهم بغنائه ، وساستوقف لكم هؤلاء الناس وأستلهمهم جميعا ، ليتعلموا أنه لم يكن ليفضلني إلا بصنعة دون صوته ، ثم اندفع يؤذن ، فاستوقف أولئك الخلق واستلهاهم ، حتى جعلت المحامل يغشى بعضهما بعضا ، وهو كالأعمى عنها لما خامر قلبه من الطرب لحسن ما يسمع .^(١٤)

وقال (هرون بن مخارق) عن أبيه : أن الخليفة العباسي (المأمون) سألته لما قدم مكة عن أحدث صوت صنعه ، فغناه :

أقبلت تحصب الجمار وأقبلت لرمي الجمار من عرفات
ليتني كنت في الجمار أنا المحصب من كف زينب حصيات
قال : فضحك (المأمون) ، ثم قال : لعمرى إن هذا لأحدث ما صنعت ، ولقد قنعت بيسير ، وما أظن (بهار) - زوجته - كانت تبخل عليك بأن تحصبك بحصاة كما تحصب الجمار . واستعاده الصوت مرات .^(١٥)

وقيل أن رجلا حج ذات مرة مع المغنى (مخارق) ، فلما قضى الحج وعادا ، قال له الرجل في بعض طريقه : بحقى عليك غننى صوتا ، فغناه :

رحلنا فشرقنا وراحوا فغربوا

ففاضت لروعات القراق عيون
فرقع الرجل يده إلى السماء وقال : اللهم إني أشهدك أنى قد وهبت حجتي له ..^(١٦)

ما من شك كان لأرباب حرفة الغناء والانشاد العربي القديم في وقت قدوم أو رجوع قوافل الحج كل الاجلال والتقدير ، سواء أكان هذا نابعا من ولاة الأمور أو من العامة من الناس ، وسواء أكان أيضا هدف هذا الغناء أو الانشاد هو إثارة

الشجون والمهج على فراق الأحبة أو الأهل والديار ، أو غير ذلك من المقاصد الغنائية الشجية .

ولقد اهتم بإبراز صورة المنشد بعض الأدباء الذين كتبوا في أدب المقامات ، مثل (الحريري) (٤٤٦ - ٥١٦) ، والذي وقف عند المنشد المكذ الجوال (أبي زيد السروجي) كما في المقامة (الرملية) في أسلوب جمع كلمات منثورة إلى جوار شعر منشد ، وهو يقف أمام جمع من الحجيج بالشام ، يتأهب للرحيل إلى مكة ، فيقول في البداية بأسلوب نثرى لهم : « أتخالون أن الحج هو اختيار الرواحل وقطع المراحل واتخاذ المحامل وإيقاد الزوامل ؟ أم تظنون أن النسك هو نضو الأردن وإنضاء الأبدان ومفارقة الولدان والتناثي عن البلدان ؟ » (١٧)

هنا لا يقف (الحريري) مكتوف اليدين أمام صورة يستنكرها من الأعماق ، بل يخط ملامح الصورة الحقيقية التي تتناسب وجوهر رسالة الذهاب إلى بيت الله الحرام ، من خلال إنشاد (أبي زيد السروجي) ، والذي قال عنه : « .. ثم رفع عقيرته بصوت أسمع الصم وكاد يزعزع الجبال الشم وأنشد : (١٨)

ما الحج سيرك تاوييا وإدلاجاً (١٩)
ولا اعتيامك (٢٠) أجماً (٢١) وأحداجاً (٢٢)
الحج أن تقصد البيت الحرام على
تجريدك الحج لا تقضى به حاجاً (٢٣)
وتمتطي كاهل الإنصاف متخذاً
ردع الهوى هادياً (٢٤) والحق منهاجاً
وإن تواسى ما أوتيت مقدرة
من مد كفا إلى جدواك محتاجاً .
فهذه إن حوتها حجة كملت
وإن خلا الحج منها كان إخراجاً (٢٥)
حسب المرائين غبنا أنهم غرسوا
وماجنوا ولقوا كداً وإزعاجاً
وانهم حرموا أجراً ومحمدة
والحموا عرضهم من عاب أوهاجي
أخى فابغ بما تبديه من قرب
وجه المهيمن ولأجاً وخراجاً
فليس تخفى على الرحمن خافية
إن أخلص العبد في الطاعات أوداجي (٢٦)
وبإادر الموت بالحسنى تقدمها
فما ينهنه (٢٧) داعي الموت إن فاجاً (٢٨)

واقن التواضع خلقا لا تزايله
 عنك الليالى ولو البستك القاجا
 ولا تشم كل خال لاح بارقه
 ولو تراءى هتون السكب^(٢٩) ثجاجا^(٣٠)
 ما كل داع باهل ان يصاخ له
 كم قد اصم بنعى بعض من ناجى
 وما اللبيب سوى من بات مقتنعا
 ببلغة تدرج الايام^(٣١) إدراجا
 فكل كثر إلى قلب مغبته
 وكل ناز إلى لين^(٣٢) وإن هاجا^(٣٣)

وينشد (أبوزيد السروجي) في ختام هذه المقامة امام جمع الحجيج الذى سار
 الهوينا امام ناظريه فوق الكتبان الرملية ، على ايقاع دقات كفيه طربا :^(٣٤)
 ليس من زار راكبا مثل ساع على القدم
 لا ولا خادم اطا ع كعاص من الخدم
 كيف ياقوم يستوى سعى بلن ومن هدم
 سيقم المفرطو ن غدا ماتم الندم
 ويقول الذى تقر ب طوبى لمن خدم
 ويك يانفس قدمى صالحا عند ذى القدم
 وازدرى زخرف الحيا ة فوجدانه عدم
 واذكرى مصرع الحما م إذا خطيه صدم
 واندى فعلك القبيح وسخى له بدم
 واد بغيه بتوبة قبل ان يحلم الأدم
 فعسى الله ان يقيق السعير الذى احتدم
 يوم لا عثرة تقا ل ولا ينفع السدم

وفي مصر خلال عصر سلاطين المماليك لعبت الأشعار والأزجال والأغاني
 والموسيقا الشعبية دورا كبيرا في تشكيل وجدان الناس فيها ، خاصة انها حملت
 الأحداث التاريخية معها فيما يتعلق برحلات قوافل الحج التى كانت تروح وتغدو
 قادمة من الأراضى الحجازية .

ومن تلك الأحداث التاريخية الهامة ما حدث في عام ٦٧٧ هجرية ايام سلطنة
 السلطان (السعيد محمد بن الظاهر بيبرس) المملوكى .

ذكر لنا (ابن ايس) في تاريخه عن هذا السلطان المملوكى فقال : « .. ومن
 الحوادث في أيامه ان العرب خرجوا على الحجاج في أثناء الطريق ، ونهبوا جميع
 أموالهم ، وقتلوا منهم جماعة ، وكان أمير المحمل في تلك السنة ، الأمير

(بورى) ، فلما جرى ذلك هرب ، وفى ذلك يقول المعمار : (٣٥)
لقد أخذوا الحجاج فى عام سبعة وسبعين حقا بعد نهب تمكنا
وصار أمير الركب بورى هاربا ولولا اختفاه صار بورى مكفنا
وهنا يبرز دور الشاعر الهام فى مدى اظهار الروح الفكهة والتهكم على حكامه من
خلال هذا الموقف ، فالمعروف فى مصر أن سمك (البورى) المملح يكفن فى عدة
مناطق ويوضع فى الرمال مع الملح حتى يتم نضجه فيستخرج عندئذ ويؤكل
لحمه ، ولا يغيب عن البال أقران تلك الصورة بصورة أمير المحمل (بورى) إذا
كان قدر له الله أن يموت فى تلك الحادثة التاريخية ويدرج فى كفن الموت . !
وفى حوادث سنة ٧١٣ هجرية ذكر لنا (ابن اياس) أن السلطان المملوكى
(الناصر محمد بن قلاون) أثناء عودته من حجته الأولى استقبلته المغانى فى
أثناء دخوله القاهرة مع من استقبله فى موكبه من القضاة الشرعيين الأربعة ،
وكبار الحكام وعامة الناس . (٣٦)

ولم ينس (ابن اياس) أن يذكر لنا حادثة طريفة فى زجل عامى نظمها أحد
الزجالين فى فيل يدعى (مرزوق) كان يطاق به مع موكب المحمل ، وكان هذا الفيل
لسوء حظه أن أخرجه غلمان السلطان (الناصر فرج بن الظاهر برقوق)
المملوكى ، ليسيروا به ، فتوجهوا به إلى نحو (بولاق) ، من الطريق التى تطل
على قنطرة باب البحر ، فوق هناك ومات وسط فرجة العامة عليه ، وقيل فى هذا
الزجل الذى حمل طرفة التهكم من تلك الحادثة التى وقعت فى ثانى أيام شهر
شعبان سنة ٨٠٤ هجرية : (٣٧)

تعا اسمعوا ياناس الى جرى
الفيل وقع يوم الاثنين فى القنطرة
لما افلسوا غلمان الفيل راموا الحراف
خدوه وراحوا صوب بولاق يجيبوا المطاف
راوا شويخ من اهل الله ما فيه خلاف
جم ياخذوا شىء منه بالزنطرة
دعا على الفيل اتقنطر فى القنطرة
فقلت له يافيل مرزوق ياأسود دغوش
أين حرمتك بين العالم وانت نهوش
وكننت يافيل السلطان زين الوحوش
وكننت بالاعجاب تزهو فى المخطرة
وقد بقيت اليوم مطروح فى القنطرة
والفيل لسان حاله ناطق للناس يقول
كم كنت دور فى الزفات فوقى طبول

وكننت دور في المحمل ولي قبول
كنت عروسه حين تجلى في منظره
واليوم كان آخر مشى في القنطرة

لم يترك أبناء الشعب المصري فرصة لذهاب أو عودة قوافل المحمل المصري
إلا واستقبلوا أمراء المحمل بما يناسب ظلمهم الذي أثقل كاهلهم ، وكان أوضح
مثال لذلك يوم استقبال المحمل العائد من الأراضي الحجازية في ربيع الأول
سنة ٩٠٩ هجرية ، يومها زفوا أمير المحمل (الأتابكي قيت الرجبي) قائلين :^(٣٨)

حججت البيت ليتك لا تحج
فظلمك قد فشى في الناس حس
حججت وكان فوقك حمل ذنب
رجعت وفوق ذاك الحمل خرج

وبعد نحو شهور أربعة من تلك الحادثة استقبل أبناء الشعب ذهاب محمل
السلطان (الغوري) في طوافه الرجبي قبل الذهاب لاداء العمرة بأغنية تحمل
مضمونا عميقا يكشف عن جوهر هذا الشعب ، هذه الأغنية تقول :^(٣٩)

بيع اللصاف والطراحة
حتى أرى ذي الرماحة
بيع اللصاف ذي المحمل
حتى أرى ذا المحمل

فهذا الشعب الذي يقول ذلك ليس إلا محب منوله في معبد عقائده الدينية
الشعبية ، حتى ولو أدى به ذلك إلى بيع ما يلتحف به من البرد ولو كان ثمينا
أو عزيزا ، فمجرد رؤية المحمل وهو جلو الوفاض من أسباب عيشه الضرورية
بركة لا تعد لها بركة . . . !

كان موكب المحمل في العصر المملوكي في مصر يحمل من الموروث الشعبي
العربي القديم جماعة حدادة الابل والمغنيين أو المنشدين أو ما اصطلح على
تسميتهم بالمغاني عند مؤرخي هذا العصر .

وظهر ذلك واضحا في محمل (خوند بركة) أم السلطان (الأشرف شعبان
ابن قلاوون) سنة ٧٧١ هـ ، وفي محمل (خوند فاطمة) زوجة السلطان
(الأشرف قايتباي) سنة ٨٧٩ هـ ، وفي هذا المحمل الأخير ظهر اسم بعض المغنين
والحدادة ، وإن طمست تماما الأغاني التي كانوا يتغنون بها .

يقول عن موكب هذا المحمل (ابن ايلس) واصفا محمل السلطنة : « ومشت
قدام محفتها بالرملة جميع أرباب الدولة ، وهم : كاتب السر ، وناظر الجيش ،
وناظر الخاص ، وغير ذلك من المباشرين ، ومشى الزمام ، ومقدم الممالك ، وأعيان
الخدام بأيديهم العصي ، وقدامها من الحدادة أربعة ، منهم : (ابراهيم بن
الجندي) المغني ، و (أبو الفوز) الواعظ ، وغير ذلك »^(٤٠)

ومن الآلات الموسيقية التي كانت تصاحب موكب المحمل (الكوسات) . وهي التي ذكرت عند وصف محمل (خوند طغاي) زوجة السلطان (الناصر محمد بن قلاوون) سنة ٧٢١ هجرية ، ومحمل (خوند بركة) والددة السلطان (الأشرف شعبان) سنة ٧٦٤ هجرية^(٤١)

هذه الكوسات يصفها (القلقشندي) قائلا : « هي صنوجات من نحاس شبه الترس الصغير ، يدق أحدهما على الآخر بإيقاع مخصوص ، ويتولى إيقاع ذلك الكوسي^(٤٢) .

وانفرد استقبال عودة محمل (خوند فاطمة) زوجة السلطان (الأشرف قايتباي) سنة ٨٨٠ هجرية باستخدام المغانى للطارات أي الدفوف^(٤٣) .

وأما في العصر العثماني فقد بدأت الزمور إلى جوار الطبول تدخل في موكب المحمل المصري ، كما روى لنا (الجبرتي) في أعوام ١٢١٩ ، ١٢٢١ ، ١٢٢٢ ، ١٢٢٣ هجرية ، وفي هذا العام الأخير ظهرت الجوقات في احتفاليات المحمل المصري تؤدي هي الأخرى دورا لها في المناسبة^(٤٤) .

وبسبب هذه الطبول والزمور حدثت أزمة بين الوهابيين في الأراضى الحجازية وحجاج المحمل المصري في سنة ١٢٢٢ هجرية ، والتي قال عنها (الجبرتي) في تاريخه : « .. وصل حجاج المغاربة إلى مصر من طريق البر ، وأخبروا أنهم حجوا وقضوا مناسكهم ، وأن (متقود الوهابي) وصل إلى مكة بجيش كثيف ، وحج مع الناس بالآمن وعدم الضرر ورخاء الأسعار ، وأحضر (مصطفى جاويش) أمير الركب المصري ، وقال له : ما هذه العوידات والطبول التي معكم يعني بالعوידات المحمل ، فقال : هو إشارة وعلامة على اجتماع الناس بحسب عاداتهم ، فقال : لا تأت بذلك بعد هذا العام وإن أتيت به أحرقتك^(٤٥) » .

ولم يكن اعتراض الوهابيين على عادات المحمل المصري فقط ، بل شمل ذلك أيضا المحمل الشامي بطبله وزمره^(٤٦) .

وفي عصر (محمد علي) استمرت الموسيقى والأناشيد والأغانى تؤدي دورها في موكب المحمل المصري ، للاحتفاء به والابتهاج عند استقباله .

كان الأهالي يخرجون لملاقاة المحمل القادم من الحج وفي صحبتهم الآلات الموسيقية بالطبول والزمور عند (بركة الحاج) قبل دخولهم إلى القاهرة ، كما قال واصفا ذلك (ادوارد وليم لين) ، أما (جيران دي نرفال) ، فقد ذكر مع الآلات الموسيقية أبواقا وإن لم يحدد نوعها^(٤٧) .

وذكر (لين) ضمن ما ذكر في وصفه موكب المحمل أن : « ظهر عدة رجال راكبين الجمال ، يضرب كل منهم زوجا من النقارات مربوطا بمقدم السرج^(٤٨) » .

هذان الزوجان من النقارات قال عنهما : « وهما من النحاس الأحمر ، ولا يختلفان في الشكل ، فهما على هيئة ثلثي دائرة تقريبا ، ولكنهما يختلفان في السعة . فالأكبر قطره عند السطح المستوي قدمان تقريبا ، والآخر قدم ونصف .

وهما يحملان على جمل ، ويربطان في مقدم السرج حيث يجلس الضارب والطبل الأكبر يوضع على اليمين ،^(٤٩)

ولقد وصف (جيران دى نرفال) حملة الدقوف في موكب المحمل الذى راه ، قائلا : « كانت الجمال الأولى تحمل قارعى دقوف من الشبان عارى الأذرع ، وكانوا يرفعون عصاهم المذهبة ، ثم يتركونها تسقط وسط باقة من الرايات المرفرفة المصفوفة حول البردعة ،^(٥٠)

وكان غناء العامة وانشيدهم في موكب المحمل المصرى يشكل عنصرا هاما في الاهتمام بالاحتفال بهذه المناسبة . فمنهم طائفة (الدراويش) ، الذين كانوا « يحركون رعوسهم من جانب إلى آخر ، ويرددون اسم الله . وكان مع هؤلاء عدة حمالين وسقائين وكناسين وغيرهم ، وكان بعضهم يصيح (عرفات .. يا الله) و (الله الله .. بالسلامة) .^(٥١)

واضاف (نرفال) وجود العوالم في الموكب الذى وصفه في رحلته إلى مصر ، ووصفهن بأنهن : « مجموعات من العوالم قد انضمت الى القافلة ، وأخذت تنشد مع الجميع انشيدهم الطويلة الصادرة من الحنجرة ، غير خائفات من إبداء وجوههن السافرة ، بما فيها من وشم أزرق واحمر وانوفهن ذات الحلقات الكبيرة »^(٥٢)

وعند مطلع القرن العشرين وقف بعض الحجاج المصريين على نتف من الأغاني والموسيقا المصاحبتين للمحمل المصرى ، وكذلك بعض من موسيقا واغاني الأعراب في الأراضى الحجازية عند قدوم المحمل المصرى إليهم . ومن هؤلاء الحجاج اللواء (ابراهيم رفعت باشا) و (محمد لبيب البتنونى) .

ومما لاحظته الأول أن الأعراب في بلدة (الحمرة) في الطريق من (ينبع) إلى (المدينة المنورة) كانوا يحدون بإبل الحجيج ، وهم ينشدون قائلين :^(٥٣)

حُتت ولا هزت أطراف الجاعد^(٥٤)

يأبعد مسراحك على اللى قاعد

نبيع بما باعوا ونشترى بما شروا

ولا غبن إلا فى النضا والحلايل^(٥٥)

وكان الحجاج المصريون في طريقهم يقابلهم أطفال بدو الحجاز ، الذين راحوا على الرغم من صغر سنهم يغنون لهم أغانيهم الشعبية التى تقول :^(٥٦)

ياحجاج سلامات

يافتدى سلامات

يابسويا سلامات

إن شاء الله سلامات

إن شاء الله عرفات

إن شاء الله بركات

في حين غنى اطفال آخرون من بدو الحجاز فقالوا لهم

حج حجج بيت الله
والكعبة ورسول الله

وقال اللواء (ابراهيم رفعت باشا) مبيفا حب اهل مكة للموسيقا : « وقد زرت كثيرا من الاشراف والسراة وكانوا يقابلوننا أجمل مقابلة ويردون الزيارة إلينا في المعسكر ، فكنت أكرمهم غلية الاكرام ، وكان ضباط الحرس يعطفون عليهم ، ويتحدثون معهم وكانوا ولعين بسماع الآلات المطربة ، فكنت استحضر لهم الموسيقا والمزمار البلدى ، فيتكلمون بالالحان مما يزيد في ابتهاجهم وانتشراح صدورهم ، وكانت الموسيقا تعزف كل يوم بعد صلاة العصر حتى تتوارى الشمس بالحجاب ، وكان الناس يجتمعون على السماع ترويضاً للأفكار وتهذيباً للنفوس ، فكان لنا الدين والدنيا جميعا ،^(٥٧)

وقال في موضع آخر ، وهو يصف شغف اهل مكة بالموسيقا وقت رحلة المحمل المصرى إلى الأراضى الحجازية سنة ١٣١٨ هجرية الموافقة ١٩٠١ ميلادية : « بينما الموسيقا المصرية والشاهانية يتناوبان الالحان اخذ جماعة من اهل مكة يسمون (اهل النوبة) يضربون على النقارات ومعهم آلات أشبه بالرباب يغنون عليها بالاناشيد العربية الجميلة ،^(٥٨)

وعند مرور المحمل المصرى بمدينة جدة كان لأهلها الأذان الصاغية لموسيقاه التى كانت تطربهم . يقول اللواء (ابراهيم رفعت باشا) واصفا ذلك : « وقد كان أهالى جدة صغيرهم وكبيرهم يتواردون علينا عصر كل يوم لمشاهدة المحمل وسماع الموسيقا والمزمار البلدى حتى مغرب الشمس ، ومن بعد العشاء إلى الساعة الثالثة بعد الغروب ، وأيام وجود المحمل بجدة تعتبر عند أهاليها مواسم فرح وسرور ، وانهم ليحبون سماع الالحان حبا جما ، وكان ذلك مركزا في طبيعتهم مفضولة عليه نفوسهم ،^(٥٩)

اما (محمد لبيب البتنونى) فقد وقف عند فنون الغناء والموسيقا وقت رحلته إلى الحجاز مع الخديو (عباس حلمى - الثانى) عام ١٣٢٧ هجرية الموافق ١٩٠٩ ميلادية . قال عن فن الحداء للبدو في الأراضى الحجازية : « ولهم أغنية يتغنون بها في طريقهم ، وهى في الغالب على النغمة العراقية والرومية التى اخذوها عن حجاج الأتراك والشوام ، وجمالهم قرتاح إليها وتستمتع لها ، فتتسببها لحظة ما هى فيه من التعب والعناء . وهذه الأغنية لا يكاد يعرفها من يسمعها لأنها أقرب إلى الرطانة منها إلى العربية ، على أنها لا تخلو من معان دقيقة لطيفة ، وأغلبها غرامية تمثل حكاية محب ومحبيب أو عاشق ومعشوق ، ومنها ما هو مدح في المطايا وديونك شيئا منها :^(٦٠)

يا حبيبي لو ترى حال
والله ما غبت عن بالي
ياسيد وإيش غريك
يارهيف يامرود العين
الله يحاسبهم كما حاسبوني
لو أهني بالحج واوفي جماره

صبح أربع تسمى شعيب الخضارة
مع مثلن كل تهني بداره
يا الله ياراد كل غريب بلاده

حمت اللمن (اليمن) والشام

واللي جرى لي بعد فرقك
ولا نسبت الحصافة ذاك
في داير الحفا والشوك
ياريت خدي يتقسم نعلين
كما رموني بجوف الوقيدة وأنا خي
واقف على العيرات ساجدين مع الربيع
(الجبل المرتفع)

مع مثلن يمسي بوادي الربيع
وادي النعيم اللي عذوقه مهابيع
والذوق (النوم) بعد القسا
(التعب الشديد)

وكل دايره جيت من دارها



لي في اللمن سيد ولي في الشام باشا
إن جيت عند اللي في اللمن يبقى السيد يملكني
وإن جيت عند اللي في الشام يبقى الباشا يحكمني

وعندما خرج الخديو (عباس حلمي الثاني) قاصدا عرفة كانت فرقة الأعراب
من أمامه تضرب نوبتها ، ويوقعون عليها بنشيدهم الرخيم ، وأصوات الخلق
فيما بين ذلك تعلقو بالتلبية وراء التلبية^(٦١)

وعند الافاضة من عرفات قال (البتنوني) : « انتظم الموكب فسار في مقدمة
الركب كوكبة من عسكر البيشة بهجنهم ، وفي وسطهم فرقة منهم تدق نوبتهم ،
والباقون يتغنون بنغمات تدخل رناتها في القلوب فتملؤها سرورا وحبورا ، يتلوها
الجناب العالي ، وحضرة الشريف يتلوها حاشيتهما ، ومن ورائها فرقة الموسيقا
العربية تعزف بنغماتها الشجية . »^(٦٢)

وقال يصف التشريفات بمنى وسط عزف الموسيقا : « اثناء مقابلات الخديو
كانت تعزف في اطراف المصطبة موسيقات الحرس الخديوي والمحمل المصري
والشامي وموسيقا القوة العسكرية الموجودة بمكة ، وإلى جانبها المزمار البلدي ،
تتخلل نغماتها طلقات المدافع وهتاف الحجيج بأصوات السرور من كل
جانب »^(٦٣)

وكانت هذه الموسيقا المصرية مثار جذب لحجاج بعض المحامل الأخرى ، مثل
محمل دارفور أو التكرور ، مما أدى إلى الاندماج معها في حركات ايقاعية منتظمة ،
والتي وصفها (محمد لييب البتنوني) قائلا : « لاحت من الخديو التفاتة فرأى
عسكر (علي بن دينار) سلطان (دارفور) مع رئيسهم الذي أتى بمحملهم وراء

صفوف الناس من بعد ، فارسل فاستحضر رئيسهم ، وبعد أن لطفه وحياء بما يليق بكرمه أمره - حفظه الله - بأن يسير بجندة في هذا الاستعراض ، فسار يتقدم رجاله الذين كانوا يحركون حرابهم على نغمة الموسيقى بحماسة كأنهم يتحركون إلى حرب أو طعان ،^(٦٤) .

أما في الأزمنة المتأخرة فقد كان توديع كسوة الكعبة المشرفة في القاهرة يقام له مناسبة خاصة وهامة تلعب فيها الأغاني والموسيقى الشعبية دورا كبيرا في هذا الحفل . ولقد وصف (محمد فهمي عبداللطيف) نوعا من الغناء والمدائح والأهازيج التي كان يتغنى بها المنشدون ، وتترنم بها الجماعات من الرجال والسيدات في أيام (طلعة المحمل النبوي) وتوديع كسوة الكعبة المشرفة ، والمسافرين إلى حج بيت الله الحرام .

قال : « كان توديع الكسوة يتم في حفل حافل يتبارى فيه كبار المطربين والمنشدين في انشاد المدائح النبوية ، وكان فارس الميدان في هذا المرحوم الشيخ (يوسف المنيلوى) ، ثم الشيخ (على محمود) من بعده ، وكذلك يوم طلعة المحمل ، لقد كان يوما مشهودا تتعطل فيه الأعمال في المصالح والدواوين ويحتشد له الناس جماعات من كل صوب في زحام أشبه بالحشر للتبرك برؤية المحمل الشريف وهو يخترق شوارع القاهرة في موكبه الحافل بالموسيقى والأناشيد وضرب النقاير . وكان للحج أغنية شعبية مشهورة ترددها السيدات في أداء جماعي عذب الترانيم في وداع الحجاج ، وفي استقبالهم ، كما كانت ترددها السيدات المسافرات للحج وهن يقطعن الرحلة على ظهور الجمال من جدة إلى مكة ، ومن مكة إلى المدينة المنورة ، وهي أغنية تتحدث عن الطريق إلى الحج ، وركوب الوابور . والبحر ، وذكر شعائر الحج بالترتيب ، وزيارة النبي والأعتاب ، وكان من العادة أن تبدأ سيدتان الغناء معا بكلمة : (ياهنا اللى انوعد) ، فترد الجماعة بصوت محدود : (ياهناه .. ياهناه اللى اتوعد) .

وهكذا يجرى التردد في آخر كل مقطع من مقاطع الأغنية على النحو التالى :^(٦٥)
أنا أمدح محمد والحسن والحسين والقاسم أحمد ..
بلغ العاشقين يارب زيارة محمد .. مديح باشتياق أنا ما أمدح إلا النبي ..
ياهنا اللى انوعد .. ياهناه ..



باليلة أن برزوا وباتوا لبره وبات قلبى فى حنين ..
ويطلب من الله يرجعوا سالمين بنصرة من الله ..
ياهنا اللى انوعد .. ياهناه ..



وإن جبت حبيبي يا بabor ، وإن جبت حبيبي ..
لأكنسك وأرشك وبالشمع أقيدك ..
مروق بخوخة يابحر يابحر مروق بخوخة ..
لا يمسخ عكار ولا ريح بدوخة تحت القلوع أبوشال وجوخة ..
في رابع نوى الاحرام ولبس احترامه [رابع هي نقطة الاحرام لمن حاذى مدينة
« أبا ، برا وبحرا] ..
يا يوم الهنا يوم خلوه يحل احرامه ..
ياهنا الى انوعد .. ياهناه ..



يافرح قلبي يوم طلوع الجبل .. والخطيب على الجمل .. والمبلغ يرقى ..
يافرح قلبي ساعة النقرة وفرحت عيونا ونزلنا بفرحة .. وفوتنا من بين
العلمين ..
ياهنا الى انوعد .. ياهناه ..



كان القمر لايج .. يوم دخولنا منى ونصبنا الخيم وديحنا الدبايح ..
وافتكنا العيال .. وبقي الدمع سيال ..
وبعد ثلاث أيام حملنا مكة ..
وطفنا طواف الوداع وبرزنا ..
والجمال حملنا وعلى ابوابراهيم سرنا ..
ياهنا الى انوعد .. ياهناه ..



وصلنا قبة المصطفى والاعتاب زمرد ..
حول مقام النبي قال الطواشي فين ياجماعة ..
زوروا النبي زوروا واطلبوا الشفاعة ..
ياهنا الى انوعد .. ياهناه ..



وهناك اغنية اخرى شعبية كانت تردد اثناء رحلة المحمل المصرى ، وهذه
الاغنية الشعبية كلماتها ونغماتها تاخذ طابع حذاء الابل في الصحراء ، من حيث
قصر الجملة الغنائية المرددة ، والتي تتناسب وحركة اهتزاز راكب سفينة
الصحراء ، ومن حيث شجن اللحن نفسه ، وهذه الاغنية تقول : (٦٦)
بعيدة بعيدة ياطريج (طريق) النبي ..
بعيدة بعيدة ..
بعيدة بعيدة .. وإن عطاني ربي لأروحك سعيدة ..
ولا مال معايا خاطر ازور النبي ولا مال معايا ..

ولا مال معايا ياكريم ياحنون تحنن ياربى ..
بعيدة بنفسى ياطريج النبى بعيدة بنفسى ..
بعيدة بنفسى وإن عطانى ربى لأروحك برقة ..



صلوا على النبى وزيدوا صلاته ..
دا كان يلاغى القمر محمد ويفهم لغاته ..
يانخل مكة ياطويل ياعالى ..
والتمر منك دوا للمبالى ..
يابير زمزم سلبك حريرى [السلب هو الحبل . والمعنى انه لا توجد مشقة فى
نزول وصعود الدلو عند الشرب ..]

والشربة منك دوا للعليلى ..
يابير زمزم سلبك سلامة ..
والشربة منك دوا للمسافة ..
رايحة فىن يا حاجة ياموشال قطيفة ..
رايحة ازور النبى والكعبة الشريفة ..
وادعيلى يا أمة من فوق المناير ..
ودعيتلك يابنى تيجى بالسلامة ..
وصلتنى ليلة (ليلى) لحد المخاضة ..
عودى يا ليلة لجيت لى رفاجة ..
صلوا على النبى وزيدوا صلاته ..
داكان يلاغى القمر محمد ويفهم لغاته ..
ان المتأمل فى الأغانى الشعبية التى كانت تردد عند الحج وهو ما يسمى باسم
(حنون الحجاج) سيلمح تشابها كبيرا بينها ، من حيث الوزن ، والقافية ،
والحس الداخلى . على الرغم من تلك المتغيرات الثقافية فى المجتمع المصرى ، مثلما
حدث فى وسائل الانتقال والسفر واستبدال (الجمل) كتعبير لفظى بتعبير
(الوابور) ، وهو ما يعنى انتقال الحجاج وسفرهم باستخدام المسكك
الحديدية . من ذلك تلك الأغنية : (٦٧) ..

صغير بشوشة .. حج منا جدع .. صغير بشوشة ..
وزعقته فى الجبل .. بتبعد الوحوشة ..
صغير وزينة .. حج منا جدع .. صغير وزينة ..
وزعقته فى الجبل .. ترج المدينة ..



يابو الخف زينة .. ياجمل ياجمل .. يابو الخف زينة ..
ورايح فىن ياجمل .. دانا رايح اودى الحبيب يزور نبينا ..

يابو دراع حديدى .. يا بابور يا بابور . يابو دراع حديدى ..
ورايج فين يابابور .. دانا رايح اودى الحبايب يزوروا الحبيبي

● ● ●

يارب ما اموت ولا انزل ترابى ..
إلا اما ازور النبى وأبلغ مرادى ..
يارب ما اموت ولا انزل لحدوى ..
إلا اما ازور النبى وأبلغ مقصودى ..
ياهناء اللى انوعد ..

● ● ●

يابشير يابشير يالى تبشر ..
لأدى لك لبنى ونقى تعشر ..

● ● ●

يا رايح بلدنا يا بشير يابشير .. يا رايح بلدنا ..
قول لأهلى العزاز .. يزينوا عتبنا ..
ياللى انت رايح يابشير يابشير .. يالى انت رايح ..
قول لأهلى العزاز .. يحضروا الدبايح ..
وياهناء اللى انوعد ..

● ● ●

ما تستكتروش مالى على الحج والنبى ..
دا نبينا المصطفى على الباب ونده لى ..

● ● ●

ياللى فوق العلالى ، وادعى لى يا أمى .. يالى فوق العلالى ..
دعيت لك ياخوى .. يردك يا غالى ..
يا فوق السطوحى .. وادعى لى يا أمى .. فوق السطوحى ..
يا فوق السطوحى .. ودعيت لك يا أخويا .. يردك يا روحى ..
ولما انت ناوى يابوى .. ولما انت ناوى ..
ولما انت ناوى .. مين يحيى الضيوف .. ويوزع قهاوى ..
ولما انت رايح .. يا حبيبي يابوى .. ولما انت رايح ..
ولما انت رايح .. مين يحيى الضيوف .. ويشترى دبايح ..

● ● ●

خد الكشك كله .. وإن نويت ع السفر .. خد الكشك كله ..
خد الكشك كله .. عند حزم النبى .. اقعد وبله ..

● ● ●

وهدى شويه .. يا وابور السفر .. وهدى شويه
وهدى شويه .. لما ابويا العزيز .. يوصى عليه

● ● ●

لابنى واعلى .. فى طريق النبى .. لابنى واعلى
لابنى واعلى .. وحياة ابوك .. تميل تميل
لابنى خزانة .. فى طريق النبى .. لابنى خزانة
لابنى خزانة .. وحياة ابوك يا حاج .. تميل حدانا
وانا قاعده احلل .. فات عليه البشير .. وانا قاعده احلل
وانا قاعده احلل .. رمى عليه الجواب .. جوابه يظمن
يارايح بلدنا .. يابشير يابشير .. يارايح بلدنا
يارايح بلدنا .. قول لولدى العزيز .. يبيض عتبنا
ببوهيه وزيتى .. نقرش البوابة ببوهيه وزيتى ..
ببوهيه وزيتى .. واكتب حجتى .. على باب بيتى
ورصوا الكراسى .. حوالين قبر النبى .. ورصوا الكراسى

● ● ●

ورصوا الكراسى .. فج نور النبى .. تب كل عامى ..
بنوك جدودى .. يلحرم النبى .. بنوك جدودى
بنوك الجدود .. وسعوا ساحتك .. وعلوا العمود ..
وعاليه فى سماها .. قبلك يانبنى .. وعاليه فى سماها ..
وعاليه فى سماها .. دول يتوها الملوك .. وربى نشاها ..

● ● ●

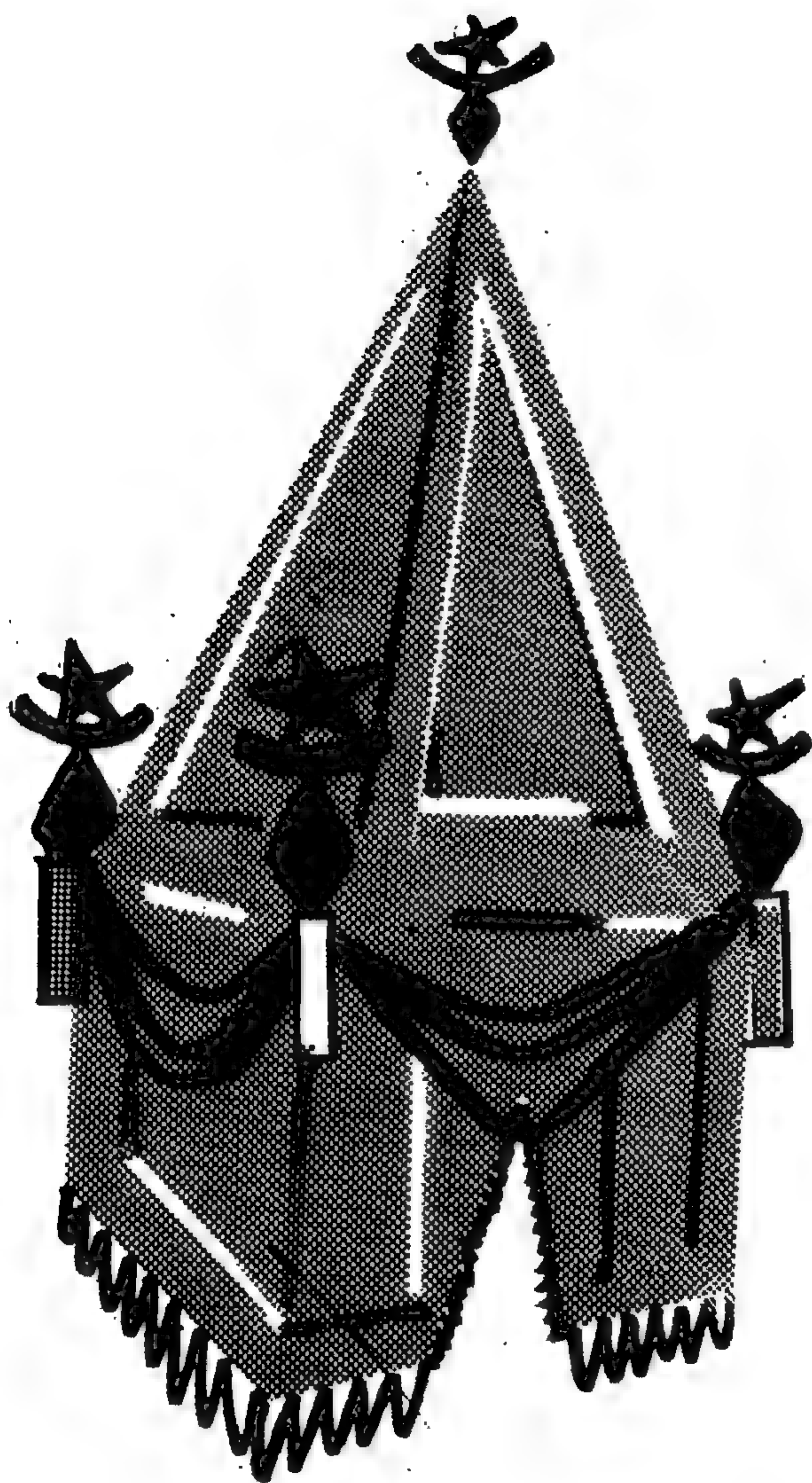
يجيب الامرة .. اللى زار النبى .. يجيب الامرة
يجيب الامرة .. دا الكواكب ذهب .. وخضرة السترة

● ● ●

ومن الاغانى الشعبية التى كانت تردد حديثا فى موكب المحمل المصرى اغنية
(ودينى يا دليل ودينى) ، والتى تقول كلماتها : (٦٨)
ودينى يا دليل ودينى .. ع النبى اشوفه بعينى
النبى أهوعدى وفات .. على منى وجبل عرفات
وهذه الاغنية تعد من الاغانى الشعبية التى وصلت لنا متأخرا ، كما ان هناك
سلاما وطنيا يسمى (سلام المحمل) كان يُعزف خصيصا عند توديع واستقبال
المحمل المصرى فى رحلته إلى الاراضى المقدسة .

ومن الاغانى الشعبية فى موكب المحمل المصرى اغنية : (٦٩)

قعدنا رباعه بق طبل النبى
منين ياجماعه احنا زوار النبى



■ شكل تخطيطي كاريكاتوري شعبي للمحمل المصري ■

أغاني حجاج العجم :

لم ينفرد الحجاج العرب وحدهم بفن الغناء عند الحج ، بل شاركهم الموالي والعجم منذ عهد بعيد . فقد أورد (ابن الجوزي) المتوفى عام ٥٩٧ هجرية ما يؤيد ذلك ، فقال : « إن الغناء يطلق على أشياء منها غناء الحجيج في الطرقات . فإن أقواما من الأعاجم يقدمون للحج فينشدون في الطرقات أشعارا يصفون فيها زمزم والكعبة والمقام ، وربما طربوا مع الانشاد . فسماع أشعارهم مباح ، وليس في إنشادهم إيها ما يطرِب ويخرج عن الاعتدال . » (٧٠)

ويقول الدكتور (حسين مجيب المصري) معلقا على ذلك بقوله : « إننا لانعرف هؤلاء الأعاجم على التحقيق ولا اللسان الذي كانوا يغنون به ، وإن كنا أميل إلى أرجحية أن يكون غير لسان العرب . وإيا ما كان ، فزيارتهم لبيت الله واختلاطهم بالعرب وغيرهم من المسلمين القادمين من شتى أرجاء الأرض والمجتمعين في صعيد واحد ، مما يخرج أغانيهم عن أعجميتها وعربيتها ، ليكسبها طابعا ساطعا لاسلاميتها ، ويجمع عليها المسلمين كافة ، لأنها الناطقة عن مناسك الحج التي تجمعت أمم الاسلام لها وتوحدت بها . » (٧١) إن أغاني الحج عند الترك في خصائصها ومضامينها ومعانيها تفرق في كثير عن مثيلتها العربية ، لأن الأغاني التركية تميل إلى السرد القصصي ، وهو مانعهده في الشعر التركي القديم الذي يرمز إلى مغزى صوفي في معرض قصة ، ومجاهدة النفس والصعب في الدنيا ، مثل قول الشاعر : (٧٢)

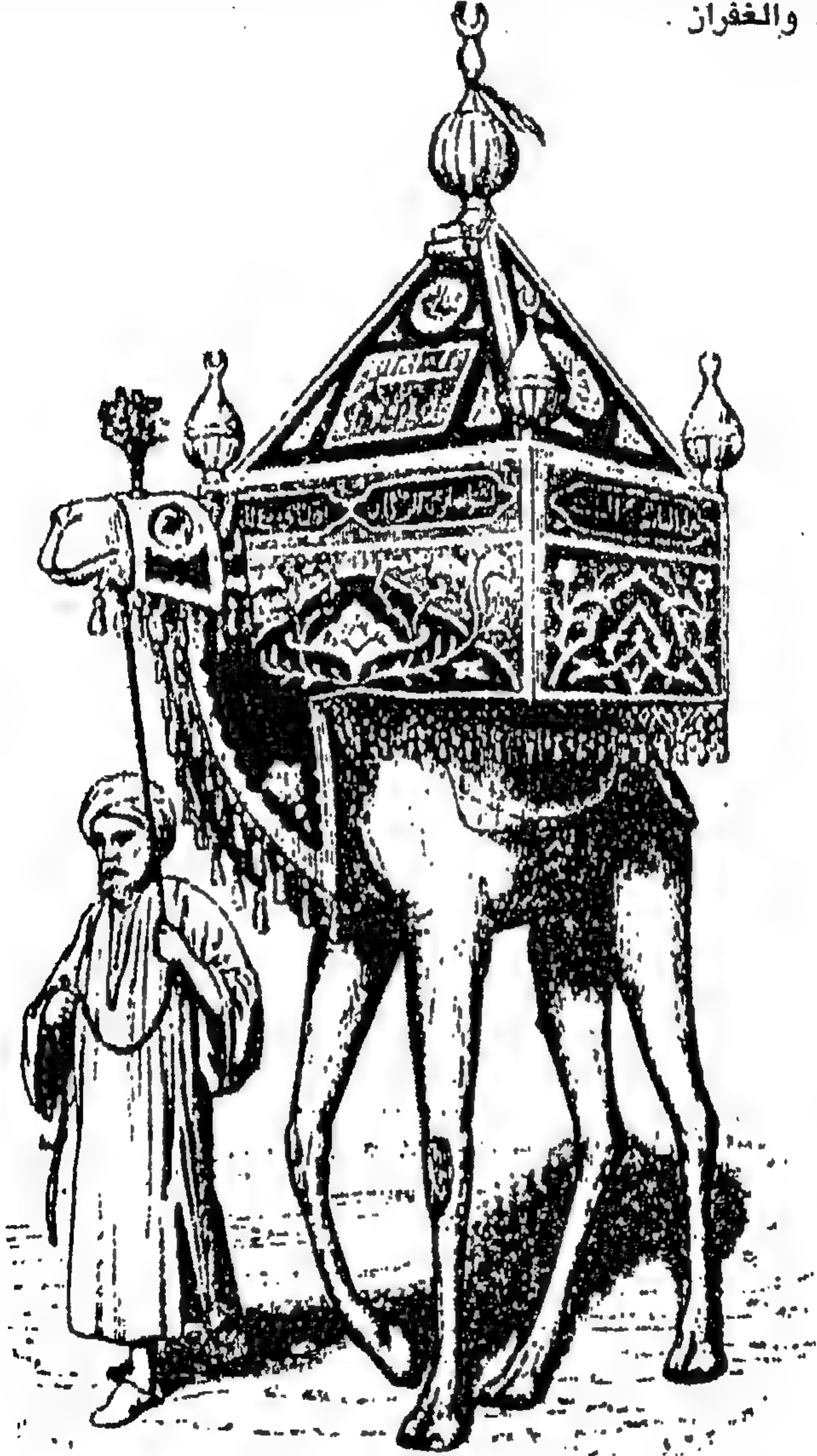
عشقا	لك	في	الطريق	مضيت
في	البحر	والصبراء	ترديت	
لكل	عبد	مثل	هذا	مارايت
وكان	لي	قلله	الحمد	
تلك	الطرق	ضاقت	للفاية	
ولا تبدو	لها	بداية	من	نهاية
تمضي	ليال	وأيام	بما	لها
من	آية			
وأقول	على	الدوام	الله	الحمد

وقد جرت عادة العبيد في مدينة كربلاء بالعراق في القرن الماضي على ترديد أغنية تركية عراقية ، كانوا يغنونها عند الطواف بديار من قدموا من حج بيت الله الحرام ، ويعرفون لكلماتها على معارفهم منشدين : (٧٣)

قدر	الدوام	لهذا	يا إلهي
اكتب	السلامة		يا إلهي
اجعل	البركة	في	عمرهم
قدر	الدوام	لهذا	يا إلهي

وسواء أكلن الغناء للحجيج عربيا أو أعجميا فلا فرق في ذلك بينهما لأن

الباعث في كل منهما إنساني ، وفوق الغناء شوق وقصد إلى الغسل من أدران
الذنوب والغفران .



■ المحمل كما رسمه المستشرق ادوارد وليم لين ■

الهوامش والمراجع

- (١) د . فؤاد زكريا - « التعبير الموسيقى » - ص ٨ - مكتبة مصر بالفجالة - الطبعة الثانية - ابريل ١٩٨٠
- (٢) د . حسين نصار - « الشعر الشعبي العربي » - ص ٧٠ - المكتبة الثقافية رقم (٦٠) - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر - أول مايو ١٩٦٢ .
- (٣) أبوطالب المفضل بن سلمة - « كتاب الملاحى وأسماؤها » - ص ٢٩ - تحقيق وشرح غطاس عبد الملك خشبة - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥ .
- (٤) أبو الفرج الأصفهاني - « الأغاني » - ص ٥٠٩ المجلد الثاني - هذب ابن واصل الحمودى - كتاب التحرير ١٩٦٣ .
- (٥) د . حسين نصار - « الشعر الشعبي العربي » - ص ٧٢ .
- (٦) أبو الفرج الأصفهاني - « الأغاني » - ص ٢٦١ المجلد الأول - تحقيق : ابراهيم الابيارى - دار الشعب ١٩٦٩ .
- (٧) المرجع السابق - ٢٩٣ .
- (٨) الحصاب : موضع رمى الجمار بمنى .
- (٩) صفى السبب : موضع بمكة به ماء قريب من بيت أبى موسى الأشعرى .
- (١٠) أبو الفرج الأصفهاني - « الأغاني » - ص ٣٥٥ ح ٢ - اعداد لجنة نشر كتاب الأغاني اشراف : محمد أبو الفضل ابراهيم - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٠ .
- (١١) عبد القادر الأنصارى الجزيرى - « درر الفرائد المنظمة » - ص ٢١١
- (١٢) المرجع السابق - ص ٢١٢
- (١٣) أبو الفرج الأصفهاني - « الأغاني » - ص ٣٤٦ ح ١٨ .
- (١٤) المرجع السابق - ص ٣٤٥ ح ١٨ .
- (١٥) المرجع السابق - ص ٣٧٢ ح ١٨ .
- (١٦) المرجع السابق - ص ٣٧٣ ح ١٨ .
- (١٧) مقامات الحريري - ص ٣٢٦ - المكتبة الشعبية - بيروت بلبنان - بدون تاريخ .
- (١٨) المرجع السابق - ص ٣٢٨
- (١٩) سير النهار وسير الليل .
- (٢٠) أى اختيارك .
- (٢١) بالجيم والحاء المهملة .
- (٢٢) جمع جِدَح بالكسر ، وهو مركب من مراكب النساء كالمحفة .
- (٢٣) جمع حاجة .
- (٢٤) أراد من هذه الاستعارة أن يتبع الانصاف والعدل ولا ينفك عنه أن يجعل هاديه في سره ردع هواه ومخالفة نفسه وقمعها .
- (٢٥) أى نقصانا ، والمعنى كان الحج ناقصا من اخذت الناقة إذا اقت بولدها ناقص الخلق ولو لتمام الوقت ، وخدجت خدجا القته قبل النتاج ولوقام الخلق .
- (٢٦) من المداجاة ، وهى النفاق هنا .
- (٢٧) أى فما يؤخر ولا يمنع من نهته عن كذا زحزحته ومنعته عنه .
- (٢٨) فاجاه .

- (٢٩) اى ولو تخيل لك وطننته .
- (٣٠) ثجاجا : اى متتابع القطر .
- (٣١) اى تسوقها وتمضيبتها من درج القوم إذا انقضوا أو تطويها كطى الكتاب .
- (٣٢) اى نهاية كل متشدد إلى الارتقاء مستفاد من قولهم نفرو وقتلن .
- (٣٣) من الهيجان .
- (٣٤) الحريرى - مقاماته - ص ٣٣١ .
- (٣٥) هو ابراهيم بن على المعمار - ارجع إلى (ابن اياس) فى كتابه « بدائع الزهور » ص ٣٤٦ - ١ ق ١ .
- (٣٦) ابن اياس - « بدائع الزهور » - ص ٤٤٣ - ١ ق ١ .
- (٣٧) المرجع السابق - ص ٢٠ - ص ٢١ .
- (٣٨) المرجع السابق - ص ٥٧ - ٤ .
- (٣٩) المرجع السابق - ص ٦١ - ٤ .
- (٤٠) المرجع السابق - ص ١٠٤ - ٣ .
- (٤١) المرجع السابق - ص ٤٥٢ - ١ ق ١ ، ابن تغرى بردى - « النجوم الزاهرة » - ص ٥٥ - ١١ .
- (٤٢) القلقشندى - « صبح الأعشى » - ص ١٣٢٩ - ٤ .
- (٤٣) ابن اياس - « بدائع الزهور » - ص ١٠٦ - ٣ .
- (٤٤) الجبرتى - « عجائب الآثار » - ص ٢٩ - ٣ ، ص ١٣٢ - ٣ ، ص ١٨٨ - ٣ ، ص ١٨٩ - ٣ ، ص ٢٤٧ - ٣ ، ص ٤٦٧ - ٣ - دار الجيل ببيروت - بدون تاريخ .
- (٤٥) المرجع السابق - ص ١٨٩ - ٣ .
- (٤٦) المرجع السابق - ص ١٨٨ - ٣ .
- (٤٧) ادوارد وليم لين - « المصريون المحدثون » - ص ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، جيراردى نرفال - « رحلة إلى الشرق » - ص ٢٢٣ - ١ .
- (٤٨) لين - « المصريون المحدثون » - ص ٤١٠ .
- (٤٩) المرجع السابق - ص ٣١٦ .
- (٥٠) جيراردى نرفال - « رحلة إلى الشرق » - ص ٢٢٤ - ١ .
- (٥١) لين - « المصريون المحدثون » - ص ٤١٠ .
- (٥٢) جيراردى نرفال - « رحلة إلى الشرق » - ص ٢٢٥ - ١ .
- (٥٣) ابراهيم رفعت باشا - « مرآة الحرمين » - ص ٢٠ - ٢ .
- (٥٤) الجاعد : الفروة .
- (٥٥) النضا : البعير المهزول ، والحلايل : الزوجات .
- (٥٦) محمد لبيب البتنونى - « الرحلة الحجازية » - ص ٢١٦ .
- (٥٧) اللواء / ابراهيم رفعت باشا - « مرآة الحرمين » - ص ٣٨ - ١ .
- (٥٨) المرجع السابق - ص ٥٠ - ١ .
- (٥٩) المرجع السابق - ص ٢٠ - ١ .
- (٦٠) محمد لبيب البتنونى - « الرحلة الحجازية » - ص ٢١٦ .
- (٦١) المرجع السابق - ص ١٩٧ .

- (٦٢) المرجع السابق - ص ١٩٨ .
 (٦٣) المرجع السابق - ص ٢٠٣ .
 (٦٤) المرجع السابق - ص ٢٠٣ .
 (٦٥) محمد فهمي عبد اللطيف - « الفن الإلهي » - ص ٧٤ - المكتبة الثقافية رقم (٢٢٣)
 - دار الكتب العربي للطباعة والنشر ١٩٦٩ .
 (٦٦) الأغنية للفنانة (فاطمة عيد) ، وهي على شريط كاسيت يحمل اسم (حشيك للقاضي) - انتاج شركة عالم الفن بالقاهرة .
 (٦٧) د . احمد مرسى - « الأغنية الشعبية مدخل إلى دراستها » - ص ٢٦٥ - دار المعارف ١٩٨٣ .
 (٦٨) روى لنا ذلك الحاج (أمين هندى) - ٨٠ سنة - وهو صاحب فرقة الطبل البلدى التى كانت تقوم بزقة المحمل المصرى منذ الثلاثينات - منذ عام ١٩٣٣ ميلادية على وجه التحديد - اما قبل ذلك فكانت فرقة الحاج (على الدخلى) هى التى تقوم بزقة المحمل المصرى بالطبل البلدى والمزمار ، وقد استقيننا هذه المعلومات من الحاج (أمين هندى) بمنزله بالسكاكينى بالقاهرة يوم ٢٥ / ٧ / ١٩٨٨ .
 (٦٩) د . حسين مجيب المصرى - « فى الأدب الشعبى الاسلامى المقارن » - ص ٢٣٧ مكتبة الانجلو المصرية - الطبعة الاولى ١٩٨٠ ..
 (٧٠) ابن الجوزى - « تلبيس إبليس » - ص ٢١٥ - مطبعة فيصل عيسى البابى الحلبي - بدون تاريخ .
 (٧١) د . حسين مجيب المصرى - « فى الأدب الشعبى الاسلامى المقارن » - ص ٢٣٦ .
 (٧٢) المرجع السابق - ص ٢٣٩ .
 (٧٣) المرجع السابق - ص ٢٤٠ .

□ □ □

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق القومية ٣٤٧٣ / ٩١

الترقيم الدولى 3 — 0114 — 08 — 977 ISBN

سنة أولى سجن



للكاتب الكبير
مصطفى أمين

□□ سنة أولى سجن تروى لأبناء مصر
المأساة في حقبة من أحلك حقب
تاريخها .. حيث أهدرت فيها كرامة
المواطن والاعتداء على حرية ..
وهتك الأعراض .. واختفاء الرجال
خلف الأسوار ..
.. صارت مصر كلها خلف الأسوار ..

• ترقب صدوره •



مجموعة فضية
رياسة الرهون
المرو
مجموعة فضية
انتاج

شركة اسكندرية للتريكو والصابون

هذا الكتاب

كسوة الكعبة المشرفة ، رمز غال وعزيز على الأمة الإسلامية ، لم يشرف شعب في الدنيا قدر الشعب المصري بكساء بيت الله الحرام ، وحول هذا الشرف المقدس التفت الأمة الإسلامية تشاركه في بعض المراحل ابتغاء مرضاة الله رب العالمين .

وتاريخ الكسوة ، بعناصره الفنية وجوانبه العديدة قطعة حية من تاريخ العالم الإسلامي . امتزج فيه الشعور الديني العميق بفنون من صاغوا ونسجوا وطرزوا هذا الرمز الجليل .

إبراهيم حلمي الباحث في التراث يقدم في هذا الكتاب دراسة تاريخية ، فنية ، تسجل تاريخ صناعة الكسوة ، والمحمل النبوي الشريف بالكلمة والصور النادرة . انه مرجع نفيس . يعد الأول من نوعه في الكتب العربية . كتاب لا غنى لمسلم عنه .

كتاب اليوم

٢٠٠ قرشاً

Bibliotheca Alexandrina



0248211

